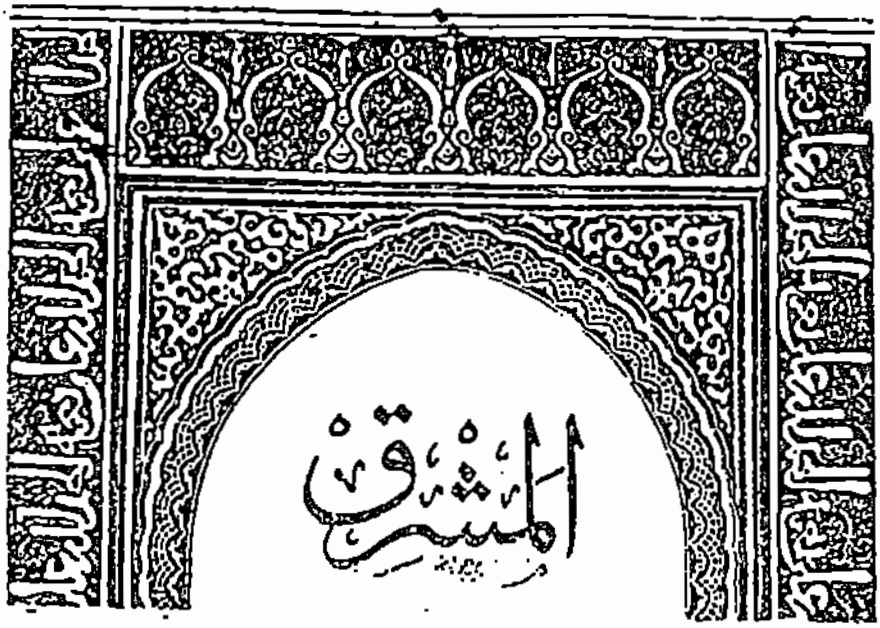

السنة الثالثة والثلاثون

كانون الثاني – اذار ١٩٣٥

الثأر عند العرب

وصفته الدينية

بقلم الاب لامنس اليسوعي

تقدم لنا كلام في سطحية العاطفة الدينية في النفس العربية قبل الاسلام[1]، وفي بُعد هذه النفس عن الاكتراث للشاغل الدينية، وفي خلوّ الشعر الجاهلي، ذاك الشعر الذي نسبه ارنست رينان الى « العبث وعدم التقوى »، من اي اثر للشعور الديني العميق والتقوى الصحيحة.

على اننا نشعر، في القرن الذي وُلد فيه محمد، بان « الله » بدأ يظهر شيئاً فشيئاً، فيعلو اسمه اسماء. تلك الآلهة والالاهات، بل تلك الحجارة المؤلهة التي اعتاد العربُ ان يولوها بعض التكريم. من الحقّ انهم ظلّوا يحلفون «باللات

---

١) اطلب مقالنا في « الحالة الدينية في بلاد العرب قبل الاسلام » (المشرق ٢٩ [١٩٣١] ٨١٥-٨٣٢)

والعُزّى »، ولكنهم بدأوا يزيدون عليهما — مع الشاعر اوس بن حجر — اسم الله »،

ان الله منهنّ أكبرُ !

الله أكبر !

هو هتاف التوحيد الذي سوف ينشره الاسلام في انحاء الجزيرة.

ولكن كيف كان معاصرو أوس من الجاهليين يتصوّرون هذا الاله الاكبر ؟ أكانوا يعتقدونه ابا لتلك الالامات كما قد ينتج من قول القرآن (٣٧: ١٤٩؛ ٥٢: ٣٩) — ام كانوا لا يميزون بينه وبين « الدهر »، على ما في هذه اللفظة نفسها من الغموض ؟

كلها امور بحاجة الى عناية شديدة في درسها وتمحيصها، وبحاجة الى الكثير من الشواهد القديمة . وهي عقبة نصادفها كلّما تصدنا الى تفهم عاطفة اولية غامضة، او الى شرح لفظة قديمة شملت مدلولات متأخرة عن عصرها . من ذلك عجزنا اليوم عن تعداد الواجبات الاخلاقية التي كان يفرضها على عرب الجاهلية مدلول « الدين » القديم . وقد نُسرع في عصرنا وننسب الى تلك اللفظة ما تحتوي عليه اليوم من دلالة على عقائد مقرّرة معروفة، وفروض ثابتة محدودة، فنضلّ ونُضلّ . ولهذا فلا بدّ من التحفظ الكلي، اذا ما اردنا مثل هذا التحليل .

بيد اننا لا نُخطئ اذا ما جعلنا بين الفروض التي كان يفرضها على البدوي « دينُه » القديم، « دين العرب »، فرض الثأر[1]. وقد كان البدو يعتبرون هذا الواجب من اثبت مؤسساتهم التقليدية، بل من افضل الضمانات لحياتهم في تلك البلاد . وليس للبدوي الا اسلوب واحد في احترام عادة او شريعة، ليس له الا طريقة واحدة في الاقرار بقيمتها الاجتماعية، هي ان يصبغها بالتقديس ويدخلها بين الفروض القليلة التي تؤلف مادّة « الدين » . وهكذا كان فعله

١) يرادف الثأر « الوتر »، ومنه « الموتور »، اي المصاب الذي يقع عليه واجب الاخذ بالثأر . ويسمّى هذا ايضاً « الوليّ » (القرآن ١٧: ٣٣؛ ٢٧: ٥٠) ويكون عادة اقرب اقربائه القتيل.

بعادة « الثأر » . وقد رأيت ان احاول درس مدلول الثأر ، وتبيان مركزه المهم من تلك الآراء والعبادات الضئيلة التي كانت تؤلف « دين العرب » قبل الاسلام

١

لم يقم شعب من الشعوب بما قام به البدو في سبيل تعزيز صلات القرابة الدموية . وليس هذا لاهتمامهم بما وراء الحياة ، او لان الموت شغلتهم اسراره الغامضة ، فطمحوا الى معرفة الحياة الاخرى . انما كانوا يعتقدون ان في الدم المبدأ الحيوي او « النفس السائلة » كما قالوا[1] . ولهذا فقد رأوا ان سفك الدم يتطلّب الانتقام ضرورة . وانه ، اذا لم يأخذ « وليّ » الثأر بثأره ، اي اذا لم ينتقم قريب القتيل لقتيله ، فان الدم المسفوح يقع اثمه على رأس الوليّ ، حتى آخر نقطة . ومما زاد هذا الاعتقاد رسوخاً في اذهانهم ، فرقهم فوق الاثنانية والفردية اللتين اتصفوا بهما ، هو تحققهم ان طلّ الدم ، او عدم الانتقام ، يفكك اواصر الاسرة ، وهي آخر الحلقات الاجتماعية ، بل الحلقة الوحيدة المعروفة في تلك الحياة الفوضوية في بلاد العرب .

ومن ثمّ فان مصرع النسيب او الجار يزيل حالاً ما يكون من الاختلافات بين افراد الاسرة او القبيلة ، فيعيد الاتفاق الظرفي ويوحد النزعات في سبيل طلب الثأر . بل ان هذا الواجب ، طلب الثأر ، يفعل الافاعيل العجيبة في تلك الطبيعة البدوية الجانحة الى التواكل والكسل ، وحب اللذة السهلة ، والراحة الدائمة ، المنصرفة فطرةً عن الرغبة في الحروب وسفك الدماء ، على ما يبدو من عصبيتها وسرعة احتدامها . انه يحوّل الفتيان الضعاف ، بل الجبناء ، الى رجال شدّة لا يتراجعون امام عقبة ، ولا يخشون حرماناً في سبيل غايتهم . ولا يخرج النساء عن هذا المظهر الذي يكاد يكون قاعدة عامة . فان امهات القتلى واخواتهم ينادين الرجال ، وقد يفتنهم ، حماسةً واندفاعاً في اظهار تلك العاطفة الانتقامية باشعارهنّ ، واناشيدهنّ المهوّسة حتى يُثرنَ ما كمن في صدور الرجال ويدفعنهم الى الاسراع في طلب الثأر ؛ وهو الفرض الديني ، كما سنرى . او لم يجعل هذا

---

١) المسعودي : مروج الذهب ٣ : ٢٠١

الفرض من امرئ القيس ، ذاك الشاعر العابث ، معاقر الخمرة ورفيق اللاهي ، بطلاً تائهاً لا يرتوي ظمأه من الدماء ، ولا يهدأ اضطرابه الا اذا اخذ بثأر ابيه ؟

ولا يخالنّ القارئ ان الدافع الى طلب الثأر فطرة دموية في البدوي او غريزة انتقامية هائجة . لا انما هو عاطفة برّ بالاهل تهيب به الى ارواء «صدى» القتيل بدم القاتل ، حتى وان كان ذاك القتيل قد نبذ وليّ ثأره في حياته ، فطرده من اسرته ، كما فعل حجر الكندي بابنه امرئ القيس . فلم يمنع هذا ابنه ان يطالب بدمه قائلاً «ضيّعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً .»[1] هو دين الاسرة يفهمه البدوي كل الفهم ولا يناقش فروضه ، بل يخضع لها الخضوع التامّ . بيد انه لا يغفل عمّا تجرّه عليه هذه الفروض من اقتحام عقبات وتعرّض للموت . هو يرى المخاطر فيجابهها ويظهر قلقه واضطرابه ، ولكنه يشجّع نفسه على الثبات فيقول :

اقول لنفسٍ لا يُجاد بمثلها : أقلّي التناب ، انني غيرُ مدبرِ [2]

يتعلّق بالحياة ولا يخفي تعلّقه ، ولكنه يرى طلب الثأر واجباً دينياً ، فيحضّ نفسه عليه ، ويرفع صوته عالياً ، لعلّه يدفع ارادته الضعيفة الى تحقيق هذا الواجب الصعب المؤلم الدافع الى المخاطر والاهوال ، ولكنه واجب ديني لا مهرب منه . ولقد ادّى الامر بالبدوي ، في هذا النزاع بين واجب الثأر ونفور النفس من القيام به ، الى اختراع قيود مختلفة دخلت في «طقسيات» الثأر ، اذا جاز لنا التعبير ، وكانت الغاية منها مساعدة البدوي في تذكيره الدائم بواجبه ، وتقوية ارادته ، ردفه الى قتل القاتل . من ذلك انه عمد الى نفسه المفطورة على الحرية بل على الفوضى ، النافرة من كل نظام ، المنصرفة عن كل رغبة زهدية فيها شيء من الحرمان والتقشف ، فقيّدها بسلسلة من التقشفات

---

١) الاغاني ٨ : ٦٧

٢) حماسة البحتري (طبعة شيخو) ص ٩ – وهو من المعاني المتواردة في الشعر . قابل بما ورد في الحماسة غفسها رقم ٣ و٦ ؛ عامر بن الطفيل : الديوان (طبعة Lyall) ١١ : ١١ ؛ والجاحظ : الحيوان ٦ : ١٤٤ ، ١٤٥ ؛ وابن هشام : سيرة الرسول (Wüstenfeld) ٤٣٣ ؛ وحماسة ابي تمام (Freitag) ٤٨٣ البيت ٢

والتضحيات تضير انانيته وشهوانيته معاً. بل تذهب الى ابعد من ذلك اذ تبدو لديه، وعليها مسحة دينية من «الاحرام»، فتضعه في «الحرم»، على لغة الكتاب المقدّس[1]، حتى يقوم بواجبه فيبرّ بأيمانه. وهذا «الحرم» او «الاحرام» كان من شأنه ان يفصل «المحروم» عن الجماعة، عن القبيلة وعن الاسرة، فيسمه بسمة الضحية البشرية المعدّة لتنفيذ واجب ديني سام؛ حتى ان «الاحرام» و«الثأر» اصبحا كلمتين متوافقتين في طرق التعبير القديمة لا تُذكر الواحدة منها الا اردفت بها الثانية. اما مدلول الاحرام او ما يشمله من «التحريمات» فكان بان يمتنع وليّ الثأر عن الكحل، والدهن، والطيب، واللحم، والخمر، وألفة النساء، والاجتماع الى افراد أسرته. هذا في اول الامر، ولنا عليه الامثلة العديدة. الا ان العادة خفّفت شيئاً فشيئاً من هذه التحريمات، فرفعت منها هجر النساء والاسرة. ومن اوضح الحوادث دلالة على شريعة الاحرام هذه، وعلى ان العرب كانوا يلجأون اليها تقيّداً لانفسهم، وتكفيراً عن اهمالهم القيام بهذا الواجب الصعب ودفعاً لهم في طلب الثأر؛ وعلى ما كان يقوم به النساء من التحريض كذلك، ما ذكره صاحب الاغاني عن ريحانة بنت معديكرب من انها «قالت لدريد بن الصمة بعد حول من مقتل اخيه: «يا بني، ان كنت عجزت عن طلب الثأر باخيك، فاستعن بخالك وعشيرته من زبيد.» فأنف من ذلك، وحلف لا يكتحل ولا يدّهن ولا يمسّ طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره. فغزا هذه الغزاة، وجاءها بذؤاب بن اسماء فقتله بفنائها. وقال: «هل بلغتِ ما في نفسك؟» قالت: «نعم، متّ بك.»[2]

وقد كان البدويّ ينظر الى هذه التحريمات نظره الى اسمى مظاهر الزهد، وهو لا يعرف غيره من التضحيات التي ترفعه الى العالم السامي، الى «التألّه»، كما كان يُقال.

وعلى مطالع اليوم، كي يفهم شمول هذا الاحرام، ان يلقي نظرة على ما

١) راجع Delporte, *L'anathème de Jalvé : recherches sur le herem prexilien.* [*Rech. de Sc. religieuse*, V, p. 321, 331]

٢) الاغاني ٩: ٧

كانت تمثله في حياة البدوي تلك المواد التي يحرّمها الولي على نفسه :

كانت الخمرة شراب السراة تدلّ على يسر شاربها ورخاء حياته ، وتشير الى انه « سيّد » ، وكل بدوي كان يرمي الى السيادة . ثم ان قلة الماء كانت تحرم العرب من متابعة الاغتسال والنظافة . ولولا حليب النوق لهلك نصف البدو عطشاً . ولنقس على ما تقدّم باقي المحرّمات ، فنفهم ما كان يشعر به العربي ، المفطور على اللذة والانانية ، عندما كان يحرّم على نفسه كل ما تقدّم ذكره من اللذائذ الرفيعة في نظره ، فيرتقي الى اعلى درجات « التأله » ، كما اشرنا اليه ، ويرى نفسه انه قام بما يفرضه عليه « دين العرب » . ويدلّ هذا « الاحرام » ، فوق ذلك ، على قيمة الحياة البشرية في نظر البدوي ، وعلى احترامه تلك الاواصر التي تربط اعضاء الاسرة العربية حتى ما وراء القبر .

ثم ان البدوي يعتبر الوفاء بالذمم من صفات السادة الكرام ، بل هي فضيلة لا يضطلع بها الا السراة الاغنياء في القبائل الكبيرة . وهو يفتخر اذا ما حفظ العهد ووفى بالذمّة ، بينما غيره من الاقوام يخونون ويغفرون ، فيردّد الشعراء افتخاره . فهو السموأل يقول :

اذا ما خان اقوامٌ وفيتُ

وهو حاتم الطائي يفتخر :

لعمرك ، ما اضاع بنو زيادٍ ذمارَ ايهم فيمن يضيعُ (١

وهم الشعراء يمدحون الاوفياء :

فهيك ابن متبع لم تنلك اماتةٌ ؛ وما المرء الا عنده ومواثقه ! (٢

...

انت الوفيّ اذا تُذمّ ، وسطهم يوفي بذمته عُقاب تَلاع (٣

...

غدرتَ بأمرٍ انت كنت احتذيتنا عليه ، وشرّ الشيمة الغدر بالعهد (٤

ويؤيّد البدوي عهده بالأيمان المحرّجة التي يحتفل بحلفها ، حتى اذا ضعفت

١) ديوان حاتم الطائي ١ : ١
٢) الاغاني ١٩ : ١٢٨
٣) المفضليات ١٢ : ٢٤
٤) الاغاني ١٩ : ١٢٨ -

فيه عاطفة الشرف ، وهي لا تقوى احياناً على مجابهة اتانية البدو وشراستهم ، دفعته الأعيان الى القيام بالعهد والاخذ بالثأر . ولهذا فاننا نرى القيام بالثأر يتصل دائماً بحلف اليمين . وان هذه اليمين لترفع البدوي ، الى حين ، فوق انانيته بل فوق فطرته النازعة الى الكسل والراحة والتلذذ ، فتجعله « قاضي نذور » يشعر بمسؤوليته وباهمية الواجب المقدس الملقى على عاتقه ، «والنذور لها وفاء» ، وتدفعه الى القيام بتلك الأعمال العظيمة النادرة المحفوفة بالجلبة والضجيج افتخاراً واعلاناً . فيمدحها الشعراء المعاصرون ، ويأتي ، بعد ذلك ، ارباب البحث من المستشرقين فيمتدحونها ، ويشاركون شعراء الجاهلية في تضليلنا اذا ما اردنا الحكم ، حكماً صائباً ، على القيمة الاخلاقية في ذاك الكيان المحفوف بالاسرار والالغاز ، الا وهو البدوي من اي عصر كان !

اما اذا قام الولي بنذره ، اذا وفى عهده واخذ بثأره ، فانه يعود الى الحياة العادية فخوراً بعمله محللاً لنفسه كل ما كان قد حرّمه ، ولاسيما الخمر ، منصرفاً اليه بكل ما اوتيه من اندفاع في اللذة وسير وراء الشهوة ، لا يخشى اثماً ولا يخاف عاقبة ؛ فيقول كما قال امرؤ القيس ، بعد ادراك ثأره :

حلّت لي الخمر ، وكنت امرءاً عن شربها في شغلٍ شاغل
فاليوم أسقى ، غيرَ مستحقبٍ إثماً ، من الله ، ولا واغل (١)

او كما قال المتلمّس بن عمرو الكندي ، مشبّهاً واجب الثأر بالهم الثقيل كالجبل :

اني ابى الله ان اسوت ، وفي صدري همٌّ كأنه جبلُ
يمنع مني طعم الشراب ، وان كان رحيقاً مزاجه عسلُ ،
حتى تفثتُ الوتر الطيم ، ودا ثبتُ يوتاً وبينها خللُ (٢)

وهذا قول خالد بن عمرو بن مُرّة الشيباني :

اليوم حلَّ لي الشراب ، وما كان الشراب يحلّ لي قبلُ !
وجزيتُ سعدًا بالذي فعلوا ، وأُحِلَّ لي ، ماويّة ، القتلُ

١) حماسة البحتري (طبعة شيخو) الرقم ١٥٢
٢) حماسة البحتري (طبعة شيخو) الرقم ١٥٣

ولقد أبأتُ باخوتي مائةً منهم ، فلا لومٌ ولا عذلُ ! ١

ومثله قول وبيعة بن ابي عمرو القيني :

حلّت بي الحسر ، اذ غادرت سيّدهم في جيب سربالهِ من نفسه دُفَعُ
ما زلت أبني ابا ليلى واندبه في الحيّ ، طفلًا الى ان نالني الصلعُ ٢

وهذا يدلنا ايضاً على التطويل في الاخذ بالثأر مما يؤيد قولنا في ان البدوي كان يتحيّن الفرص الموافقة للقيام بذاك الواجب الديني ، وقد يماطل في تأدية ما عليه ، مقاوماً كسله الفطري ، ونفوره من القتل بتلك التحريجات والنذور والايمان التي ذكرناها . وقد يستعين ، في ثأره ، بنيره من ذوي البأس والجاه كما جرى لقيس بن الخطيم في حادثة قد تكون افضل شاهد على تلك المؤسسة الدينية الاجتماعية ، وما تفرضه على الوليّ من فروض ، وما يلجأ اليه من حيَل في القيام بها .

ولا بأس في ان نروي الحادثة ، كاملةً على طولها ، وهي فوق ما فيها من الفوائد التاريخية ، اثر ادبي قصصي لا بأس به . وهذه هي ، كما ذكرها صاحب الاغاني عن ابن الكلبي ... عن محمد بن عمّار بن ياسر ، وكان عالماً بحديث الانصار ، قال :

« كان من حديث قيس بن الخطيم ان جدّه عديّ بن عمرو قتله رجلٌ من بني عمرو بن عامر بن وبيعة بن عامر بن صعصعة يُقال له مالك . وقتل اباه الخطيمَ ابنُ عديّ رجلٌ من عبد القيس ممن يسكن هجر . وكان قيس يوم قُتل ابوه صبيًّا صغيرًا . وقُتل الخطيم قبل ان يثأر بابيه عديّ . فخشيت أم قيس على ابنها ان يخرج فيطلب بثأر ابيه وجدّه ، فيهلك . فعمدت الى كومة من تراب عند باب دارهم ، فوضعت عليها احجارًا وجعلت تقول لقيس : « هذا قبر ابيك وجدك » . فكان قيس لا يشكّ ان ذلك على ذلك . ونشأ أيّدًا شديدَ الساعدين ، فنازع يومًا فتًى من فتيان بني ظَفَر ، فقال له ذلك الفتى : « والله ، لو جعلتَ شدّة ساعديك على قاتل ابيك وجدّك لكان خيرًا لك من

١) حماسة البحتري (طبعة شيخو) الرقم ١٥٤
٢) حماسة البحتري (طبعة شيخو) الرقم ١٥٦

ان تخرجها عليّ ! » فقال : « ومَن قاتل ابي وجدّي ؟ » قال : « سل أمّك تخبرك . » فاخذ السيف ووضع قائمه على الارض وذبابَه بين ثدييه وقال لامه : « أخبريني من قتل ابي وجدّي . » قالت : « ماتا كما يموت الناس ، وهذان قبراهما بالفناء . » فقال : « والله لتُخبرينني مَن قتلهما او لأتحاملنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . » فقالت : « اما جدّك فقتله رجل من بني عمرو بن عامر بن ربيعة يقال له مالك ؛ واما ابوك فقتله رجل من عبد القيس ممن يسكن هجر . » فقال : « والله لا انتهي حتى اقتل قاتل ابي وجدّي . » فقالت : « يا بنيّ ، ان مالكاً قاتل جدّك من قوم يخداش بن زهير ، ولابيك عند خداش ذمةٌ هو لها شاكر ، فأته فاستشرهُ في امرك ، واستعنهُ يُعنك . » فخرج قيس من ساعته حتى اتى ناضحه[1] ، وهي يسقي نخله ، فضرب الجَرير[2] بالسيف فقطعه ؛ فسقطت الدلو في البئر ، واخذ برأس الحبل فحمل عليه غرارتين من تمر ، وقال : « مَن يكفيني امرَ هذه العجوز ؟ (يعني أمّه) فان متّ انفق عليها من هذا الحائط[3] حتى تموت ثم هو له ؛ وان عشت فمالي عائد اليّ ، وله منه ما شاء ان يأكل من ثمره . » فقال رجل من قومه : « انا له » . فاعطاه الحائط .

ثم خرج يسأل عن خداش بن زهير حتى دُلّ عليه بمرّ الظهران . فصار الى خبائه فلم يجده . فنزل تحت شجرة يكون تحتها اضيافه . ثم نادى امرأة يخداش : « هل من طعام ؟ » فاطلعت اليه فاعجبها جماله ، وكان من احسن الناس وجهاً ؛ فقالت : « والله ، ما عندنا من نُزُل نرضاه لك إلا تمراً . » فقال : « لا أبالي ، فأخرجي ما كان عندك . » فأرسلت اليه بِتُباع فيه تمر . فأخذ منه تمرة ، فأكل شقّها وردّ شقّها الباقي في التُباع . ثم أمر بالتُباع فأُدخل على امرأة يخداش بن زهير . ثم ذهب لبعض حاجاته . ورجع خداش فاخبرته امرأته خبر قيس ، فقال : « هذا رجل متحرّم » . واقبل قيس راجلاً ، وهو مع امرأته يأكل رُطباً . فلما رأى يخداش رجله ، وهو على بعيره ، قال لامرأته : « هذا ضيفك ؟ » قالت : « نعم » قال : « كأنّ قدَمه قدم الخطيم صديقي اليثربي . » فلما دنا منه

---

١) ناضحه : اي بعيره الذي يستقي عليه الماء .

٢) الجرير : الحبل ٣) الحائط : البستان

قرع طُنب البيت بسنان رمحه واستأذن . فاذن له خداش . فدخل اليه . فنبّهه فانتسب واخبره بالذي جاء له ، وسأله ان يعينه وان يشير عليه في امره . فرحّب به خداش وذكر نعمة ابيه عنده ، وقال : « ان هذا الامر ما زلت اتوقعه منك منذ حين . فامّا قاتل جدّك فهو ابن عمّ لي ، وانا اعينك عليه ؛ فاذا اجتمعنا في نادينا جلستُ الى جنبه وتحدّثت معه ، فاذا ضربتُ فخذه ، فثب اليه فاقتله . » فقال قيس : فاقبلت معه نحوه حتى قمت على رأسه لما جالسه خداش ؛ فحين ضرب فخذه ضربت رأسه بسيف يقال له ذو الخُرصين . فثار اليّ القوم ليقتلوني . فحال خداش بينهم وبيني ، وقال : « دعوه ؛ فانه ، والله ، ما قتل الا قاتل جدّه . »

ثم دعا خداش بجمل من ابله فركبه ، وانطلق مع قيس الى العبدي الذي قتل اباه ، حتى اذا كانا قريباً من هجر اشار عليه خداش ان ينطلق حتى يسأل عن قاتل ابيه ، فاذا دُلّ عليه قال له : ان لصّاً من لصوص قومك عارضني فاخذ متاعاً لي ، فسألتُ من سيدُ قومه ، فدُللتُ عليك ، فانطلق معي حتى تأخذ متاعي منه . فان اتبعك وحده فستنال ما تريد منه . وان اخرج معه غيره فاضحك ، فان سألك عمّ ضحكت ، فقل : ان الشريف عندنا لا يصنع كما صنعت اذا دُعي الى اللصّ من قومه ؛ انما يخرج وحده بسوطه دون سيفه ، فاذا رآه اللص اعطى كل شيء اخذه هيبةً له ؛ فان امر اصحابه فسبيل ذلك ، وان ابى الا ان يمضوا معه فأتني به ، فاني ارجو ان تقتله وتقتل اصحابه . » ونزل خداش تحت ظلّ شجرة . وخرج قيس حتى اتى العبديّ فقال له ما امره خداش ، فاحفظه ، فامر اصحابه فرجعوا مع قيس . فلما طلع على خداش قال له : « اختر ، يا قيس ، إمّا ان أعينك وإمّا ان أكفيك . » قال : « لا اريد واحدة منها ، ولكن ان قتلني فلا يُفلتنّك . » ثم ثار اليه ، فطعنه قيس بالحربة في خاصرته فانفذها من الجانب الآخر ، فمات مكانه . فلما فرغ منه قال له خداش : « إنّا ، ان فررنا الآن طلبنا قومه . ولكن ادخل بنا مكاناً قريباً من مقتله . فان قومه لا يظنون انك قتلته واقت قريباً منهم . ولكنهم اذا افتقدوه اقتفوا اثره ، فاذا وجدوه قتيلاً خرجوا في طلبنا في كلّ وجه ، فاذا

ينسوا رجموا.» (قال) فدخلا في دارات من رمالٍ هناك. وفقد العبديّ قرمه، فاقتفوا اثره فوجدوه قتيلًا. فخرجوا يطلبونها في كل وجه، ثم رجعوا؛ فكان من امرهم ما قال خداش. واقاما مكانهما اياماً ثم خرجا. فلم يتكلما حتى أتيا منزل خداش. ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع إلى اهله. ففي ذلك يقول قيس من قصيدة طويلة:

نأرت عدياً والمثلمَ، فلم أضع وصيّة اشياخٍ جُبلت إزاءها (١

وليس ابلغ من هذه الحادثة في البرهان عمّا قدّمناه من صفات «الثأر» عند العرب، وممّا توليه شريعة التحرّم من واجبات يتحتل المضيف كلّ نتائجها، مهما كان فيها من مصاعب او من فروض قد ينفر من القيام بها. لنسلم بان الراوي قد بالغ في سرد الحادثة وقد جنح فيها وبدّل ما شاء؛ انما هناك امر لا سبيل الى انكاره هو تلك المؤسسة، بل تلك العقيدة، التي تمثلها الحادثة.

وهناك حادثة اخرى عن بدويّ اسمه عُمير بن سلمى يثأر لجاره من اخيه، فيستحقّ لقب «اوفى العرب» (٢

وفي حماسة البحتري حادثة من هذا النوع اختار فيها الراوي اسماً لائقاً ببطله فدعاه «وفاء»، قال:

«حجّ وفاء بن زهير المازني في الجاهلية ... وقدم على اهله، فوجد اخاه وقد غدر بجارٍ له فقتله. فانتضى سيفه. فناشده الله والرحم. وخرجت امه كاشفة شعرها، وقد اظهرت ثديَيها تناشده الله في قتل اخيه. فقال لها: علامَ ستيتني وفاء اذا كنت اريد ان اغدر. ثم ضرب اخاه بسيفه حتى قتله، وقال:

يناشدني قيس قرابة بيننا وسيفي بكفي، وهو منجردٌ يسي
غدرتَ، فما بيني وبينك ذمّة تجيرك من سيفي، ولا رحم تُرعى
سأرمض عني ما فعلتَ بضربةٍ عقيم البديّ لا تكرُّ ولا تُثنى.» (٣

قد يتسرّع مطالع هذه الحوادث، فينسب البدو الى الاخلاق المعيبة

---

١) الاغاني ٢: ١٦٠-١٦٣

٢) ابن دريد: كتاب الاشتقاق (طبعة Wüstenfeld) ص ٢٠٦

٣) حماسة البحتري (طبعة شيخو) الرقم ٢٢٨

ويحكم عليهم بالانطباع على اهراق الدماء . فيخطئ الخطأ العظيم . ولا تظهر الحقيقة الا اذا تابعنا التدقيق في ماهية «الثار» العربي، فنشعر بانه افضل المؤسسات البدوية عائدةً علينا في درسنا العقلية الدينية في بلاد العرب قبل الاسلام.

***

لا يؤخذنّ الدارس بذاك المظهر الجافي الذي يخفي خلق البدوي ؛ فيحول بينه وبين فهم حقيقته ، ويضلّ في احكامه سواء السبيل. فالبدوي ليس شرساً من فطرته ، ولا ميّالاً الى سفك الدماء ، على رغم ما ينسب اليه الحضريّون من اعمال القسوة والهمجيّة .

وُلد البدوي في بيئة قاسية ، محرومة ، فنشأ فردياً اتانياً لا يتكل الا على نفسه . فكان انه قدر كافضل ما يكون قيمة الحياة البشرية ، وتنفر ، على توتّر اعصابه وسرعة تأثرة ، من التسرّع في اهراق الدم . هو يكره القتل ، ولا يلجأ اليه ، الا في ما ندر ، وفي حالة الدفاع عن النفس وحدها . وما كان الثأر الا من هذه الحالات تصبغه العادة بالصبغة الدينية ، فترتفع به الى مرتبة المؤسسات والعقائد . وليس نفوره من اهراق الدم نتيجة التأثم ، او الندم ، او التوبة - لا فان البدوي ، اذا ما دُفع الى قتل مثيله ، لا يشعر بانه ارتكب عملاً شائناً من تلك الاعمال التي يسميها « الفواحش » او « المخزيات » . وهذه اشدّ ما في قاموسه الاخلاقي من مفردات يسم بها الشعراء اعظم المجرمين في نظرهم. وهؤلاء هم الذين يسيئون ، لا الى الفرد ، بل الى القبيلة باعتدائهم اماً على افرادها واما على النازلين عليها او جيرانها . اما التريب عن القبيلة فلا حقوق له معروفة ، ولا ضمانة قضائية تضمن حياته او امواله . بل ان لكل انسان ، اذا كان قادراً ، ان يستبيح حماه كما قال اوس بن حجر :

نُبيح حمى ذي العزّ ، حين نريده ، ونحمي حمانا بالوشيج المقوّم (١

او ان يقتله ، على غير جرم ، دون ان يشعر باثم . وهذا قول عامر بن الطفيل من فرسان الجاهلية المشهورين :

---

١) ديوان اوس بن حجر ٣٥:١٢

قتلنا يزيد بن عبد المدان على غير جرم، ولم نظلم.[١]

ومما يظهر هذا الشعور بالبراءة ويدلّ على عدم تحرّج البدوي، حالتُه اذا ما دُفع الى قتل رجل، فاصبح «حامل دم». اننا نراه مرتفع الرأس، يجول بين الاحياء من مضرب الى مضرب، ومن جوار سيّد الى جوار آخر، بل يتجاوز مضارب قبيلته الى منازل الحلفاء، يمدّ يده مستعطياً كي تكتمل له قيمة الدية فيجمع عدداً من الابل كافياً لدفع ثمن الدم. يمدّ يده دون خجل ولا حيرة، فيستقبله قومه وحلفاء قومه بارتياح ان لم نقل بترحاب. ولا يرى احد منهم لنفسه الحقّ بلومه او باستيضاحه اسباب عمله. ذلك ان القتل حادث نادر في تلك الحياة المضطربة في الفقر. والجميع يرون في القاتل، لا مذنباً، بل شقيّاً مسكيناً تهوّر في اندفاعه ولم يتمالك اعصابه، او خانته الاحوال، فدُفع الى القتل. فيجتهدون، كلّ على قدر استطاعته، في تخليص ذاك المسكين من مأزقه وفي معاونته على تأليف الدية، كما يجتهد الناس في انقاذ اسير او اعانة فقير، وهم معتقدون ان كلًّا منهم قد يصيبه يوماً ما اصاب هذا المسكين فيصبح بحاجة الى معاونة افراد القبيلة وحلفائها في جمع نياق الدية[٢]. ولا يخفى ان سادة القبيلة ورؤساء أسرها يكونون اول من يتسابقون في اعانة القاتل، فهم «يحملون الدم» عنه. فيندفع الشعراء الى ذمّ السيّد منهم، في جملة ما يعترونه به، بانه «حمّال»، و«حامل ديات» و«حامل دماء» و«حامل اثقال»، واذا بلغ الذروة العليا في هذا الحمل غدا «حامل مئين»[٣] اي انه يعطي مئات الابل في سبيل دفع الديات. هذه شريعة الفقر، تلك الشريعة التي يذكرها الشاعر زهير بن ابي سُلمى الناطق بلسان الحق العربي القديم:

تُمنّى الكلوم بالمئين، فاصبحت يُنجّمها من ليس فيها بمُجرم.[٤]

هذا النفور من اهراق الدم ينتج عند العرب من شريعة الثأر، تلك الشريعة

---

١) ديوان عامر بن الطفيل ٢٠ : ١

٢) راجع كتابنا *Le Berceau de l'Islam* I, 247

٣) الطلب المصادر في *Le Berceau de l'Islam*, I, 249-250

٤) شعراء النصرانية (طبعة شيخو) ص ٥١٧

القاسية التي افهمت البدوي ان كل قاتل يُقتل . فشعر ، بغريزته وعقله ، بمنفعتها الجمة ، وفهم انه لولاها لكانت معيشته عرضة للاخطار الدائمة في ذاك القفر ، بل لكانت حياته مستحيلة . وهو ما اقرّه القرآن بقوله : « ولكم في القصاص حياة ! »[1]

في القصاص حياة ، وفي الثأر حقن الدماء ؛ ولاسيما ابان الغزوات المستديمة في الجزيرة . ولا يخفى ما يحفها من مخاطر ومهالك يزيد هولها ان هذه الغزوات اصبحت ، على قدم عهدها ، من العادات المألوفة في كسب المعاش عند العرب . على ان حياة البدوي تضمنها شريعة الثأر ، حتى في تلك الغزوات . والعرب اذا تكلموا عنها قلّما يذكرون القتل . انما يلجأون اليها طريقةً للكسب ، ويتخذونها وسيلةً لليسر مخطرةً ، دون شك ، ولكن قلّما يصل خطرها الى الموت . وهذا حاتم الطائي ، اذا ما وجد نفسه عاجزًا عن اداء حقوق ضيوفه ، صرفهم معتذرًا طالباً منهم ان يعردوا اليه « بعد الغارة » . وقد يتكارم على الطالب من امرالي يكون قد تهبها من قبيلته ، كما يرى له مع ابي جبيل ، وكان هذا من « حاملي الدماء » ، على ما جاء في ديوان حاتم ، قال الشارح :

« كان ابو جبيل وهو عبد قيس بن خُفاف البرجمي اتى حاتمًا في دماء حملها عن قومه اسلموه فيها ، وعجز عن ادائها فقال : « والله لآتينّ من يحملها عني » . وكان شاعرًا شريفاً . فاتى حاتمًا فقال : « انه قد كان بين قومي دماء فتراكلوها ؛ واني حملتها في مالي وابلي ؛ فقدّمت مالي ، وكنتَ أملي . فان تحملها فربّ حرّ قد تضيّقه وهمٌ قد كنيته ؛ وان حال دون ذلك حائل لم اذمم يرمك ، ولم أيئس من غدك . ثم انشأ يقول :

حملت دماء للبراجم جمّة ، فجئتك لما اسلتني البراجمُ
وقالوا سفاهاً : لم حملت دماءنا ؟ فقلت لهم : يكفي المالة حاتمُ »

فقال له حاتم : « ان كنت لأحبّ ان يأتيني مثلك من قومك . هذا سرباعي من الغارة على بني تميم (ولا يخفى ان البراجم من تميم) فان وفت الحالة ،

١) القرآن ٢ [سورة البقرة] ١٧٥

والا كلتها لك . وهي مائتا بعير سوى نيبها وفصالها . مع اني لأحبُّ ان لا تويس قومك باموالهم . » (قال) فضحك ابو جبيل ثم قال : « لكم ما اخذتم منا ، ولنا ما اخذنا منكم ، واما بعير دفعته اليَّ ليس له ذنب في يد صاحبه فانت منه بري . . » فأخذها منه وزاده مائة . »[1] .

هذا الكرم الحاتمي لم يسغه بيرون ، فقال : « انها لطريقة غريبة في فهم الكرم والاحسان . »[2] . . . على ان بيرون نفسه يتابع شارحاً نشأة الغارة في بلاد العرب فيقول : « ان الغارة لازمة في القفر وما تجرّه من تلك الهجمات الدالة على الفروسية . هذه هي الحياة المنظّمة . اذ لولاها ، ما عسى ان يفعل الانسان في تلك النزلة الصامتة ؟ » ولا يخفى ان الشرح اقرب الى الدعابة والعبث . على ان تلك الغزوات كانت ابعد الاشياء عن البسالة التي يتصوّرها بيرون ، اذا ما سُفكت الدماء .

ولينتبه الدارس ، اذا ما فكّر بالثأر ، الى ما يبذله اولئك المتعاركون من جهود في اجتناب الضربات القاتلة . هم لا يقصدون ، في غاراتهم ، الا اموال الثار عليهم . اما حياتهم فليس من يرغب في الاعتداء عليها . ولا ينبغي للهاجمين ولا للمدافعين ان يصلوا الى اهراق الدم . هو عراك على المواشي يقومون به بغاية ما يمكنهم من رباطة الجأش . ولنا من الامثلة المتعدّدة ما يؤيد هذا القول ؛ فان حوادث الجرح والقتل قليلة جدًّا في الغزوات حتى في ايامنا هذه ، بعد ان اخذ البدو يستعملون البنادق الحديثة . فهناك كثير من دخان البارود ودويّ الرصاص ؛ وقليل من الجرحى والقتلى . اما اذا ادّتهم الحوادث الى سفك الدم ، فيكون الحظ قد خانهم ، فيفقدوا السكينة اللازمة في هذه المعارك ، واندفعوا باندفاع اعصابهم الثائرة ، فنسوا صفتهم الاصلية وتحوّلوا الى مقاتلين[3] . على ان العادة الجارية حينذاك تفرض على الضارب الا يجهز على الجريح ، والا يسلب القتيل[4] .

---

١) ديوان حاتم ، ص ٤٠ — ٤١

٢) Perron, *Femmes arabes*, p. 114

٣) اطلب *Le Berceau de l'Islam* I, 240

٤) اطلب حادثة صخر ، اخي الخنساء ، في الاغاني ١٣ : ١٤٥ . . .

اما في ما خصّ الثار ، فان البدوي يطيع العادة الجارية التي اصبحت من مظاهر « دين العرب » كما يفهمه الجاهليون . ومن ثمّ فان هذه العاطفة وحدها تسيطر على « وليّ الثأر » او « الموتور » وهو صاحب الحقّ الشرعي بالاقتصاص من القاتل . وتكون الغاية المثلى ان يتمكن الوليّ من القيام بواجبه بسرعة ، فيقول مع عبد الله بن سلمة الغامدي :

نفست الوترَ منه ، فلم أنَم ، اذا أُبحت بغَيْظَةٍ جنوب (١)

على ان هذه السرعة في الانتقام لم تكن في البالب الا وهمية . فقد يمرّ على الموتور الاشهر بل السنون ، بل قد « يناله الصلع » ، كما في قول ربيعة بن ابي عمرو التيمي(٢) ، قبل ان يدرك ثأره . فهو خالٍ من الحماسة في القيام بهذا الواجب ، لانه يرى ما سيعترضه من مخاطر يعدّدها سرّاً(٣) فينفر من مجابهتها . الا انه يشعر بضرورة القيام بواجبه ، فيحتال في ذلك ، لاجئاً الى الدوافع الخارجية من تحريضات وتفنيد وايمان وما اليها من قيود فصلناها في ما تقدم . ولا يسهو باله عن ان يضيف اليها الرجاء بان لا يميته الله قبل ان يدرك ثأره . فهو اذاً يوسّع على نفسه في البرّ بهذه اليمين ؛ بينما يصرخ وينادي بان همّه في ادراك الثأر ثقيل كالجبل يمنعه لذّة العيش والشراب خاصة .

واذاً فان الموتور لا يُسرع متحمّساً الى قتل واتره و« شفاء غليله » ، كما قد تصوّره بعض الحكايات الشعبية المتأخرة عن العصر الجاهلي . بل اننا نراه يتمرمر من حمل هذا الواجب ، واذا قبله فلأنّ لا مناص له منه ، ولان العادة والرأي العام وارادة القتيل نفسه تفرض عليه ذلك ، فهو يقبله كاثقل الواجبات الدينية ، ويهتف مستقلاً مع امرئ القيس عندما أخبر بقتل ابيه : « حسّلني دمه ! » هو حمل باهظ يحول بين الموتور وملذّات الحياة العادية ، يحول بين امرئ القيس والخمر ، لا بسبب ما يوليه اياه من الحزن والاسى وحرمان العطف

---

١) المفضليات (طبعة Lyall) ص ١٨٥ البيت ٩

٢) راجع الصفحة ٨ من هذا البحث

٣) ابن هشام : سيرة الرسول ، ص ١٢٢ ، ٤

الابوي — ولا عطف في حالة امرئ القيس ، وقد طرده ابوه وخلعه — بل لما يفرضه عليه هذا القتل من ضرورة التقيد بالحرمانات التي من شانها ان تدفع الموتور الى القيام بطلب ثاره . فتحوّل ذاك الاتاني الفردي الى كائن اجتماعي يُدفع ، على الرغم منه ، الى التضحية بشهواته وبراحته في سبيل الاسرة والجماعة . والا فانه يتعرض لغضب الالهة النازل بكل حانث بالايمان المغلظة وهي التي لا تحتمل الكفارة ، ولا تحلّ صاحبها الا اذا قام بما يفرضه عليه « الوتر العظيم » ، فيعود حين ذاك الى حياته السابقة فيستبيح ، دون اثم ولا حرج ، كل ما كان قد حرّمه على نفسه ، ويكتسب ، فوق ذلك ، « شرف الدهر . »[1]

اما اذا تهامل في القيام بهذا الفرض ، او خالف مادةً من موادّ هذه الشريعة ، او لم يبرّ بهذه الايمان ، فانه يقترف « إثماً من الله » ، كما يقول . ولنا ان نعجب اذ نسمع من فم البدوي ما يدلّ على شعوره بالمسؤولية الادبية ، بل بالخطيئة اللاهوتية . ذاك انه يتقيد بعادة الثأر ، ويفهم ضرورة هذا الواجب في سبيل التكفير عن اثم لحق اثره المجتمع العائلي بكامله . في الثأر شفاء نفسه المقروحة ، وبرء دائه الدخيل ، على نحو ما قال العبسي :

دعوت الله اذ قدنا اليهم ، لثلثي منقرًا ، او عبدَ عمرو
وكانت حلفة حُلفت لوتر ، فشاء الله ان ادرك وتري
واني قد سلمت ، فكان برئي بقرواش بن حوشة بن بدر

وقد عاتب الجاحظ على هذه الابيات بقوله : « والاعراب تعدّ القتل سقماً وداء ، ولا يبرئه الّا اخذ ثاره دون اخ او ابن عم . فذلك الثأر المنيم . »[2]

ولهذا نراه يشجع نفسه ويحثها بكل ما لديه من وسائل شعورية ، وبكل ما في منطقه من حكم قصيرة سائرة . فيقول لها تارةً قول عمرو بن الاطنابة :

واقدامي على المكروه سعي ، وضربي هامة البطل المشيح
وقولي ، كلما جشأت وجاشت : مكانك ، تُحمدي او تستريحي ! [3]

وطوراً يعزّيها بقول ابي النيران :

---

١) الاغاني ٨ : ٦٧
٢) الجاحظ : الحيوان ٦ : ١٤٣
٣) الجاحظ : الحيوان ٦ : ١٤٤

ان السُراة قصيرة الاعمار ! (١

ودائماً يردّد عليها بلسان الشعراء كافةً ان ادراك الثأر افضل دلائل الشجاعة والوفاء ، بل هو افضل الوسائل لبناء المجد الخالد ، ونيل شرف الدهر .

فلا عجب ، والحالة هذه ، ان نرى البدوي الموتور لا يسمع لهو الحديث ، ولا يأوي مطمئناً الى فراشه :

لا اسمع اللهو في الحديث ، ولا ينفني في الفراش مضطجعُ (٢ .

واذا عرض له الابتسام فذلك على الرغم من نفسه الحزينة :

اعاتب نفسي ، ان تبسمتُ ، خالياً ؛ وقد يضحك الموتور ، وهو حزين (٣

فلا يكاد يعرف الراحة والهجوع ، انما يقضي الليل مضطرباً يرقب النجوم في سيرها البطيء(٤ ، ولا همّ لـه الا العمل على ادراك ثاره . فهو يجتنب ، في ذلك ، قول الشعر نفسه حتى الهجائي منه(٥ ، لان ما بينه وبين الواتر « اجلّ من القذع » على قول صخر اخي الخنساء(٦ . ولا نكاد نخطئ اذا قلنا انه يخشى ان يفرّج الهجاء كربته ، فيضعف ارادته ، ويرهن من عزيمته في ادراك الثأر فتبقى نفسه في سقامها ، وهي لا يشفيها الا الدم ، كما قدّمنا . وقد يبلغ من قوّة هذه الرغبة في « شفاء الغليل » ان الموتور قد يُنكر على الله حقّه في الحؤول بينه وبين ثأره(٧ . على انه يرى الحقّ لاعدائه في ادراك ثأرهم ايضاً . وقد نرى بعض السادة من ذوي الاخلاق العالية ، اذا لم يعرف الموتور واتره ، اقرّوا باشتراكهم في القتل فميّزوا انفسهم هدفاً لسهامه(٨ . بيدَ ان هذا الاقرار لا يأتي عفواً . انما يرمي اليه الموتور بواسطة « العزيمة » و« المناشدة » ، وهما من نوع

(١) الجاحظ : الحيوان ٦ : ١٤٢

(٢) البيت لمالك بن عمرو العاملي ، في حماسة البحتري ١٦٨

(٣) البيت لخلف بن خليفة ، في حماسة ابي تمام ص ٤٠٤

(٤) هي صورة كثيراً ما ردّدها الشعراء . اطلب مثلاً حماسة البحتري ١٦٩—١٧٠ ؛ الاغاني ١٦ : ٢ ؛ ديوان حاتم الطائي ٢٩ : ٢ ؛ سيرة ابن هشام ص ٧٢٨ ؛ المفضّليات (Thorbecke) ص ٤٦ ؛ ديوان النابغة ٣ : ١ الخ . . .

(٥) على ان النساء قد يدخلن الهجاء في الرثاء احياناً ، راجع ديوان حاتم الطائي ٣٦ : ٤

(٦) الاغاني ١٣ : ١٤٥ (٧) ابن هشام : سيرة الرسول ٨٠٢

(٨) الاغاني ١٣ : ١٤٥

تحليف اليمين التي يُشرك فيها اسم الله ، ولا يجرأ احد من البدو على الكذب فيها .

***

اعتباراً من حلف اليمين ، تُصبح كل الوسائط ، التي يقوم بها البدوي في سبيل غايته ، صالحةً لا اثم فيها ولا حرج ، مهما كانت ومهما اشتملت عليه من غدر وخيانة واحتيال . الغاية تبرّر الواسطة في مادّة الثأر . انها تبرّر لا اعمال وليّ الثار فحسب ، بل اعمال كل من اجاره وعاونه في طلب ثأره ، كما رأينا في حادثة قيس بن الخطيم وغيره . يجول الوليّ بكل طمأنينة ، في احياء العرب ، مفتشاً عن ضحيته ، فيطوف الأسواق والمجتمعات ، ويدخل المضارب ، ويختلط بالناس ، حتى اذا ظفر بواتره ، انقضّ عليه ، على حين غفلة ، فقتله ، وان نائماً ، خلافاً لما كان قد تقرّر في عاداتهم من التأثم من قتل النائم ، وان عدوّاً[1] . ذلك ان شريعة الثأر فوق تلك العادة فهي اجدر الشرائع بالاحترام في دين العرب ، لانها ابعدها عن الانانية والمنفعة الشخصية . وقد عزّز ذلك الشعراء ، وهم حكماء البدو والسنة فقههم ولاهوتهم .

بيد ان ولي الثار قد يتردّد في تنفيذ قصده ، اذا خاف ان يخالف مبدأً دينياً آخر ، كأن يخشى ، اذا ما قام بثأره ، ان يخفر ذمة الجار ، او ينتهك حرمة المعبد ، او الاشهر الحرم ، او حرمة قبر مكرّم جُعل ملجأً وملاذاً . عند ذاك يحصل اشتباك بين مبدأين دينيّين ، فيحار البدوي في ايهما يتبع . وان في الروايات القديمة امثلةً عديدة للحلول المختلفة . منها ما تدلّ على تقدّم الحقّ بالثار ، ومنها ما تفيد التراجع فيه تجاه حرمة الجوار او تلك الحرمات التي ذكرناها . من الاولى ما حصل للحارث بن عُباد ، عندما اتاه واتره بابن اخيه ، وهو لا يعرفه ، فاحتال في الحصول على الجوار ، فنجا من الخطر[2] . ومن الثانية ما نراه من حوادث متعدّدة قتل فيها اولياء الثأر واتريهم في الاسواق التي

١) راجع الاغاني ١٣ : ١٢٠ ؛ ابن هشام : سيرة الرسول ، ص ٢٢٦ ، ثم ص ٦٥٠ .
٢) ابو تمام : الحماسة ، ص ٣٥٤

كانت تُعقد في الاشهر الحرم ، بل في البيت الحرام نفسه[1] . وقد جاء في المفضليات :

قتلنا قتيلاً مهدياً بملبد جهار بن وهب الحجيج المصوّت

وقال الشارح : « اي قتلنا رجلاً محرماً برجل محرم . »[2]

وفي ما عدا هذه الظروف الاستثنائية ، فان العادة تبرّر كل ما يقوم به الموتور في سبيل ثأره من غشّ ، وخداع ، ومداهنة ، ومجاملة للاعداء حتى تمكن الفرصة . وهذا البحتري يفرد في حماسته بابين لهذا الموضوع عنوانهما : « الباب الرابع : فيما قيل في مجاملة الاعداء وترك كشفهم عمّا في قلوبهم » ، و« الباب الخامس : فيما قيل في الاطراق حتى تمكن الفرصة . »

فللبدوي ، والحالة هذه ، ان يظهر الابتسام لخصمه ويجامله ، على امل اغتياله :

اكثر ذا الضغن المبيّن ضغنه ، واضحك حتى يظهر الناب اجمعُ
وادهنه بالنزل دهنًا ؛ ولو رأى سريرة ما أخفي ، لبات يُنزَعُ[3]

ولا اثم عليه اذا اظهر ميله الى القبول بالدية حتى يقترب من واتره فيقتله[4] ، بل قد يقبلها فعلاً ، ويظهر الصفح حتى اذا امكنته فرصة وثب[5] . امّا اذا كان الواتر متيقظاً متحفّظاً حتى لا يمكن قتله ، فلا بأس على الموتور اذا تغلغل خلال الجماعة فيصل اليه على حين غفلة ؛ بل لا بأس عليه ، كما يظهر من عدّة حوادث ، اذا ما التجأ الى الواتر نفسه ، فعاش في جواره الشهور بل السنين طارياً كشحه على المداورة حتى تمكنه الفرصة . يشهد بذلك قول الاخنس بن شهاب التغلبي :

لعمري ، لقد جاورت في حيّ عامر لأدرك ثأري منهم ، حجيجاً خما
ابيت ، اذا نام الخليُّ ، كأنّني سليمُ افاعٍ لا يلاقي لـه أنـا

---

١) مقدّمة ديوان قيس بن الخطيم : ابن هشام : سيرة الرسول ص ٨٦٥-٨٦٦

٢) المفضّليات (Lyall) ٢٠٥ ، البيت ٢٧

٣) البيتان لمعن بن أوس في حماسة البحتري ، الرقم ٦٦ : واطاب كذلك الارقام ٦٧ ، ٦٨ ، ٥٢ ، ٥٣ .

٤) المفضّل : الفاخر (Storey) ص ٢٢٠-٢٢١ .

٥) ابن هشام : سيرة ص ٧٢٨

ولما رأيت الثار قد حيل دونه ، مشيتُ لهم قعلوًا ، وكنت لهم حاسا
ولاحظت ثأري فيهم لاناله ؛ متى ما أنله أشف من عامر نفسا (١

وقد فات بيرون ، دون شكّ ، ان ينتبه لهذه الحادثة ولكثير مثلها . والا لما اقدم على كتابة ما كتب من ان « الفروسية كانت مزدهرة ، في بلاد العرب ، بكل جمالها وكل اخلاصها ، قبل بدء تاريخنا ، بعدة قرون ، وانها اخت الفروسية الغربية الكبرى . . . وان الفروسية في الغرب عارض مقلّد . اما في بلاد العرب فهي مبدأ .»(٢ قلنا : وسواء اكانت الفروسية العربية مبدأ ام لا ، فلا يمنعنا ذلك من التحقق ان الموتور لا يخجل من الالتجاء الى هذه المخاتلة الواضحة الجارّة الى الخيانة والغدر ، واين هذا من مبادئ الفروسية الغربية ؟ بل ان البدوي يفتخر بتلك المخاتلة ، ويوصي بها :

والنّ اخا الضغن بايناله لتدرك الفرصة في أنه
كالليث لا يبدو على قرنه الا على الامكان من فرسه (٣

وقد ظلّت هذه العادة متأصلة في طبيعة البدوي ، على رغم الاسلام ، مدةً طويلة . حتى ان عبد الملك بن مروان ، عندما ظفر بعدوّه عمرو بن سعيد الاشدق ، قتله ، لم يعدُ في شيء طور اولئك الثائرين قبل الاسلام ، فقال :

أدنيته مني لبكن غرّه ، فامول صولة حازم مستكن
غضباً وحمية لديني ، انه ليس المسيء سيئه كالمحسن (٤

هذا ولا يمكن ان يموت الثأر بمرور الزمن . فان هذه القاعدة الشرعية لا يعرفها البدو . انما يعرفون ويردّدون :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى ، وتبقى حزازات النفوس كما هيا

بل انها ـ ـ

كالنار يكمن حيناً ثم ينتشرُ

وتظلّ حقوق الثأر دائمة يرثها الآباء البنين :

فلن تبيدّ وللآباء ابناء (٥

---

١) حماسة البحتري رقم ٥٨ ٢) Perron, Femm s arabes, p. 76
٣) حماسة البحتري : الرقم ٥٥
٤) حماسة البحتري : الرقم ٥٣ ؛ المسعودي : مروج الذهب ٥ : ٢٢٧ ؛ الطبري ٢ : ٦١٥
٥) راجع حماسة البحتري : الباب السادس ، الارقام ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١

وهذه حرب البسوس دامت اربعين سنة في سبيل الاخذ بثأر كليب. ثم ان العقلاء سعوا بالصلح ، فتظاهر ولي الثأر بالاذعان ، ومشى شاكي السلاح حتى اذا صادف واتره جثاساً ، صاح : « لا يترك الرجل قاتل ابيه ، وهو ينظر اليه . » ثم طعنه فقتله ، ولحق بقومه . « فكان آخر قتيل في بكر بن وائل » ، على قول الاغاني[1] ، لان بقتله أدرك الثأر .

ولنا شواهد على هذا الامر في اقوال بعض الوفود التي كانت تفد على محمد . فان منها من كان يؤخر اقراره بالاسلام الى ما بعد الفراغ من حوادث الثأر المعلقة . وكان من رجال الوفود من يُظهر ترك تلك العادة الجاهلية فيسرع بقبول الاسلام ، بل يقبل الدية دالاً بذلك انه عدل عن ثأره ، كما فعل مقيس ، حتى اذا صادف واتره مطمئناً طعنه في ظهره .

ولا غرابة في ذلك فقد قام مقيس بفرائض الدين القديم . وهكذا فعل عبد الملك بن مروان في الحادثة التي قدمنا ذكرها ، بعد خمسين سنة من انتشار الدين الجديد . ولم ينقل مقيس ولا عبد الملك ان يفتخرا بعملهما فيذكراه بالشعر ، وهما لا يتوقعان لوماً ولا استغراباً من الرأي العام . والرأي العام ابعد من ان يلومهما . بل هو ، اذا عرض لهذه المسألة ، يقول ما قالته اخت مقيس في هجو نُميلة ، نسيها الذي شاء ان يعاقب اخاها على فعلته الشنعاء وخيانته المزدوجة فصرخت انه « اخزى قومه ! » . ولماذا ؟ لانه جعل حقوق الفرد ، القتيل ، فوق حقوق القبيلة ، قبيلته وقبيلة مقيس القاتل ، وهو امر لا يعرفه العرب ؛ فالمجرم ، في نظرهم ، ليس مقيس الخائن الغادر ، بل نميلة لانه « اخزى قومه » .

ولم يلبث هذا الفخر بادراك الثأر ، حتى بالغدر والخيانة ، ان حوّر شيئاً فشيئاً نظر العرب الى الدية ، فاصبحوا يعتبرونها حائلة بين يقباها ، ولا يرضون الا الدم بالدم ، ويحتجون جميعاً بلسان ابي أذينة :

أيطلبون دمًا منّا ، وقتلهم ربّنا ؟ لقد شرفونا في الورى رتبا

مفتخرين بلسان عبد العزى بن مالك الطائي :

اذا ما طلبنا نيلنا عند معشر ، أبينا بحلاب الدرّ ، او نشرب الدما

---

(١) الاغاني ٦ : ١٥١

ليلم اقوام مضاضة وترنا ، وتبع ذات اللوم من كان ألوما
وعمدًا قتلنا ، بعد ما عرضوا لنا مقاديهم مُنًّا ، والفًا مزنّما (١

وهكذا اصبح قبول الدية ذليل الضعف واللوم، ومن ثم فهو مادة للهجاء. قال الاخطل :

لا يثأرون بقتلاهم ، اذا قُتلوا ؛ ولا يكرّون يومًا عند اجحار (٢

يريد انهم يرضون بالديات

قبول الدية تعدّ على دين العرب ، ومظهر من مظاهر الجبن ، والانانية ، والمنفعة الخاصة . هو مساومة آثمة على الاواصر التي تربط الاسرة ؛ هو بيع الدم بالثمن ، على قول الحُريث بن زيد الخيل :

قتلنا بقتلانا من القوم عصبةً كرامًا ؛ ولم نأكل بهم حشفَ النَّخْلِ (٣

ولهذا غدا الشعراء من الموتورين ، او الذين يحتسبونهم من رجال ونساء ، يصوّرون القتيل يوصي اولياءه ثأره بالا يقبلوا الابل بدل الدم :

وارسل عبدالله ، اذ حان يومه ، الى قومه : الا يقبلوا لهم دمي
ولا تأخذوا منهم إفالًا وابكرًا ، وانزلَ في بيتٍ بصعدة مُظلم (٤

. . .

الا لا تأخذوا لبنًا ؛ ولكن اذيقوا قومكم حدَّ السلاحِ
فان لم تثأروا عمرًا بزيدٍ ، فلا درّت لبون بني رباحِ (٥

يُقسم المحتضر على شاهدي موته ، بل على انسبائه جميعًا حاضرين كانوا ام غائبين ، بالايمان المغلظة بان يدركوا ثأره باهراق الدم . فيقبلون ذلك ، فيكون نذرًا عليهم (٦ . كما فعل داود الملك ، وقد شعر بالموت ، فدعا ابنه سليمان ، وكان من جملة ما اوصاه به ان يُنزل العقاب بمن فات الموت عقابه من الواترين قال : « . . . ثم انك تعلم ما صنع لي يُوآب بن صَروية ، ما صنع برئيسَي جيوش اسرائيل أبنيرَ بن نير وعماسا بن يأتر حيث قتلهما وسفك دم الحرب في السلم ،

١) حماسة البحتري : رقم ١١٢ ٢) ديوان الاخطل (ما لطافي) ص ٢٢٦
٣) حماسة ابي تمام ، ص ٢٨٦ ، البيت ٢
٤) حماسة البحتري : الرقم ١١٠ ٥) حماسة البحتري : الرقم ١١١
٦) حماسة ابي تمام ص ٤٤١-٤٤٣

وجعل دم الحرب في منطقته التي على حَقويه وفي نعليه اللتين برجليه ؛ فاصنع به بمقتضى حكمتك ، ولا تدع شيبته تنزل الى الجحيم بسلام . . . وعندك شمعي بن جيرا من بني بنيامين من بحوريم ، وهو الذي لعنني لعنةً فظيعةً يوم انطلقت الى محانيم ؛ ثم نزل للقائي عند الاردن ، فحلفت له بالربّ اني لا اقتلك بالسيف . والآن فلا تبرّئه ، فانك رجل حكيم ، فاعلم كيف تصنع به وانزل شيبته بالدم الى الجحيم . »[1]

وكذلك لم يكن البدو ليفهموا معنى لمرور الزمن ، ولا للعفو ؛ بل لم يكونوا ليتصوّروا امكان ذلك ، لفرط ما وقر في نفوسهم من فروض شريعة الثأر الدينية.

لقد اتهم بنو خُزاعة ، قبيل الهجرة ، وهم منافسو القرشيين ، بقتل الوليد سيد بني مخزوم . وكان الوليد قبل ان يفيض بروحه ، قد رفع عنهم تلك التهمة . على انه لم يمنع ابناءه طلب ثأره من خُزاعة. ولماذا ؟ لأنه خشي ، اذا لم يطالبوا بثأره ، « ان يُسبّوا به بعد اليوم »[2].

وان هذا الحادث يدفعنا الى الكلام عن « الوصية » وفيها ما يؤيد نظريتنا في صفة الثأر الدينية . ولنبدأ بان ننفي كل شبه بين هذه « الوصية » الجاهلية و« الوصية » القرآنية المعمولة في الشرع الاسلامي . اما الوصية الجاهلية فقد لاحظ ولهوسن انها « اقرب الى الاوامر والنواهي المطروحة على الورثة منها الى تقسيم الميراث بينهم . »[3] على ان هذه الملاحظة غير كافية . فلنزد عليها ان غاية الوصية المهمة كانت دينية محضة . كانت ترمي الى نقل نظام العبادة ، من الاب الى اولاده ، كما كان معروفاً ومتبعاً في القبيلة ؛ محتويةً على « العهد الروحي » او مجموع العقائد والعبادات يلقيها السلف على خلفائه . وقد كان لكل قبيلة وصيتها الخاصة ، على زعمها ، يحترمها افرادها ويذكرها شعراؤها . على ان ما قام به علماء العصور الاسلامية من اصلاح في الادب الجاهلي القديم ، وما صنعه الرواة

---

١) سفر الملوك الثالث ٢ : ٥ — ١٠ ٢) ابن هشام : السيرة ص ٢٧٣

٣) Wellhausen, *Reste*... p. 191

من الشر المتحول افسد ، لسوء الحظ ، قيمة تلك الوثائق القديمة ؛ ولم يبق منها الا ما استند الى الحكم والتوصيات المبتذلة[١] . هـذا اذا لم يضع الناحلون قطعاً كاملة في سبيل تشويه تلك العصور التي نسبها الاسلام الى « الجهل ». وان يكن النبي يفرض على المسلمين الاهتمام بكتابة « وصيتهم » ، وان يكن يدقق في ذلك حتى يجعلها من فروض الوحي الالهي ، وهو معنى « كُتب عليكم »[٢] ، فذلك دليل على بعد نظر في المشترع الرامي الى تحقيق الامور في مجالها العملي ؛ ولكنه دليل كذلك على اهتمام جدي بمحو ذكرى تلك « الوصية » البدوية الجاهلية وما تجرّه من آثار الشرك القديم .

كان افراد القبيلة يجتمعون حول فراش الشيخ الراحل ، كما كان بنو اسرائيل يجتمعون حول الجدّ المحتضر[٣] ليسمعوا آخر كلماته فيحفظوا «وصيته» ، قاصدين القيام بكل ما فيها . وكان يهمّ الجدّ ، وهو رئيس قومه وكاهنهم ، فضلاً عن تقسيم الميراث ، ان يعمل على متابعة العبادة التقليدية . فكان يعيّن من خلفائه من يعهد اليهم بحفظ « القُبّة » ، وهي المظلة المقدسة ؛ وبسدانة « البيت » ، وهو هيكل القبيلة ؛ وبحراسة الحجر المزلّه[٤] . فيكون هذا الرجل « الوصيّ » اي الوارث الديني . وقد نرى شيئاً من هذا المعنى القديم للوصية ، في معتقد الامـاميين من الشيعـة ، وهم يعتبرون عليّاً « وصيّ » النبي ، لا وارث ثروته وخلافته السياسية فقط ، بل صاحب « وصيته » الدينية ، او خليفته في عقيدته السرّية . اما الائمة الاثنا عشر عندهم فهم اوصيـاء « الوصي » ، وارث علم علي

---

١) راجع البحتاني : كتاب المعمّرين ، ص ١٦ . . . ومقدمة كراتشكوفسكي عليه ، ص ١٩ ايضاً . وقابل بوصية قس بن ساعدة في السيوطي : موضوعات ١ : ٦٦ . ولا يخفى ان اصحاب تلك الوصايا يظهرون ، على الغالب ، من المعمّرين ، وقد يزعم الرواة انهم عاشوا عدة مئات من السنين . ابن دريد الاشتقاق ص ٢٢١ ؛ والمفضليات (Thorbecke) ص ٢٥

٢) القرآن ٢ [البقرة] : ١٧٦ ، وفي لغة القرآن ، كتاب = وحي

٣) راجع سفر التكوين : ٤٨-٤٩ ؛ والمفضليات (Thorbecke) ص ٢٥ ، البيت ٧ . . . حاتم الطائي : ديوانه ٩ ؛ وابن سعد : الطبقات ١ : ٨٢

٤) الطلب بحثا في : *Le culte des bétyles et les processions religieuses chez les Arabes préislamites*, dans *l'Arabie occidentale avant l'Hégire*, p. 135-136

الفائق[1].

واذا رجعنا الى الجاهلية نرى الشواهد المختلفة على مدلول «الوصية» الديني . وهذا الشاعر عباس بن مرداس ، يتسلم من ابيه ، بفضل الوصية ، الحجر المؤلّه دَماد او دمار[2] فيحافظ عليه . ولقد كان الشيخ الراحل يوصي ايضاً بالمحافظة على الجوار ، والبرّ بالعهود . وكذلك كانت الوصية تهتمّ بجلّ ما بقي من مشاكل الدم قيد الثأر[3] ، كما رأينا في وصية داود الملك لابنه سليمان . وهي «ولاية الاشياخ»[4] لا بدّ من القيام بها . ولهذا كان جميع الحاضرين يُقسمون بقبولها و«ينذرون» بان يقوموا بها . يدفعهم الى ذلك «العزيمة» باسم الله ، وخصوصاً خوفهم من التعرّض لدعوة الشيخ الراحل . وهم يعتقدون ان الشيخ ، اذا ما حضره الموت ، كان «مجاب الدعوة»[5] ولاسيما ما كان منها بالشرّ . وكان القتيل ، قبل ان ينزل «بيته»[6] الاخير ، يلزم على حاضري نزاعه الا يتركوه ، دون ثأر ، في بيتٍ مظلم :

واترك في بيتٍ بسَمْدةَ مُظلم (٧

ومن هذا ما جاء في حماسة ابي تمام عن جُوَيّ المزني ، وقد قتله الخزرج بعيداً عن قومه ، فرفع رأسه ، وهو يجود بنفسه ، فقال مخاطباً احد الخزرجيين: «اعطي الله عهداً ليُقتلنّ منكم خمسون ليس فيهم أعور ولا أعرج» . فسارت كلمته حتى بلغت مزينة فاخذوا بثأره . وفي ذلك يقول كعب بن زهير ، وفيه اشارة الى كل ما تقدّم ذكره من واجب القيام بوصية الميت ، ووفاء النذور ،

---

١) راجع كتابنا في *Fâtima ... p. 111*

٢) لم تُضبط اللفظة ضبطاً صحيحاً ؛ راجع : صحيح مسلم ١ : ٢١١ ؛ اسد الغابة ٣ : ٤١ ؛ سيرة ابن هشام ص ٨٢٢ ؛ الاغاني ١٣ : ٦٥ ؛ وقابل بما ورد في Welhausen, *Reste*, p. 66

٣) سيرة ابن هشام ص ٣٧٣ ؛ الاغاني ١٩ : ١٣٠

٤) ديوان قيس بن الخطيم (Kowalski) ١ : ٤—٥

٥) اطلب في ذلك كتابنا *Mo'âwia* p. 180-181

٦) راجع في معنى بيت = قبر بحثنا *Le culte des bétyles*, p. 144 ؛ ديوان ليبد (الخالدي) ص ٧٧ ، البيت ٢ ، و٧٨ ، البيت ٢ ؛ ديوان حاتم ٣٧ : ١٥ ؛ والمفضليات ١٩ : ٢٢

٧) حماسة ابي تمام ص ١٠٧ ؛ الاغاني ١٤ : ٢٥

وعدم الرضى بالدية :

لقد وَلَى أليَّته حَلُوبٌ معاشرُ غير مطلولٍ اخوها . . .
ولو بلغ الفتيلَ فعالُ قومٍ لسرَّك من سيوفك منتضوها
لتذرك ، والنذور لها وفاءٌ اذا بلغ المتراية بالنوها . . .
فما مغر الظباء بحي كعب ، ولا المسنون قصَّر طالبوها . (١)

***

اما في ما خصّ خلود النفس ، فلا تتحقق في فكر البدوي الا ملومات غامضة . ولا نراه اهتمّ اهتماماً جدّياً بهذا المشكل . وهؤلاء شعراء الجاهلية ، اذا ما عرضوا لما بعد الموت ، يعبّرون بلهجة عابثة عن فكرة غير مستقرّة ولا دائمة الى الاهتمام . فيقول أوس بن حجر :

إنْ اشرب الخمر ، او ارزأ لها ثمناً ، فلا عدمتُ ، يوماً ، اتي ماحي
ولا عدمتُ من قبر بمحنيةٍ ، او في بليخٍ كظهر الترس وضّاح (٢)

ويردّد طرفة :

كريمٌ يروّي نفسه في حياته مخافةَ شربٍ في الممات مصرَّدِ
فذرني اروّي هامتي في حياتها ! ستعلم ، ان متنا ، صدى أينا الصدي ! (٣)

وان يكن البدوي لا يعتقد الاعتقاد الواضح بحياة النفس في عالم آخر (٤) ، فهو لا يرى ان الموت يفصل حالاً بينه وبين جسده . ولهذا نرى انهم يضعون الميت « موسّداً » او « متوسّداً » (٥) في قبره ، اي متكئاً رأسه على زنده المبسوط خلف عنقه ، كما كانت عادته ان يستريح في الليل . وهم لا يجبونه في تابوت ، اذ يعتقدون انه نائم في « بيته المظلم » نوماً اعمق من النوم العادي ولكنه لا يفقده الشعور التام بل يسمح له بشيء من الحسّ الضئيل على مدّة ما . ثم يندفعون ، في سبيل مقاومة هذا الحسّ الضئيل ، واطالة مدّته ، الى القيام

١) حماسة ابي تمام ص ٤٤١-٤٤٢ ٢) ديوان اوس بن حجر ٤ : ٨-٩
٣) ديوان طرفة (Seligsohn) ١ : ٦١-٦٤
٤) راجع في ذلك المسعودي : مروج الذهب ٣ : ٣٠٦ . . .
٥) حماسة ابي تمام ص ٤٢٩ ، السطر ٢٢ ؛ ٤٥٩ ، البيت ٢ ؛ ديوان حاتم ٢٨ ، البيت ٧ ؛ المفضليات (Lyall) ص ٦٢ ؛ الاصمعيات ٦٣ : ٨ ؛ ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز (طبعة عُبيد) القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٤١ الخ . . .

بكثير من مظاهر الجلبة الدالة على الاسى ، كالمنادب والمناحات المستطيلة على بضعة ايام ، والطواف المزدوج ، والمتافات العالية بقولهم : « لا تبعد أ » وصراخ النساء الحادّ كانهنّ يرغبن في تأخير مدة الانفصال التام بين الروح والجسد ؛ بينما يقوم الرجال بالمواعيد والايمان المعظّمة بالاسراع في الثأر - هذا من الاهل والاصدقاء . اما الاعداء فانهم ، اذا ما قتلوا العدوّ ، يسرعون في فصل نفسه صارخين مردّدين : « ابعد » ، وهي اعظم دعوة واهول لعنة تقع على العربي المائت . من ذلك قول حاتم :

وحق ترسّكت العائدات بعدنه ينادين : « لا تبعد ا » وقلت له : « ابعد ا »

وكان من تأثير هذا الاعتقاد ان البدو كانوا ينفرون من « المثلة » نفورهم من افظع الشرور ، والمُثلة تشويه جثة القتيل بعد قتله . وبتأثير العقيدة نفسها ، كانوا ينفرون كذلك من قبول شرعية حدّ السارق الذي سنّه القرآن[1] ، وهو قطع اليد[2] . اما حريق الجثة فكان من نتيجته ، في نظرهم ، ان يفصل حالًا بين النفس والجسد[3] . وقد تسرّب هذا الاعتقاد الى التقليد الاسلامي ، فمنع « الحديث » حرق المجرمين ، لان عذاب النار[4] من خصائص الله وحده[5] .

وفي امكان المرئ ان يقبلوا وداع ذويهم ، كما انهم يسرّون من تحية

---

١) القرآن ٥ [المائدة] ٤٣

٢) ومن هذا القبيل ما ينصح به بعض اتقياء المسلمين من عدم اجراء العمليات الجراحية ، لانه ليس من اللائق ، في نظرهم ، ان يتقدم الانسان ، يوم القيامة ، وهو اقطع او اعرج . . .

٣) A. Mez, *Die Renaissance des Islâms*, Heidelberg, 1922, p. 350

٤) راجع كتابنا *Yazid I^er*, p. 475 ؛ الذهبي : ميزان ٢ : ٣٦٧ ؛ اسد الغابة ٥ : ٥٢ ؛ الجاحظ : الحيوان ٥ : ٣٢ وقابل ٤ : ١٤٦ ؛ النسائي : السنن ٢ : ١٧٠ ؛ سيرة ابن هشام ٤٦٩ ؛ ابن عساكر : تاريخ دمشق (بدران) ٥ : ١٠٢

٥) على ان هناك بعض كبار المجرمين والزنادقة أُنزل بهم عذاب النار من امثال بابك الذي فُصلت اعضاؤه حيًّا ثم أُحرق بالنفط ، اطلب التنوخي : جامع التواريخ (Margoliouth) ص ٧٥ ؛ والحلّاج ، اطلب Massignon, *Al-Hallaj, martyr mystique de l'Islam*, I, Paris, 1922 p. 304, 312 ; A. Mez, *op. cit.* p. 509 ; وياقوت : ارشاد الاريب (Margoliouth) ١ : ٢٦٧ ، ٣٠٧

المارين[1] . وتظلّ نفوسهم عطشى في قبورها يرويها الخمر ، اذا كان اربابها من السكارى ، او الدم اذا كانوا قد قتلوا ، ولم يؤخذ بثأرهم بعد . وعلى هذا يدور الكثير من الشعر الجاهلي في ظمأ «الهامة» و«الصدى» كقول طرفة المتقدّم ، وقول حاتم :

اماويّ، اما ستّ ، فاسقي بُطنةً من الخمر ريّا ، فانضحنّ على قبري (٢)

وما يروى عن الاعشى من ان الفتيان ، كانوا اذا جلسوا للشرب على قبره ، اعتبروه واحدًا منهم فاهرقوا الكأس على تراب القبر ، اذا وصل اليه الدور[2] .

اما في « الهامة » العطشى للدم فنعرف الكثير من الشعر كقول ذي الاصبع :

يا عمرو ، ان لا تدع شتمي ومنقصتي اضربك ، حيث تقول الهامة : اسقوني ! (٤)

ولا يطفئ هذا العطش الا دم الواتر . اما اذا مات الرجل حتف انفه فيُستقى الغمام على قبره . واذا مرّ المسافر بالقبر وقف فحيّاه ، او وضع عليه اغصانًا خضراء ، او ازهارًا طيّبة الرائحة ، وان لم يكن لديه شيء من هذا وضع حجرًا[5] . ثم ان اهل الميت يزورون القبر من آن الى آن ، وقد ينصبون الى جواره مضربًا[6] يقيمون فيه دفعًا لضجر العزلة عن صاحبه . من هذا ما اوصى به عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، عندما اتته ساعته ، فالتفت الى ذويه وقال : « اقعدوا عند قبري ... استأنس بكم . »[7]

وبناء على ما تقدم فاننا نفهم اي ذعر كان يستحوذ على البدوي اذا ما

---

١) حماسة ابي تمام ص ٤٠٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٨١ ؛ البخاري : الصحيح ٣ : ١٠١

٢) ديوان حاتم ٧ : ٤٦ ٣) الاغاني ٨ : ٨٦

٤) المفضليات (Thorbecke) ص ٢٣

٥) ديوان اوس بن حجر (Geyer) ٢٢ : ١٦-١٧ ، ٣٣ : ٥ ؛ ديوان لبيد (الخالدي) ص ٢٩ ، ديوان النابغة ((Derenbourg) ٢٨ : ٢٦-٢٧

٦) الاغاني ١١ : ١٤٤ ؛ ١٥ : ١٢١ ؛ ١٩ : ١٠٨ ؛ الطبري ٢ : ١١٠٧ ؛ ابن حنبل : المسند ٣ : ٣٦٢ ؛ البلاذري (Ahlwardt) ص ٤٠ ؛ ديوان حاتم ٣٨ : ٤

٧) ابن عبد ربه : العقد ٢ : ٤ ؛ مسلم : الصحيح ١ : ٦٠

فكر بالموت بعيداً عن قومه[1] ، فهو يصرخ طالباً بان لا يترك في « بيت مظلم » في محل قصيّ ، حتى وان كان من مشهوري الابطال كزيد الخيل ، او من دهاة الصعاليك كمالك بن الريب ، وذلك خوفاً من ان لا يجدوا :

سوى السيف والرمح الرديني باكيا !

وهو بكاء ، وان كان مادّةً للفخر الشعري ، لا يكفي لتعزية الميت وايناسه في وحدته المظلمة !

للشنفرى ان يقول ، بتجرّده المعهود عن اهله :

اذا ما انتمى بيتي لم أبالما ، ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي (٢

وهو لا يهتم بان يبكي عليه اهله لانه لم يعتد حياة القبيلة ، بل عاش عمره متشرّداً يفضّل الذئاب والضباع على قومه . ثم هناك سبب آخر . هو ان من واجبات النساء : العمّات والخالات ، وسائر ذوات القربى ، ان ينحن على الميت نواحاً مستطيلاً كي يذكرن اولياء الثأر بواجبهم ، ويدفعنهم الى القيام بهذا الواجب . اما الشنفرى فلم يكن بحاجة الى هذا ، لانه كان قد سبق فاثأر لنفسه الى ما وراء الحد[3] . فلم يخف ما يخافه غيره من الموت في الغربة ، فالحرمان من الانتقام الذي يُطفئ ظمأ النفس العطشى ، ويوسع القبر المظلم[4] .

***

هذا ما رأيناه جديراً بالنظر في ما خصّ صفة الثأر الدينية . وسنفرد بحثاً آخر لما كان يقوم به نساء العرب خاصة في تحريض اولياء الثأر على القيام بواجبهم ؛ ولما كان يستنزل الشعراء من تلك المواقف .

---

١) حماسة ابي تمام ص ٢٩٥ ؛ ٤٠٨ . — ولم يكن العرب يثأرون للخليع . ومن ثمّ فقد كانوا يخشون هذا الحرم الذي يلحقهم حتى ما بعد الموت .

٢) المفضليات (Thorbecke) ص ٢٥ ، البيت ٢

٣) المفضليات (Lyall) ص ٢٠٦

٤) راجع Noeldeke, *Fünf Mo'allaqât*, I. 64 ؛ حماسة ابي تمام ، ص ٢٩٥ ؛ الاغاني ١٥ : ١٢٨

خواطر ونماذج

بقلم سعيد عقل

للشاعر سعيد عقل آراء طريفة في الشعر قد تبدو غريبة في نظر كثيرين من شعرائنا وادبائنا . وذلك ان سعيد عقل حاول ان يستخلصها " لا من درسه تحديدات الشعر العروضية والبيانية او تقسيمات الشعراء الى طبقات وفئات " بل من ملاحظة حياته شاعراً : كيف يحس " وكيف يجتر هذا الاحساس : كيف يرى ويسمع " وكيف يعلم الناس — او يحاول ان يعلمهم — على ما يرى ويسمع : مستنداً " فوق ذلك " الى ما تمتاز به شعراء الغرب المخلصون من وصف « حالاتهم الشعرية » . فكان من كل ذلك هذا المقال محتوياً على قسمين : خواطر نظرية في الشعر " ونماذج من مختلف انواعه تدل على ان الشاعر لم يكتف بالنظريات . . .

١

خواطر

شغل تحديدُ الشعر جمهور المشتغلين بالادب ، في كل زمن ، ولا غرابة في ذلك ، فالناس قبل الطريقة العلمية الحديثة ، اكثر ما كان يعوزهم «التحديدات» . فكم من محدّث في « الجمال » بليغ ، او في « الفنّ » ، كان يتوقف حياء عند اعتراض مستفهم يقول له : ولكن ما هو « الجمال » ؟ وما هو « الفنّ » ؟

سأحاول ان احدّد الشعر اذن.

ولكن الطريقة التي اتبعها لن تكون نظرية من مثل التي يلجأ اليها غير المشتغلين بالشعر ، وصناعة الشعر — واردد لفظة «صناعة» — فهؤلاء ينظرون في المأثورات الشعرية ويرون تحديد الشعر في ما يتوهمون أن الشاعر قام بـه .

ولكن هل يدركون ، يا ترى ، جميع ما قام به هذا الشاعر ؟ ذلك ما يظلّ في ذمّة الناقد واخطاء النقد ؟

قال بودلير :

« كثيرًا ما فكرت كم يكون مفيدًا قولٌ لشاعر يريد به ، بل يقدر ان يخبرنا خطوة فخطوة ، عن الطريق المتتابعة التي سلكها في نظمه حتى وصل الى التعبير النهائي ، في اتمام القصيدة »

ويسمي « بودلير » ذلك : « سفر تكوين القصيدة »

هي طريقة لم اجد انفع منها للوصول الى أمرين : تحديد الشعر ، ومساعدة خلق الشعراء .

انا اعيد بلاغ « گوته » ، شاعر المانية ، الى امر واحد : وقوفه على يد الرسامين الذين كانوا يقومون امامه بوضع صورهم . واني اعرف واحدًا امسى شاعرًا فصيح الاداء ، لا ماهرًا في استلام الوحي وجلسه خافقاً في اسود على ابيض ، من براء وقوفه على يد شاعر ينظم ، فكان هذا يريه كيف يأتيه الفكر ، فيمحوه او يبقي عليه ؛ وينقد له من حين الى حين ، سبب الابقاء او الشطب ، وسبب استبدال فكر بفكر او اداء باداء .

الخلاصة : تموزنا « التحديدات » ومنها تحديد الشعر ، ويموزنا في هذا التحديد ان يكون من واحد اشتغل بالشعر ، فيصور لنا ما يحس انه يقوم به ساعة النظم ، لا ان يكون ممن يتوهم انه يدرك ما قام به غيرُه .

يقوم الشعر على عمادين :

التحسيسات النفسية التي تغمر الشاعر امام منظر ، او مرور خاطر .

واخراج هذه التحسيسات الى الناس .

التحسيسات النفسية لا اعمل فيها بحثاً طويلاً ، وكلنا يعرفها . كلنا انسان ، لكنني اشير الى ان هنالك فرقاً من حيث قوتها بين الشاعر والرجل العادي ، ومن حيث نوعها بين صاحب الذوق ومعدمه .

هي اقوى عند الشاعر . وهذا امر بديهي . واقصد بالشاعر هنا الرجل الحساس لا غير ، فقد يكون غيرُ مشتغل بصناعة الشعر .

وهي متنوعة عند صاحب الذوق ومعدمه ، لان التحسيسات منجم فيه المرمر ممزوجاً بالحجر الدون ، وبمقدار ما عند الرجل من ذوق يقاس اتجاهه الى المرمر دون غيره .

اما اخراج التحسيسات ، عاد الشعر الثاني ، فأسهب في بحثه . فالامر ادق مما يتوهمون .

ما هو الاخراج ؟

هو ان يحاول الشاعر بواسطة الفاظ وضعية ان يجعل الناس ، اكثر ما يمكن ، مفعورين بحالته .

لا تفاوت بين مكانات الفنون من حيث التحسيسات . لكنها تتفاوت من حيث الاخراج :

ذهبت الى ان الموسيقي لا يفضل المصوّر من حيث انه موسيقي وذاك مصور . وإذا كان من فرق فيعود الى موهبة الشخصين .

اما في الاخراج فيظهر ان الطبيعة لم تكن مساوية بين الفنانين .

لقد حبت الواحد اكثر من الآخر ، حبت الموسيقي في الدرجة الاولى ، ثم المصور ، ثم هذا المسكين الذي دعوه «الشاعر»

منجم الشعر مثلث : الطبيعة ، والنفس البشرية ، والفكر البشري . لكن احساساتنا دونها شيء مبهم مغلف كالقبر ، فاي الادوات في يدنا نخرج بها هذا المبهم ؟ ونضع الناس في حالاتنا المبهمات ؟

في يد الموسيقي الحان ، وليس اكثر ابهاماً من اللحن ، فالموسيقي اذن منعم عليه ، لديه مبهم يخرج به مبهماً .

وفي يد المصور الوان وخطوط ، ومن يفهم اللون ؟ او يحدده الا بالمقابلة ، فلدى المصور ادوات مبهمات يخرج بها المبهمات .

اما الشاعر المسكين فما تراه يعمل وقد أعطي لاخراج احساساته — المبهمات — ألفاظاً وضعية قدّسها الاستعمال ، وعقّدها على اسم هذا الشيء ، وتلك الفكرة . فالشاعر والحالة هذه ، من حيث الاداة ، اقل الفنانين الثلاثة حظاً .

فأسى عليه ان يكون دوره لمرج الادوار .

قلت مهمة الشاعر — او الفنان عامة — ان يحاول جعل الناس ، اكثر ما يمكن ، مغمورين بحالته . ولم اقل : مهمته ان يُفهم الناس حالته .

مهمته ان يجعل الناس يشعرون معه ، لا ان يدركوا ما يقول ؛ ان يعملوا معه لا ان يتفرجوا على عمله فاهمين ؛ ان يندمجوا به ، لا ان يقولوا له عن بعد : دخلنا الى سرك . فان تمكن من الاولى كان شاعرًا ، او تمكن من الثانية كان ناثرًا ، وان لم يتمكن لا من هذه ولا من تلك كان لا شيء .

سندرس هذه الحالات في المقابلة بين الشعر والنثر .

يقول ڤاليري الشاعر : الفرق بين الشعر والنثر كالفرق بين المشي والرقص .

غاية الماشي ان يصل الى نقطة معينة ، فان فعل في الطريق ، وعطفات الطريق ، في الواسطة عند الغاية .

وهكذا الناثر . ان غايتي الآن ان يستحيل منثوري الى معنى في افهام القرّاء . فان وصلت الى ذلك ، نسيتُ ونسوا الالفاظ التي استعملتها . وما يهمهم من الواسطة وهم في صميم الغاية . وهل يستعيد قراءة الصفحة الا من لم يفهم ؟ ويقدر الواحد منا ان يعيد على الاسماع فصلًا لابن المقفع دون ان يستعمل تعبيرًا واحدًا لكاتبه .

اما الراقص فغير ذلك ، ان الواسطة عنده لتندمج بالغاية ، ولا يقدر احد ان يستعيد العواطف التي اظهرها له الراقص الا اذا استعاد الخطوات نفسها والحركات نفسها التي قام بها الراقص . الرقص امتزاج الغاية بالواسطة . وهكذا الشعر . فما هو بالمعنى ولا هو بالمبنى — ولقد بدأوا اليوم يقلمون عن هذا التفريق — الشعر هو هذا الشيء الذي لا ينفك يتهادى بين المعنى والمبنى ؛ ما هو بالانا ولا ما في الانا ، هو هذا العشق الذي بين الاثنين متحدين .

وذهبت في الشرح الى ابعد من ڤاليري ، قلت : الفرق بين الشعر والنثر كالفرق بين الموسيقى المتعددة الاصوات (polyphonie) والموسيقى الفردية الصوت (monophonie) .

الموسيقى المتعددة هي ان تقوم عدة ادوات او عدة اوتار ، في الوقت

نفسه ، بنغمات مختلفة والفردية هي ان تتفق الادوات وتجمع كلها على النغم الواحد .

وما احساس السامع من الفردية ، وما احساسه من المتعددة ؟

كل يوسعه ان يتحسس الفردية ، ومن لا تهزه الوتيرة الواحدة (mélodie) ؟ فهذه الموسيقى أداء الشعوب الأوّل أو المتأخرة ، وهي مهدهدة لذيذة ، لكن لذتها بالنسبة للمتعددة لعلى ضآلة بالغة .

اما هذه فصعبة التحسس . على المرء ، ليتحسسها ، ان يكون في قرارة نفسه استعداد موسيقي ، او ان يكون على تهذيب فني . واما اذا قُدّر له ان يتحسسها فيجد اي لذة ، واي فرق بينها وبين الفردية ! وهذه الموسيقى من خصائص الغربيين ، من خصائص البلدان المتقدمة في المدنية ، ولا عهد للشرق بها

وسنرى في استطراد درسها سبب افضليتها على الفردية ، وسبب اللذة البالغة التي تبعثها ، وسبب عبقريتها في اظهار العواطف .

ان العين اسهل درساً من الاذن . ولنفهم هذه عن طريق تلك :

اذا وقفنا امام منظر ، ارتسمت في العين كل الاشياء التي تؤلف هذا المنظر . لكنّ شيئاً واحداً يقع على ما يسمونه « النقطة الصفراء » ، شيئاً واحداً تتجمع لرؤيته اكثر قوى النظر . وهذا هو وحده الشيء « المرئي » بين بقية الاشياء « المنظورة » . وثمة فرق كبير بين « النظر » و« الرؤية » . نحن « ننظر » بالوقت نفسه الى الف شيء ولكننا لا نقدر ان « نرى » الا نقطة واحدة معيّنة .

هذه النقطة هي التي نعيها ، اما الاشياء الباقية ، فنشعر بوجودها دون ان نراها .

النقطة المرئية تخاطب فهمنا . أمّا الاشياء المنظورة فتخاطب احساساتنا .

وهكذا الاذن ، وقوانينها تعرف ايضاً فرقاً كبيراً بين « الاصغاء » و« السمع » .

نحن لا نقدر ان « نصغي » الا الى لحن واحد ، فنفكر به ، واما البقية « فنسمعها » ونحلمها .

لحن واحد يخاطب فهمنا والبقية تهدهدنا فتلذذنا . لحن واحد يخاطب بجلاله

عقلنا المميز ، اما بقية الاصوات التي تُقدّر لها ان تظل في حقل السمع فانها تعمل ، بروعة الخفايا والاسرار ، على ايقاظ احساساتنا .

نحن نصغي الى الجليل (le sublime) . اما ما نسمعه فعجيب ، وفوق الطبيعة ، انه الحلم او كالحلم .

ومن هنا نرى الفرق بين الموسيقى الفردية ، والموسيقى المتعددة ، في الاولى صوت واحد يستدعي اجمالاً التفكير ليس الا .

اما في الثانية ، فعدا هذا الصوت البارز ، اصوات اخر توقظ الاحساس وتغمرنا بضباب عجيب .

والنثر من الشعر كذلك :

الاول معنى لا غير ، واما الثاني فمعنى مغمورٌ بضباب عجيب يُهيئ لك الجوّ ، حتى اذا جاء المعنى ثبتك فيه .

نقول في النثر مثلاً :

نحن الشعراء ، تنفع الناس ، ولكنهم ينكرون الجميل .

ونقول في الشعر :

ونحن اولي الشعر نسعى هناءً على الناس ، والناس لا تشعرُ ،
حملنا الربيع على الراحتين ، وماج بأفئدتنا النهرُ .

ان هذين البيتين قد شملا معنى النثر بنفسه ، لكنهما ، فوق ذلك ، اطلعاه من جوّ الحلم .

ان الشعر كالموسيقى المتعددة الاصوات ، حوى الصوت البارز « نصغي اليه » وهدهد حوله بقية الاصوات « نسمعها »

والآن ايكون يوسعنا ان نرى مثل ذلك في هذا البيت ؟

اذا انت أكرمت الكريم ملكته ، وان انت أكرمت اللئيم تمردا

لا ، وان هذا — على حكمته الجليلة — ليس من الشعر في شيء . هو معنى ، هو فردي الصوت ، لا ضباب ، لا تعدد اصوات حول معناه ، يخاطب العقل ، ولا يوقظ الاحساسات .

يقول الناثر :

انت جميلة حزينة ،
وانت لطيفة توحين مراعاتك .
أنت جميلة حزينة .
أمسكتُ أمامك متبرّمًا :

ويقول الشاعر :

أرى في جمالك شيئًا كئيبًا يهيم على شاطىء قانع
تجنّبه النسمات ، وتحنو اغانيها خفية النازع
جمال توشّح بالبسمات الكآلى وبالنغم الناجع
الاقيه في وجمة المتعب واخنق صوتي من الباسع
فلا يخدش البَوح من فكره ومن هدأة الحلم الشائع

يقول الناثر :

في وجهك سمات الحزن .
ولا اريد ان آتي امامك على ذكر الفرح . فقد تتأثرين .

ويقول الشاعر :

وفي شرك الرطب لحنٌ يتيم ينوح على وتر هاجع
وفيه احتضار الشتاء الاخير جريحًا على الاخضر الطالع
فذكر الربيع على سمعه حرام، وذكر الهوى الراجع

واجمالاً اقول :

الفرق بين الشعر والنثر ، من حيث الاخراج ، كالفرق بين الموسيقى المتعددة الاصوات والموسيقى الفردية الصوت .

الفردية صوتٌ ، والنثر معنى . المتعددة صوت نافر بين جوٍّ من الاصوات ملئ بالاسرار الحيّة التي تخاطب الاحساس .

والشعر معنًى يتهادى بين الاسرار الخفية ، هو وقت محدود تعطيه الاسرار مسحة الدوام ، هو لذة وقتية تخلع عليها الخفايا كل ما يأمل الانسان من ملذات دائمة .

***

وبعد هذه المقدمات ، صار بوسعنا ان نفهم قول مدام ده ستال وهي من اكبر باعثي الرومنتيسم في فرنسة او باعثي الشعر الحق ، قالت :

« اذا حركت النفس عاطفة قوية ، لجأ الناس العاديون انفسهم الى الصور والاستعارات ، لجأوا الى الطبيعة الخارجية للتعبير عما يجري في داخلهم مما لا يعبر عنه »

وتقول ده ستال في موضع آخر :

« ان جمال الانشاء ليس ميزة خارجية تماماً ، لان الاحساسات الحق توحي دائماً التعابير الاكثر رفعة ، والاكثر موافقة ... وان المبنى ، في عالم الفنون الجميلة ، يخص النفس مثلما يخص الموضوع عينه »

***

اخيراً ، ان هذه المقابلة بين الشعر والنثر قد ارسلت لنا نوراً على العمل الذي يقوم به الشاعر لاخراج تحاسيسه الى الناس .

بقي ان نتفهم بعض الحواشي في عالم الاخراج .

سأعرض الآن بين نماذج الشعر ابياتاً يظن لاول وهلة انها معنى فقط ، انها شيء من الموسيقى الفردية ، من بيت المتنبي الذي تقدم ذكره ، فما السبب ؟

لقد كنت القراء في الكلام على الموسيقى ان لا موسيقى متعددة الاصوات بكل معنى الكلمة .

فالقطعة من الموسيقى المتعددة تتقطع من حين الى حين بموسيقى فردية .

ذلك لان البشر — كما الميت — ضيقون ازاء هذه الموسيقى .

قسم قليل من الناس من بوسعه ان يحس من الموسيقى المتعددة قطعة ذات لحنين ، واقل منهم من يحس ذات الثلاثة ، ولا يحس ذات الاربعة الا الموسيقيون .

وليس بالسهل ان يتابع الواحد مسير لحن بين عدة . فكيف به يتابع اثنين وثلاثة ؟ فيعمد الموسيقيون من حين الى حين الى تقطيعها بالموسيقى الفردية .

وهكذا في الشعر ، فلو ظل الشاعر يقدم المعنى من خلال الاجزاء لاتعب سامعه ، لهذا يعمد من حين الى حين الى ارسال المعنى عارياً .

ولعلّ ذلك من الجنسات الشعرية ، اذ نحسّ عند هذا التنزل من الشاعر او الموسيقي ، « ان الفكرة السائدة قد خرجت من الضباب كالشمس فنشكرها زيادةً على صفائها وجلائها ، بعد ان كنا نستشعر الخوف من التيه »مع ارتفاعات الشاعر .

ومن هنا ايضاً نرى السبب في اشكال بعض القصائد على فئة وسهولتها على فئة اخرى .

فاذا قرأ الواحد منا ابياتاً لم يفهمها ورأى ان شاعرًا موهوباً يمتدحها ، فلا ينسب ذلك الا الى ضعفه هو . فقد تكون القصيدة من نوع الموسيقى المثلثة الاصوات ويكون هو ممن ليس بوسعهم ان يتحسوا غير المزدوجة ، وقد تكون مزدوجة وهو لا يقدر ان يتحسس سوى الفردية .

وان هذه لكالنثر ، او كالشعر المتداول وهو الذي يفوق النثر بالقافية والوزن . فلنثقف انفسنا على تحسس الشعر ، وليكن المحك غير الشعر المتداول . ولا يظن من يفهم الشعر المتداول أنه صار على شيء من التهذيب الفني الذي يستدعيه تحسس الشعر .

والشعر — على قول بعض النقّاد — لغة الخاصة ، وهذه لم تتوفر الا في اليونان القدم ، وفي القرن السابع عشر في فرنسة .

***

واجمل حديثي بالقول :

أرى الشعر ، اولًا : تحسيسات نفسية من شخص ارفع طبقةً في الاحساس من الناس .

ثانياً : مجيء هذه التحسيسات بتآلف يجعل الناس ، اكثر ما يمكن ، مغمورين بحالة الحساس .

ولا يتمكن الشاعر من غمرهم بحالته الّا بمخاطبة العقول والاحساس معاً ، فهو يعرف ان لا يقدم معنى للعقل الّا اذا جاء من جوّ مليء بالاسرار والخفايا التي تخاطب الاحساس .

٢

نماذج

قصائد ومقطعات للشاعر نفسه (١)

المسيح

مقطعان من قصيدة « المجدلية » المنظومة في السنة ١٩٣٢

كان ، في ذلك الزمان ، على تلٍ صغيرٍ مخضوضر الجنباتِ ،
شاعرٌ ، جنّح السنى شفتيه ، ينثر الزهر في ندى الكلماتِ ،
قام بين الامواج : من نظر الناس ، ومن مسمع الذرى الواجماتِ ،
ينثر الآي في الانام ، ويرمي ، للخلود الحادي ، جمالَ صداه ؛
تمتمتْ حيناً تقول : يسوعُ ! هيناتٌ آناً تُعيد : الله !

* * *

عند شاطي الاردنِ بين الحصيلات ، تلاقى يسوع والمجدليّهْ .
ومقتــه يذرذر الشعرَ نجراً ، ويردّ الأبرادَ وَهجَ عشيّهْ ؛
تشكي رحمةُ العلى بين جفنيه ، اتكاء السنى بمحض البريّهْ ؛
ويجول السلام في شفتيــه حُلماً اخضراً ، وافقاً بليلا ؛
يلتوي ، نقلةَ الطفالى ، نخيلا ، ينثني ، مشيةَ الملوك ، جليلا ؛
الرياحين في يديه فنــدّت ، وارتمت ، حول كفّه ، إكليلا ،
سربلته اشذاؤهــا ؛ سربلته سحبُ النور ، سربلته الهيولى .

ليلة قراءة

مقطع من القصيدة نفسها في وصف ليلة قراءة أكتفتها السكينة

سلسل البدرُ نورَه ، مخمليا ؛ بين تلك الخمائل الحالماتِ ،

---

(١) حقوق النقل محفوظة .

وتقضي الظلامُ ، إلا هزيماً يتهادى كواكباً راقصاتِ ،
هينماتُ النسيمِ ، ورقرقة الاضواء ، مسفوحةٌ على الكائناتِ ،
في صفاء السماء والارض طَرْفٌ باسط الجفن للرؤى العلويّه ،
في وجوم السماء والارض اوهافٌ لنجوى المسيح والمجديّه .

سكوت

ابيات في وصف عاطفة ناعمة

أحبّك في ذلّةِ الراكعِ ، وأحيا على أملٍ وادعِ ؟
وأعرف ألّا ابوح بحبّي ، فابقي له سعة الخاشع .
أرى في جمالك شيئاً كئيباً يهيم على شاطئٍ قابعِ ،
تجنّبه النسماتُ ، وتخفت انفاسُها خفتةَ الفازع ؟
جمالٌ توشّح بالبسمات الشكالى ، وبالنغم الناجعِ ،
ألاقيه في وجمة المتّقي ، واخنق صوتي عن السامعِ ،
فلا يخدشُ البَوحُ من فكره ، ومن هدأةِ الحُلُمِ الشائعِ .

. . . .

أحبّك ، منكسرَ الطرفِ ، خوفَ انفلاتك من نظر طامعِ ؟
وأمسح من عبرتي ، في الخفاء ، فلا تؤمنين على دامعِ .
وفي تتركُ الرطب لحنٌ يتيمٌ ينوح على وترٍ هاجعِ ،
وفيه احتضار الشتاء الاخير ، جريحاً على الاخضر الطالعِ ،
فذكر الربيع ، على سمعه ، حرامٌ ، وذكر الهوى الراجعِ .

. . .

حنانك ! لا تأليني مدى سكوتي الى قربك الشافعِ ؟
وقربك لي معبدٌ مُترعٌ اللذائذ ، في صمته الجامعِ ،
أمرّغُ في ارضه عزّتي ، وأمضي ، على لذّة القانعِ .

٢٨ تشرين الاول ١٩٣٦

وصف معركة

مقطع من رواية « بنت يفتاح » التمثيلية ، وهي التي نالت جائزة « المجامع الادبية » في بيروت لسنة ١٩٣٥ ؛ يصف فيه يفتاح لابنته راحيل ، نتيجة المعركة بين اسرائيل وبني عمّون ، وقد خشيت الابنة ان تكون النتيجة انكسار قومها ، فاجابها يفتاح :

... لا ، وراحيلُ ، فيفتاح في انتصار فؤدِ :
سفح العزّ دوننا ، وكسانا بُردَ مجدٍ رَحبٍ على بُردِ مجدِ ،
فجر نصرٍ يحيا على الاعصر الغُرِّ وتشدو جلالَه البيداءُ ،
عاد يفتاح بالغنائم والاسرى تضيقُ الربى بهم ، والفضاء .
ضرب الضربة السخيّة في عمون ، فانهدَّ عزّها بحُسامه ،
حصد الهام ، فالسهول تجلّلن بهامٍ رَقَدٍ على اقدامه .
لقي الجيش في «عروعير» ، صباحاً ، ينزل الرعبَ دقُّهُ ، والظلاما ،
تتقرّى الهضاتُ عن جانبيه ، فتخال التهديدَ منه حِماما .
لا انتهاءٌ له ، ولا وهن يُضرب منه ، فتبتدأ الهيجاء .
وتلوّت رجالُنا ، مَضَضَ الحيران لاقته فجأةً نجلاء ؛
لم يطقها يفتاحُ وقفةَ جُبنٍ ، فعلا صوتُه يصمّ الرياما ،
امر القومَ بالهجوم ، وبالموت ، فأدمى الستى ، وادمى الصياما .
كم نفوسٍ تناثرت والموالي ، وجيوم تعانقت والمواضي ؛
خطبة السيف خطبةُ الحقّ ، فالكاني ثيابَ الدماء كاسي البياض
صخبُ الحاملين مل. الصحاري ، ونزاع الفرسان مل. البرايا ،
والتلال الدكناء من جثث الابطال ، والافق من لهاث الضحايا .
يتهادى يفتاح في مطلع الجيش ، على عزّة الابيّ الظافر ،
قيل : مستقتلٌ ؛ وقيل : شجاعٌ عشقته ، فهادنته البواتر .
يتحاشى عن الجبان ، ويجري عارضاً صدره على المقدام ،
فاذا يلتقيه في فجأة الطالب ، يرمي بنفسه للحمام .
وتردّى النهار بالدم ، فانزاح ، وابدى المساء قبل المساء ،
ورأى الناسُ عزمَهم مثقل الخطو ، كسولًا الى لقاء القضاء ،

فتنادى عصف المنية فيهم ، وتهادت منه الربى والسهول ؛
فاذا فجعة الحراب فناء يتلوّى على المدى ويميل .
واذا دفقة من البدر تجلو أكمات الاحياء والاموات ،
عرف الناس ايّ شطر اصابوا ، فاذا السيف في ظهور العداة .
وسرى الفتح من «عروعير» يبغي حدّ «منيت» و«القرى العشرينا»
وعلى رقصة السنى والاغاني ، داس يفتاح في بني عمونا .

٤ ايار ١٩٣٦

المغني

قطعة في وصف الالحان الجليلة ، فالمفرحة ، فالباكية

يا نَجِيّي ، ونجيَّ الزُهر اترابي الحِرار ،
غنّني أشهى من النغر على صدر مُدار ؛
نغمةً فيها من الرهبة في ظلّ المزار ،
ومن الاسرار ، والتيه ، باحضان الصحاري .

. . .

شتّ آفاقاً من الالحان ، ملأى بالجواري ،
راقصاتٍ في التعالي ، غافياتٍ في القرار ،
يرتدين الحُلمَ من بُردٍ ، ومن جرّ إزار .
وانثرِ الآهاتِ أشلاء لآمالٍ صغار ،
خضّبتها وحشةُ القبر ، وذيّاك الجوار ؛
فاذا يرشفك الأنسُ ، وتحوك الدراري ،
اجد الدنيا من الآه على نورٍ مُعار !

. . .

غنّني شتّى الاماني : من كؤوس ، وعوار ،
من طلوع الفجر ، أنشدني ، ومن نزع النهار !

١٣ تموز ١٩٣٦

الشاطئ

ذكريات يثيرها تواثب الموج على الشاطئ اللبناني

تَرودُ على الشاطئ الحالمِ ... عرائسُ في برقعٍ ناعمِ ،
يرنّح أجنحتَهُنَّ الهديرُ ، ... فيغرقنَ في خاطرِ الواهمِ .
على زورقِ الموج ، اظلالُهنَّ ... ضواحكُ للافقِ الباسمِ ،
تكاد بهنّ تُطلّ اساطيرُ ... لبنان ، في الزمنِ الواجمِ .
يقولون : ضلّ الهُ قديمٌ ... بجوِّ عليلِ السنى ، غائمِ ؟
نكان ، ولا بدّ ، ذات مساء ، ... على صخرِ شاطئنا الجاثمِ ،
توقّفَ عن جريه ، في صلاةٍ ، ... وسبّح في ذلّة الناسمِ ؟
فهشّت جوانبُ لبنانَ تحنو ... على المؤمن الاولِ القادمِ ،
وظلّ صدى الحجّ ملءَ العصور ، ... يهبّ بشاطئنا الحالمِ :
خشوعٌ ، وروعةُ قِدمٍ سحيقٍ ، ... ومعزوفةٌ من فتًى هائمِ ؟
تخال الزمان يلمّ لُقاهـا ، ... ولم يصحُ من سكرهِ الدائمِ .

تباركتَ ، يا موج ، زفّ الهدير ، ... طروباً ، الى الزورقِ النائمِ ،
فتوقظ للزهو بجذافه ... النحيلَ ، وللعرس القائمِ ،
ويغنى الشعورُ بحسن ، ولا ... يظلّ سوى الزورق العائمِ .
اراه جرى في المياه ، عليلَ ... الجوانب ، مرتقص القادمِ ،
يذوب الحفيف على مَرّهِ ، ... اغانيَّ موجعة الناظمِ ،
فيفتح ملءَ المساء ، ويسفح ... حلماً على الابدِ القاتمِ .

توشّح شاطئ لبنانَ بالوهم ، ... وانزاح عن قدرة الفاهم :
رمالٌ ، على وحشةٍ حلوةٍ ، ... تموت على الازرق الناقمِ ،
وجُهمٌ من الصخر ، مسحورةٌ ، ... تلفّتُ بالنظر الناهمِ ،
ومثلَ انتفاض من الكون ... عذبٍ ، يُطلّ من العدم الراحمِ .
تُرى شطُّ لبنان ، وجهاً ضحوكاً ، ... كوجهي ، تجهّم للظالمِ !

١٩ اذار ١٩٣٤

مواسم الحجاز

وتسهيلها سبل اللهو في العصر الاموي *

بقلم جبرائيل جبور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

كانت هناك مواسم في الحجاز سهلت على شباب ذلك العصر سبل اللهو وساعدتهم على الالتقاء بالمرأة، والتقرب اليها والتعرض لها، سواء أكانت حرة او أمة، شريفة او وضيعة. وقد نال المرأة بسبب هذه المواسم حظ من الحياة مع غير زوجها او ابيها او اخيها او قريبها، فتعرفت الى الشاب واجتمعت به، وحادثته وحادثها، واحبته واحبها، واستمعت الى شعره فيها ان كان شاعراً، واسمعته نقدها ورأيها في هذا الشعر.

وكانت هذه المواسم، بالوقت نفسه، مدعاة الى تطور الحياة الاجتماعية عند اهل ذلك الجيل، بحيث اخذ الكثير منهم يفهم الحياة على غير الوجه الذي كان يألفه من قبل، كما انها ساعدت على ترقية الحياة الادبية عند العرب.

المدينة والعقيق

لم يكن التطور الذي طرأ على الحجاز بالشيء اليسير، ولقد نال المدينة، فيما يظهر لنا، اكبر نصيب منه. ذلك انها كانت مركز الخلافة لدولة الراشدين، فتحدر اليها اكثر الفيء، واكثر الرقيق والسبي. وتقع المدينة على سهل تحيطه من بعض جهاته ارض حمراء بركانية. غير ان تربته في الجهة الجنوبية مشبعة من المياه التي يندر وجود مثلها في سائر الحجاز. وتظهر هذه المياه وتكثر بعد نزول الامطار وتحدر السيول، وتغور بعض مياه الامطار والسيول تحت سطح الارض، وتستقر في جوفها[1]. ومن هنا نستطيع فهم

* فصل من كتاب في «عمر بن ابي ربيعة»: مظاهره السياسية والاقتصادية والاجتماعية، سيظهر قريباً في المطبعة الكاثوليكية.

١) ياقوت ٤: ٥٥٩ وبول – الموسوعة الاسلامية – تحت al-Madina

سبب كثرة الآبار في المدينة ، واستعمالها لسقي الزرع.

وينبت في تربتها المخصبة انواع كثيرة من الاشجار المثمرة ، اهمها النخيل. ومناخها ، على مـا في صيفها من حرّ وشتائها من برد ، خير من مناخ مكة ؛ وهي تفضل مكة من حيث المزروعات والاثمار ايضاً . وقد اصبحت ، بعد انتقال الخلافة الى دمشق ، موطناً للكثيرين من هؤلاء الذين رغبوا عن السياسة الى الهدوء والراحة والدَّعة[1] . فقد رجع اليها الحسن بن علي بعد ان بايع معاوية[2]. وفيها اقام عبدالله بن جعفر كما هو مشهور[3] . وفيها اقام الصحابة المهاجرون ، اول الاسلام ، فبقيت بعدهم اكثر عائلاتهم . واليها انتقلت كما سترى عائلة عبدالله ابن ابي ربيعة ، والد شاعرنا ، فولد عمر ونشأ فيها فيها نرجح وفيها اقام ابن ابي عتيق[4] ، والحسن بن الحسن بن علي[5] ، وابن علي من الحنفية[6] ، وسعد بن ابي وقاص[7] ، وغير هؤلاء حتى قيل انه كان فيها ، قبل فتنة ابن الزبير ، من بني أمية واحلافهم خلقٌ كثير ، رووا انهم اكثر من ثلاثة آلاف[8] . وقد اجلى ابن الزبير بعضهم الى الشام[9] ، وظلوا يحنون الى الحياة فيها[10] . وهكذا اصبحت المدينة ، كما ذكرنا ، موطناً لطبقة كبيرة من الناس ممن آثروا حياة الهدوء والدعة على الحرب والاشتراك في الخصومات السياسية ، بحيث استطاعوا فيما يقول بُول (Buhl) ان يتمتعوا وهم مطمئنون بهذه الثروة الكبرى التي تحدرت اليهم اثر الفتوحات[11] ، وانتهى ببعضهم الترف في العيش الى شيء عظيم من اللهو والمجون والعبث[12] ، بحيث ذكر الطبري ان مروان الاخير ، رأى احد رجال المدينة ممن خرجوا عليه في ثورة سليمان بن هشام بن عبد الملك سنة ١٢٧ هـ. فقال له : « يا فاسق ، اما كان لك في خمر المدينة وقيانها ، ما يكفك عن

---

١) بُول – الموسوعة الاسلامية – تحت al-Madina

٢) الطبري II : ٦ والدينوري ٢٢٢ ٣) الاصبهاني ١ : ٦٨، ٦٦، ٧٠ وراجع فهرس الاغاني لسكويدي تحت عبدالله بن جعفر ، وابن عبد ربه ١ : ١٤٥

٤) الاصبهاني ٨ : ١٠ و ٧ : ١٢٢ ٥) الاصبهاني ٢ : ٦٣–٦٤

٦) الدينوري ٣٠٨ ٧) المسعودي ٤ : ٢٥٤

٨) الاصبهاني ١ : ١٤ ٩) الاصبهاني ١ : ١٤ ١٠) الاصبهاني ١ : ١٥

١١) بُول – الموسوعة الاسلامية – تحت al-Madina ١٢) الاصبهاني ٢١ : ١٧٦

الخروج معه . تقاتلني ؟» قال: «يا امير المؤمنين، اكرهني، فانشدك الله والرحم!» قال: «وتكذب ايضاً ؟ كيف اكرهك ، وقد خرجت بالقيان والزقاق والبرابط معك في عسكره ؟ »[1].

وقد ذكر الاصبهاني ان الفرزدق كان يقيم فيها ويختلف الى بيوت القيان[2]. وروى ان مروان بن الحكم، عاملها لمعاوية ،انكر عليه هذا ، ثم لقيه ، فقال له :

قل للفرزدق ، والسفاهة كاسمها ان كنت تارك ما نهيتك فاجتنب
ودع المدينة انها بمذمومة واقصد لمكة او لبيت المقدس[3]

عصر المدينة الذهبي

ولعل هذا العصر كان عصر المدينة الذهبي الذي تغنت باعجاده الشعراء وقتئذ ، من جمال في الرياض المحيطة بالمدينة ، الى لين ودعة في العيش ، الى غنى ومال عظيم ، الى تساهل من قبل رجال الحكم ولعلك التفت الى هذه النواحي الجديدة في حياة اهلها في ذلك العصر، من اتخاذ بعضهم غرفة خاصة، جعلها ناديا ، يتردد الرجال اليها ، فيها من الالباب الوان كثيرة، ومن ضروب التسلية طائفة كبيرة . ومن تردّدهم ايضاً الى حفلات الغناء ؛ فقد كانت تعقد فيها ، كما رأيت ، حفلات كثيرة للغناء ، منها عامة ومنها خاصة ، كان يلبس المغنون في بعضها ، كما روي ، لباساً خاصاً.

ولقد كانت هذه المراسم الغنائية التي تعقد في المدينة مقصد الكثيرين من طلاب اللهو ، لا سيما من اهل مكة . ولنا ، في اخبار بعض شعراء مكة وشبابها من اهل المرح واللهو ، ما يفيد انهم كانوا يقدمون خصيصاً لحضور مثل هذه الحفلات الغنائية[4].

وكان صاحبنا عمر من اكثر الناس تردداً لمثل هذه الحفلات،وهو في المدينة ، ثم لم يفته ، بعد ارتحاله عن المدينة ، ان يقصد اليها لحضور هذه الحفلات الغنائية[5].

---

١) البلوي II : ١٦١٠ ٢) الاصبهاني ٢١ : ١٦٧
٣) الاصبهاني ٢١ : ١٦٧ ٤) الاصبهاني ٧ : ١٢٥ ٥) الاصبهاني ٧ : ١٢٥

العقيق

ولقد كان هناك في المدينة موضع خاصٌ ، لعله كان اكثر مواضعها حظاً من حياة اللهو والعبث والمرح والطرب ، و كان لصاحبنا عمر ايضاً فيه حظ كبير. ذلك هو العقيق ، وادي المدينة البهيج ، ومتنزه اهلهـا ، ومزار الكثيرين من طلاب اللهو من سائر مدن الحجاز.

يبعد اول العقيق عن المدينة نحو ميلين او ثلاثة من الجهة الجنوبية الغربية[1]. وتتحدر اليه السيول الهابطة من الجبال حوله ، فتجعل فيه نهراً كبيراً يضطرب في بعض الاحيان مثل مدّ الفرات[2]– ترمي اواذيّه العبرين بالزبد– ثم يهوي على الجنانّ والبساتين ، فيسقي نخلها ، ويروي روضها ، ويبعث نفوس هؤلاء العرب هناك من اهل المدينة وما جاورها الذين خلا قطرهم من الانهار ، فما هو الا ان يسمعوا ان العقيق قد سال حتى تراهم ، وقد هرعوا اليه افواجاً افواجاً ، وجالاً ونساء ، يتمتعون بمنظره البهج ، وينفرد بعضهم ليستحم بمائه ، ويعقد البعض الآخر حول ضفافه وعلى بساط رياضه حلقات الانس والطرب ، فيستنشدون الشعراء فينشدونهم من شعرهم ، ويلتمسون المغنين فيسمعونهم من عذب انغامهم ، بينما يتروى غيرهم تحت نخيله يشربون ويعبثون[3].

العقيق وملذات اللهو فيه

ذلـك هو العقيق متنزه اهل المدينة في ايام الربيع والمطر ، فيما يقول ابو الفرج[4]. فهو بروعته وجماله المنعم الاخاذ يجذب اليه هذه الجماهير من اهل المدينة واهله ، فينتشرون على اراضيه ينعمون بالجمال الذي يحيط بهم. كل في لهوه ، فترى نفراً من المغنين اندفعوا يتغنون ، فاجتمعت عليهم نساء اهل الوادي حتى صار مراحهم كمراح الضأن. ويرى ابن عائشة ذلك ، فيلتفت الى صاحب معه ويقول :

---

١) ياقوت ٣ : ٧٠٠ Lammens – الموسوعة الاسلامية – تحت 'Akīk

٢) الاصبهاني ٢ : ١٧٣

٣) الاصبهاني ٢ : ١٢٠ ، ١٤ : ٧٦ و Lammens – الموسوعة الاسلامية – تحت 'Akīk

٤) الاصبهاني ٢ : ١٧٣

«اما والله لافرقن هذه الجماعة». ثم يأتي قصراً من قصور العقيق ، فيعلو سطحه ، ويلقي رداءه ، ويتكىء عليه ، ويغني :

هذا مقام مطرد هدمت منازله ودوره

فلا يقضي صوته حتى تحتشد النساء اليه ، فلا تبقى امرأة منهنّ الا جلست تحت القصر ، فيقول المغنون في الحلقة الاولى: «هذا عمل ابن عائشة وحده»[1].

او ترى المواكب يسير فيها ارستقراطيو ذلك البلد ، من رجال تحفّ بهم حاشيتهم ، الى نساء تحفّ بهنّ جواريهن ؟ فهنا عبدالله بن جعفر يتنقل بين حلقات المغنين يخبر هذا ويكسو ذاك[2] ، وهناك مركب سكينة وهي خارجة من قصرها بالعقيق لتغتسل بماء واديه[3].

او ترى نصيباً وكثيّراً والاحوص يركبون افضل ما يقدرون عليه من الدواب ، ويلبسون احسن ما يقدرون عليه من الثياب ، ويسيرون متنكرين. ثم يتصفحون هذه الحلقات والجماعات في العقيق ، ويرون بعض ما يشتهون ، حتى يرتفع لهم سواد عظيم فيأمونه حتى ياتوه ، واذا وصائف ورجال من الموالي ، واذا نساء بارزات ، فيسألون النزول وينزلون ، واذا كراسي موضوعة فيجلسون ، جميعاً في صف واحد ، يستمعون الى بعض الجواري وهي تغني بشعر نصيب احدهم[4].

او ترى صاحبنا عمر خارجاً اليه ، وقد واعد نسوة من قريش الى موضع فيه يتحدثن معه ، وترى بجانبه مغنيه الفريض يساعده على لهوه ، ويمسك معه بطرفه وبرديه ليظلّا على صاحباته حتى يستترن من سقوط المطر[5].

او ترى ابا السائب المخزومي ليلةً ، بعد ما وقد السامر ، يأتي صديقاً له ليستصحبه الى العقيق ، فيذهبان ويتحدثان ويتناشدان حتى يسمع ابو السائب صديقه ينشد للعرجي :

باتا باتم ليلة حتى بدا صبح تلوّح كالاغرّ الاشقر
فتلازما عند الفراق مبابةً اخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

---

١) الاصبهاني ٤ : ١١٥
٢) الاصبهاني ١١ : ٦٧ و ٢ : ١٧٢
٣) الاصبهاني ١٤ : ١٧٢
٤) الاصبهاني ١ : ١٤٢
٥) » ١ : ٦٦

فيقول: «اعده عليّ»، فيعيده. فيقول: «احسن! والله امراته طالق ان نطق بحرف غيره حتى يرجع الى بيته.» ويلاقيه احد احفاد علي، فيسلم، ويسأله: «كيف انت؟» فيقول:

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

ويلقاه آخر ويكلمه، فيردد له هذا البيت، حتى خشي السامع ان يكون به جن، وخاف عليه ان يتهوّر ببعض آبار العقيق[1]. او ترى ما هو اغرب من هذا كله طبقة خاصة من اهل ذلك الوادي سمتهم الكتب العربية باسم خاص «المخنثين»، مخنثي العقيق. وضرب برتتهم ونعوتهم او بالاحرى تخنثهم المثل حتى قيل: اي بيت من الشعر نصفه كانه اعرابي في شملته ونصفه الآخر كانه اعرابي مخنّث مفكك؟ فقيل: قول جميل:

الا ايها الركب اليمام، الا هبوا! اساتلكم: هل يقتل الرجل الحب؟

وقيل: كأن الشطر الثاني من مخنثي العقيق يتقصف تقصفاً[2]. كل في لهوه يجمعهم السرور في صعيد واحد تصدح في اكثر ارجائه انغام الموسيقى المطربة والاصوات العذبة حتى ليبدو الوادي انه بقعة خلت من كل الآلام واكتست ابهى الحلل وهنئت باحلى الاحلام.

مبرّة الغنى

ولست اعلم في كل العالم العربي الآن موضعاً يشبهه لا من حيث المنظر الطبيعي، من ماء جار فياض، وروض معشب انيق زاهر، وجنات غناء يسنه اعالي اشجارها «مرّ الرياح النواسم»، لا! فان في القناطر الخيرية على ضفاف نيل مصر ما يفوق اجمل متنزهات العالم العربي من هذا القبيل منذ عرف العرب حتى الآن، ولكنني أشير الى تلك الناحية من حياة العرب الاجتماعية والادبية فيه، الى تلك الالوان من اللهو والعبث والمرح، الى ذلك الغناء تعقد حوله الحلقات كما رايت، الى تلك المجالس الادبية يشيع فيها الناس الى ما تنتجه قرائح شعرائهم والى ما يحوكه بيان محدثيهم. ولو حاولنا التوسع قليلاً في

١) الاصبهاني ١: ٨: ١٥٦-١٥٨ ٢) الاصبهاني ٣: ١٨٢: ٧ و ٨٦: ٧ و ٩١

البحث عما يشبه العقيق الآن ، او ما كان يشبهه ، لالفينا مواضع متعددة ، ولكني اشك في اننا نقع على ما يشبهه من هذه الناحية من الحياة الادبية ، او على ما يشبه هذا الاثر الذي كان يتركه العقيق في نفوس اهليه وزواره .

لا تذكر لي دفنة انطاكية التي شبهوا العقيق بها[1] ، ولا تقل شيئاً عن لهو الرومان فيها ، وان شابهت العقيق او فاقته في مائها وحماماتها وقصورها ومتنزهاتها واشجارها من دفن وسرو ، وان اتفق اهلها وارستقراطيو الحجاز بثروتهم وكلفهم وترددهم اليها ! اقل لك ما رواه المؤرخ ممسون عن المترددين اليها : « ان شجر السرو في انطاكية كان يعرف ان يهمس بينما كان زجالها لايعرفون كيف يتكلمون »[2] . اما العقيق فلم يكن بجزير مياهه وتقابل نخله ورقة نسيمه وضروب لهوه ، يقابل بظرف نصيب وحديث ابن ابي ربيعة وشعر الاحوص وادب عائشة وسكينة بل يكاد يكون في هؤلاء وحدهم غنى عن العقيق .

ويكفي اذا شئت ان تعلم اثر هذا العقيق في نفوس شعرائهم ان تقرأ شعر ابي قطيفة فيه ، فقد زعموا انه كان اموي الهوى ، فاجلاه ابن الزبير عن المدينة ، فارتحل الى الشام ، فلم تنبه رياض الشام ومتنزهاتها عن العقيق ، واندفع ينشد حنينه اليه :

ليت شعري ! هل البلاط كمهدي والمصلى الى قصور العقيق ! [3]

وقال من قصيدة اخرى :

الا ليت شعري ! هل تغير بعدنا قباء ، وهل زال العقيق وحاضره ! [4]

وقال ايضاً :

ليت شعري ! وابن مني ليت اعلى العهد يابن قبرام
ام كمهدي العقيق ام غيرته بعدي الحادثات والايام !

الى ان يقول :

وتبدلت من مساكن قومي والقصور التي بها الآطام

---

١) لامنس – الموسوعة الاسلامية – تحت Akbik

٢) ممسون ٢ : ١٤٤

٣) الاصبهاني ١ : ١٥

٤) الاصبهاني ١ : ١٥

ثم يقول :

اقطع الليل كله باكتئاب وزفير ، فما اكاد انام
غير قومي اذ فرقت بيننا الدا ر وحادت عن قصدها الاحلام (١

وكان في العقيق ساحات تسمّى بالعرصات ، منها عرصتان قال عنهما ياقوت انهما من افضل بقاع المدينة واكرم اصقاعها وروى ان ذوي السلطان من بني امية منعوا بناء المنازل فيها صوناً لها ، وضناً بها ، وان سلطان المدينة لم يكن يقطع بها قطيعة الا بامر الخليفة[٢].

وقال بعض المدنيين في احدى عرصات العقيق.

وبالعرصة البيضاء ، اذ زرت اهلها ، بها مهلات ما عليهنّ سانس
خرجن لحبّ اللهو ، من غير ريبة ، عفائف ، باغي اللهو منهن آنس
يردن ، اذا ما الشمس لم يخش حرها ، خلال بساتين خلالهن يابس
اذا الحر آذاهن ، لذن بجرّه ؛ كما لاذ بالظل الظباء الكوانس (٣

وكان في الحجاز مواسم غير موسم المطر والربيع في عقيق المدينة، منها موسم المصيف في الطائف ، فلننتقل اليه.

الطائف

ولقد كانت الطائف ، احدى المدن الثلاث التي كان يعيش فيها ، او يتردد اليها ، ابن ابي ربيعة ، حتى زعموا انه كان من اعلم الناس بامورها ، وروروا انه لما قدم الوليد بن عبد الملك مكة ، سأل عن رجل له علم باموال الطائف ، فقالوا : عمر بن ابي ربيعة ، قال : لا حاجة لي به. ثم عاد فسأل ، فذكروه له ، فردّه . ثم عاد فسأل ، فذكروه ، فقال: هاتوه ، فركب معه يحدثه[٤] .

الطائف مصيف

وتقع الطائف الى الجنوب الشرقي من مكة على نحو خمسة وسبعين ميلاً[٥]،

١) الاصبهاني ١ : ١٥ ٢) ياقوت ٣ : ٦٤١
٣) ياقوت ٣ : ٦٤٣ ٤) الاصبهاني ١ : ٥٠ و ٣ : ١٤٥ و ٥ : ٢١٤
٥) بركهارت ٦٦ ويذكر مراحل النهار ، وهو احد اعضاء البعثة العلمية الى الحجاز في ربيع سنة ١٩٣٤، في جريدة النهار عدد ٢٤٤ تاريخ ٦ حزيران سنة ١٩٣٤، ان المسافة ١٤٠ كيلومتراً.

وترتفع عن سطح البحر نحو خمسة الاف واربعمئة قدم[1] . وقد اتخذها اشراف الحجاز في ذلك العصر مصيفاً لهم ، كما لا يزالون يفعلون في هذا العصر . ذكر فيلبي انه في زيارته لها آخر الحرب الكبرى رأى الكثيرين من اعيان مكة ونبلائها يصيفون فيها ، بحيث قال : ان عدد سكانها في الصيف بلغ العشرين الفاً ، بينما لا يتجاوز عدد سكانها الخمسة الاف[2] . وهي خير مصيف ، فمناخها جميل وهواؤها عليل وماؤها عذبٌ جارٍ واشجارها كثيرة واثمارها وفواكهها طيبة متنوعة ، ففيها العنب والتين والرمان والمشمش والتفاح والدراقن والسفرجل والموز وغيرها من الفواكه[3] . وفيها وفي جوارها مزارع كثيرة وحقول خضراء يقع بعضها على الطريق بينها وبين مكة[4] . ويقول بركهارت عن بعض هذه المزارع : انها اجمل بقعة في الحجاز ، وابهج موضع شاهده في طريقه الى الحجاز بعد تركه لبنان[5] .

ويقول ياقوت عنها : « انها ذات مزارع ونخل واعناب وموز وساير الفواكه ، وبها مياه جارية وادية تنصبّ منها الى تبالة . » ثم يقول : « وفي اكتافها كروم على جوانب ذلك الجبل ، فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان ، واما زبيبها فيضرب بحسنه المثل ، وهي طيبة الهواء شامية ، ربما جمد فيها الماء في الشتاء ، وفواكه اهل مكة منها »[6] .

ولعل القارئ لا يزال يذكر ما روينا عن بيادر الزبيب التي رآها فيها سليمان ابن عبد الملك ، وقد روي انه قال : « لله در قيمي باي ارض وضع سهامه واي ارض مهد عشّ فروخه »[7] . وروي ايضاً انه دخلها هو ونفر معه ، فرأى بستاناً

---

١) لامنس – في الموسوعة الاسلامية – تحت Ṭāʾif ٢) فيلبي ١٩٢

٣) ياقوت ٣ : ٤٦٥ وفيلبي ١٩٢ وفي كتابه يذكر اكثر هذه الاثمار ويشير الى محلها اللذيذ .

٤) ياقوت ٣ : ٤٦٥ وبركهارت ٦٥ و٦٦ والفاكهي ٢ : ٧٦

٥) بركهارت ٦٥ وفيه يقول : « The village and neigborhood of Ras el Kora is the most beautiful spot in the Hedjaz, and more picturesque and delightful than any place I had seen since my departure from Lebanon in Syria. »

٦) ياقوت ٣ : ٤٦٦ ، ٧) ياقوت ٣ : ٤٦٧ .

لعمرو بن العاص، فجال فيه ساعة، ثم قال: « ناهيكم بما لكم هذا مالاً »[1].

وفي بعض الاساطير العربيـة ان الطـائف كانت قرية بالشام فنقلت الى الحجاز[2].

في هذه البلدة ـ كما اشرنا ـ كانت تصيف اشراف الحجاز من اهل مكة والمدينة[3]. وقـد ابتنى بعضهم دوراً او قصوراً يقضون فيهـا فصل الصيف. ذكروا ان معاوية كان يقول اغبط الناس عيشاً مولاي سعد. وكان يلي اموالـه بالحجاز، ويتربع جدة، ويتقيظ الطائف، ويشتو بمكة[4].

وقـد كانت زينب بنت يوسف ـ اخت الحجاج ـ فيما يظهر من شعر النميري، تشتو بمكة، وتصيف بالطائف[5].

وكانت عائشة بنت طلحة بعد ان تأيمت تخرج الى مال لها عظيم بالطائف وقصر كان لها هناك فتتنزه فيه، وتجلس بالعشيات، فيتفاضل بين يديها الرماة[6].

وكذلك كانت الثريا صاحبة عمر تصيف بالطائف[7]. وقد كلفته ذات مرة عناء عظيماً تكبده في سيره اليها من مكة، وقد احتالت على استقدامه اليها بطريقة سنعرض لها في حينها[8]. وكان عمر اذا لم يستطع زيارتها يغدو كل غداة على فرسه، يسأل الركبان الذين يحملون الفاكهة من الطـائف الى مكة عن الاخبار قبلهم[9]. حديثه او حديث عنه!

الطائف موطن لهو

وكانت الطائف قبل الاسلام، فيما يظهر من بعض المصادر، بلد فجور وفسق حتى زعموا ان النبي عندما صالح اهلها اشترط عليهم ان لا يزنوا ولا يربوا. ويقول

---

١) ابن عبد ربه ٣: ٢٨٥ ٢) ياقوت ٣: ٥٠٠

٣) لامنس ـ الموسوعة الاسلامية ـ تحت Ṭā'if ويذكر ان الطائف بعد الفتوحات الاسلامية والتوسع صارت تابعة لمكة، واديل من كلا البلدين، وحطّ من مكانتهـا وصارت الزعامة والسنة والرخاء في المدينة، غير ان اهل الطائف استطاعوا بمتهم ان يحملوا من جبالهم معيناً ليس للسكين فحسب، بل لاهل المدينة ايضاً، وبهذا اقالوا من عثرة بلدهم، ورفعوا من شأنها.

٤) ياقوت ٣: ٥٠٠ ٥) ياقوت ٣: ٥٠٠ وابن خرداذبه ١٢٤

٦) الاصبهاني ٦: ٣٠ ٧) الاصبهاني ١: ٨٩ والبغدادي ١: ٢٢٨

٨) الاصبهاني ١: ٨٥ ٩) الاصبهاني ١: ٨٥ -

ياقوت: وكانوا اهل زنا وربا[1]. وربما كان اهلها ايضاً اصحاب شراب لان ارضهم كثيرة الكرمة، وقد عرف عن بعضهم ذلك[2].

هذا، وقد كانت بعيدة الى حدّ ما عن انظار العمال والولاة في المدينة او مكة بعد الاسلام بحيث استطاع من يرغب في اللهو ان يمارسه بعيداً عن اعين الرقباء، وقد كان بعدها داعياً الى ان تكون مركزاً لهؤلاء الذين يُنفون من مكة والمدينة، او الذين يهربون من غضب سلطان بني امية وغيرهم. والرواة يحدثوننا ان الفريض المغني التجأ اليها مدةً حينما بعث اليه الحارث بن خالد المخزومي يقول: لا ارينك في عملي[3]. وان ابن الزبير في خلافته نفى عبد الله ابن عباس اليها فتوفي فيها[4]، ونفى اليها ابا العباس الشاعر الاعمى الاموي الميل[5]. وان سليمان بن عبد الملك منع ابن ابي ربيعة من الحج ذات مرة واخرجه اليها[6]. وان الوليد بن يزيد اخرج يزيد بن ضبة الى الطائف وسوغه ما له هناك ليبعده عن هشام بن عبد الملك، خوفاً من ان يفتك به، وسماه طريد الاحول، يعني طريد هشام[7].

ومن الناس من اتخذ مختاراً فيها لمدة ما، كما فعلت سكينة بنت الحسين حين غاضبت زوجها زيد بن عمرو[8].

ومهما يكن من الامر كله، فاننا نرى ان بعدها عن اعين الرقباء في ذلك العصر، مع ما احاطها وتتذاك من الظروف التي ذكرنا، يسّر لبعض اهل اللهو ان يمارسوه فيها، وغلا بعضهم في لهوه حتى عرف الفسق فيهم وليس ادل على هذا من حياة العرجي الشاعر احد حفداء الخليفة عثمان بن عفان، ويكفي ان تقرأ سيرته في الاصول المختلفة لتدرك ما نذهب اليه؛ وقد صدر شعره يمثل هذه الناحية من حياته اقوى تمثيل[9].

---

١) ياقوت ٣ : ٥٠٠
٢) ياقوت ٣ : ١٩٢ و ٦ : ٥٨
٣) الاصبهاني ٣ : ١٠٦
٤) اليعقوبي ٢ : ٢١٣
٥) » ٥ : ٦٣
٦) المرزباني ٣٠٢ والاصبهاني ٨ : ٥٨ و ١٠ : ٦١
٧) الاصبهاني ٦ : ١٤٦–١٤٧
٨) الاصبهاني ١٢ : ٩٣
٩) اصبهاني ١ : ١٥٢–١٦٦

مكة ومواسمها

ولم تكن مكة، وهي البلدة التي عاش فيها صاحبنا اكثر حياته، وعاش فيها آباؤه واجداده من قبله؛ اقل حظاً في هذه الناحية من المدينة والطائف. تقع مكة في قلب الحجاز، في منخفض من الارض تحيط به بعض التلال. وكانت لانخفاضها عرضة لمياه السيول التي تتحدر من التلال حولها، ومن هنا نرى ان تاريخ مكة تكثر فيه اخبار السيول لاسيما تلك التي كانت تقع ايام الحج. وقد جاء سيلٌ عام ثمانين سمي بسيل الجحاف دخل المسجد، واحاط بالكعبة، وهدم الدور والشوارع على الوادي، فقتل الهدم ناساً كثيراً. ورقي الناس في الجبال واعتصموا بها، وقال بعضهم واصفاً خروج المخبئات يرقين الجبل:

لم ترَ عيني مثل يوم الاثنين اكثر عزوناً وابكى للعين
اذ خرج المخبئات يمين سوائداً في الجبلين يرقين (١

وربما، لولا قلة الامطار، ولولا وجود الكعبة في بطن المنخفض، لكانت الناس هجرت بطن مكة واستقرت في اعاليها.

ومناخ مكة حار، ولهذا كان يلجأ الى مكة جماعات كثيرة من اهل الحجاز، ممن جاور مكة، او ممن كانوا بعيدين عنها كاهل الطائف او اهل المدينة، ايام الشتاء. فيتخذونها مشتى لهم بعد ان يكون بعضهم قد قضى صيفه في الطائف.

نشتو بمكة نسة ومصيفها بالطائف (٢

وقال عمر في احدى صاحباته:

بالمحصب منزلها ومكنها وظل مكة، ان شتت، قصرا (٣

وكان سعد مولى معاوية يشتو كذلك بمكة ويتقيظ الطائف(٤

ولا يخفى ان الكعبة بنيت قبل الاسلام، في ذلك المنخفض، وان عائلات

١) الازرقي ١ : ٢٦٥-٢٦٦
٢) ياقوت ٣ : ٥٠٠ وابن خرداذبه ١٣٤
٣) ابن ابي ربيعة (ش) ٢٦
٤) ياقوت ٣ : ٥٠٠

كثيرة من قريش استقروا حولها ، ويعرفون بقريش البطاح بينما يعرف الذين استقروا في ظواهر مكة بقريش الظواهر .

وقد كان للبلدة تاريخ تجاري عظيم الشأن ، وكان لاهلها رحلات تجارية ، شتوية وصيفية أشار الى بعضها القرآن : « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هـذا البيت الـذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ».[1]

وكانت تذهب القوافل الى مختلف الجهات حولها ناقلة بضائع القطر الواحد الى القطر الآخر ، بحيث كانت تبلغ بعض القوافل نحو الفين وخمس مئة جمل ، ويكون فيها ما بين المئة والثلاث مئة رجل[2] ، وكانت بعض بضائع الهند والصين واليمن والحبشة من محمولها حتى اذا ما وفدت بهذه البضائع الى سوريا ، عادت حاملة بضائع بلاد البحر المتوسط من قطن وثياب مصبوغة وسلاح وحبوب وزيت[3] .

وكان من اعظم تجارها قبل الاسلام ، وفي صدره ، عبد الله بن ابي ربيعة والد صاحبنا عمر . وسنعرض للبحث في غنى هذا البيت عند تصدينا لدرس حياة عمر . والذي يهمنا الآن ان هذه الحياة التجارية قد انمت ثروة المكيين ، ورفعت من شأن بلدهم ، بحيث استطاع الاب لامنس ان يقول في مقالته في الموسوعة الاسلامية عن ثروة مكة ، مؤيداً ونكلر في انها تقابل بثروة تدمر ، ما نصه :

« The 30,000 dinars invested by the one house of Abū Uhaiha in the Badr caravan suggests that H. Winckler is quite right when he tells us to think of the Palmyra of Zenobia if we wish to get an idea of the financial capacity of Mecca ».[4]

ولقد اخذت مكة بسبب آخر ساعد على انماء ثروتها ، هو وجود الكعبة فيها ، وكانت محجاً لكثير من العرب قبل الاسلام . ولحسن حظ مكة اقر

---

١) القرآن – قريش – ١٠٦

٢) لامنس – الموسوعة الاسلامية – تحت Mecca

٣) « « « « « « «

٤) « « « « « « «

الاسلام هذا الحج، على وجه خاص، وبشروط خاصة، بحيث كان القيام به امرًا واجباً على كل من استطاع اليه سبيلًا. ومع ان المدينة قد انتزعت الزعامة من مكة فصارت مركزًا للخلفاء الاول ، وانتقلت اليها جماعات كثيرة من زعماء مكة واغنيائها، فان مكة بقيت صاحبة الحق في ان تكون اليها الحجة، وان يكون اليها مجتمع الحجيج من مختلف الاقطار ، فاستعاضت بهذا عن بعض ما فقدته في تحول مركز السيادة الى المدينة.

مواسم الحج

نريد ان نصل من هذا كله الى الالتفات الى هذه المواسم — ايام الحج — التي كان لها اثر كبير في الحياة الاجتماعية في مكة ، وبالتالي في الحياة الادبية عند اكثر الشعراء الذين كانوا يشهدونها ، وبنوع خاص في حياة صاحبنا وشعره.

ولا يهمني في هذا الصدد درس تاريخ هذه المواسم ومنشئها ، ولا التعرض الى ذكر الشعائر الدينية التي كانت تقام فيها ، وكيف كانت تقام ، وجلّ ما اقصده هو التوصل الى كيف استغلّ طلاب اللهو من شباب الحجاز ، فتياناً وفتيات هذه المواسم ، فرحوا ما امكنهم المرح وطربوا ولهوا وعبثوا .

قال ابن فضل الله العمري في ايام منى: «منى حيث ترمى الجمرات ، وتهمل العبرات ، ذوات الليالي المقمرات ، والايام التي سلخ من الكافور ثياب عشاياها المقبرات ، يحلى بها من كل ترب عاطله، ويلتقي في كل سرب كل ذي دين وعاطله، فيها مجمع الحجيج ، والمحصب منها موضع الجمرات ، يجتمع فيها الخليطان ايام الموسم ، من شام ويمن ، وكانت في قديم الاسلام موسم لقاء الحبائب، ومكان موعد كل مفارق . وثلاث ليالي منى معروفة موصوفة ، قد اكثر فيها الشعراء وترنم بها المتيمون.»[1]

---

١) العمري ١١٥

الشباب يتصدون للمرأة في الحج

وكان يحتشد في هذه المواسم خلق كثير من مختلف الاقطار التي خضعت للدولة العربية ، وكان اختلاط عظيم سهل لطلاب اللهو سبيلهم ، رووا ان ابن ابي ربيعة شاعرنا « كان يقدم ويتسمر في ذي القعدة ، ويحل ويلبس تلك الحلل والوشي ، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لمته ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات ، ويتلقى المدنيات الى مرو ، والشاميات الى الكديد .»[1] وقد ذكروا عنه كما سنرى قصصاً كثيرة عن تعرضه للحجّاج ، او مواكبته لبعضهم ، ومرافقته اياهم حتى يفرغوا من طوافهم وينقضي الحج وتفترق الركبان ، فيشيعهم ويعود لينشد الاشعار في صاحباته وقد ربط مع بعضهن عهود الحب ، او ضرب مع البعض الآخر مواعيد اللقاء ، فما ينقضي لمره حتى تعاوده ذكريات الحج فينشد شعره فيها ، وهو يتشوّق الى الموسم الجديد حين يعود الى سابق امره .

وكثيراً ما كان يتعرض بعض الشبان الى النساء في الحج دون ان يكون لهم بهن سابق عهد او معرفة[2] . روى ابو الفرج ان احدهم رأى امرأة جميلة من تضاعة تسير مع رفقة الى مكة في الموسم ، فصحب قومها وكان يسايرها ويحادثها ، ثم خطبها الى نفسها ، فقالت : لا سبيل الى ذلك ، لانك لست لي بكفء ولا جار في بلدي ، ولا انا ممن تطمعه رغبة عن بلده ووطنه فلم يزل يحادثها ويسايرها حتى انقضى الحج ففرق بينها نزوعها الى اوطانها[3] .

وكان العرجي يتصدى للنسائيات في المواسم مثل عمر ، وقد قال في احداهن :

اماطت كساء الخز عن حرّ وجهها ، وادنت على الخدّين بردًا مهلهلا

---

١) الاصبهاني ١ : ٨٨

٢) الدميري ١ : ٢٢٦ والاصبهاني ١ : ٢٧ و٦٥

٣) الاصبهاني ١٤ : ١٥٣

من اللاء لم يحججن يبغين حسبةً ، ولكن ليقتلن البريء المغفلا

. . . .

صريع الهوى ، لا يبرح الحب قائدي بشر ، فلم اعدل عن الشعر معدلا
لدى الجمرة القصوى ، فريت وهلّت ، ومن ريع في حجّ من الناس هلّلا (١)

ذكر ابو الفرج باسناد قال: « قال عبيد الله بن عمر العمري: خرجت حاجاً ، فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام رفثت فيه ، فادنيت ناقتي ، منها ثم قلت لها: يا امة الله ، الست حاجة ، اما تخافين الله ؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسناً ، ثم قالت: تأمل يا عمي ، فاني ممن عنى العرجي بقوله :

من اللاء لم يحججن يبغين حسبةً ولكن ليقتلن البريء المغفلا

قال: فقلت لها فاني اسأل الله ان لا يعذب هذا الوجه بالنار. قال: وبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال: اما والله لو كان من بعض بغضاء اهل العراق لقال لها اعزبي قبحك الله ولكنه ظرف عبّاد الحجاز(٢)

وللعرجي هذا في احداهن واصفاً لقاءه بها ايام الحج :

ما نلتقي الا ثلاث منى حتى يفرق بيننا النفر
الحول بعد الحول يتبعه ما الدهر الا الحول والشهر (٣)

ومهما يكن من امر هذه المواسم فالمحقق لدينا من شعر شعراء ذلك العصر ان النساء كنّ يمارسن اكثر هذه الطقوس الدينية في مواسم الحج مع الرجال ، وكانت الرجال تنتهز هذه الفرص للتعرض الى النساء فيتعرفون بهن ويتحدثون معهن سواء اكان وقت الطواف والعمرة او بعد الفراغ منهما وان كثيراً من هذا الشعر الذي تحدّر الينا من ذلك العصر والذي دار على الغزل، واقتصر على المرأة قد انتجته هذه المواسم التي ذكرنا وبالاخص موسم الحج ، حتى زعموا ان البعض من شباب الطبقة الارستقراطية في ذلك العصر لم يقصدوا من الحج وحضور تلك المواسم الا مقابلة المرأة والتعرض لها. قال العرجي :

١) الاصبهاني ١٧ : ١٣٠
٢) الاصبهاني ١٧ : ١٣٠-١٣١ و ١ : ١٦١
٣) الاصبهاني ١ : ١٦٣

اني اتيحت لي يمانية احدى بني الحارث بن مذحج
تلبث حولاً كاملاً كله لا تلتفي الا على منهج
في الحج، ان حجت، وماذا مني واهله، ان هي لم تحجج (١)

وكان لا بدّ من ان تتعرض المرأة امام نظر الرجل عند قيامها ببعض هذه الطقوس، وبنوع خاص عند استلام الركن او الحجر الاسود، حيث يكثر الزحام ويتدافع الناس لكي يصلوا اليه(٢)، ومع ان الازرقي يذكر ان عطاء ابن ابي رباح رأى امرأة تريد ان تستلم الركن، فصاح بها وزبرها، وقال: غطي يديك لا حقّ للنساء في استلام الركن(٣)، فاننا نرى في الباب نفسه، بل وفي القصة نفسها ايضاً، ما يفيد ان المرأة كانت تستلم الركن(٤). وروى ابو الفرج قال: «بينما عمر ابن ابي ربيعة يطوف بالبيت، اذ رأى عائشة بنت طلحة ابن عبد الله، وكانت من اجمل دهرها، وهي تريد الركن تستلمه، فهبت لما رآها، ورأته وعلمت انها قد وقعت في نفسه، فبعثت اليه بجارية لها وقالت: قولي له اتق الله ولا تقل هجراً فان هذا مقام لا بدّ فيه مما رأيت». فقال للجارية: اقرئيها السلام وقولي لها: ان عمك لا يقول الا حسناً(٥).

وقيل في موضع ثانٍ ان عمر لم يزل ينسب بعائشة ايام الحج، ويطوف حولها، ويتعرض لها، وهي تكره ان يرى وجهها، حتى وافقها وهي ترمي الجمار سافرة فنظر اليها، فقالت: اما والله لقد كنت لهذا منك كارهة يا فاسق. فقال:

اني واول ما كانت بذكرها عجب، وهل في الهوى من متعجب
نبئت النساء فقلت لست بمبصر شيئاً لهنّ ابداً ولا بمقرب
فتكلمن حيناً ثم قلن توجهت للحج موعدها نساء الاخشب
اقبلت انظر ما زعمن وقلن لي، والقلب بين مصدق ومكذب
فلقيتها تمشي تهادى موهناً ترمي الجمار عشية في موكب
غرّاء يبهي الناظرين بياضها حوراء في غلوائها عين مجيب (٦)

ورووا ان رقية بنت عبد الواحد بن ابي سعد العامرية احدى محبوبات

(١) الاصبهاني ١ : ١٦٣
(٢) الازرقي ١ : ٣٤٦
(٣) الازرقي ١ : ٣٤٠
(٤) » ١ : ٣٤٠
(٥) الاصبهاني ١ : ٧٩-٨٠
(٦) الاصبهاني ١ : ٨٠-٨١

عبيد الله بن قيس الرقيات حجت. فطافت ليلة بالبيت ثم اهوت ، لتستلم الركن الاسود وتقبله ، وقد طاف عبيد الله بن قيس الرقيات ، وقد مولى عائشة بنت سعد بن ابي وقاص ، فصادف فراغها فراغها ، فاهوى ابن قيس يستلم الركن الاسود ويقبله ، فصادفها قد سبقت اليه فنفحته بردنها فارتدع، وقال لمن: من هذه ؟ قال: أوَ لا تعرفها ؟ هذه رقية بنت عبد الواحد . فقال ابن قيس :

من عذيري ممن يضنّ ببذو ل لنيري عليّ عند الطواف

قالوا ولما نفحته بردنها فاحت منه رائحة المسك حتى عجب من في المسجد وكانما فتحت في المسجد لطيمة عطار ، وفي هذا يقول ابن قيس ايضاً :

سائلا فندًا خليلي كيف اردان رقيّه (١

ويذكر المسعودي انه بلغ خالدًا القسري (وهو والي مكة اواخر القرن الاول للهجرة) قول الشاعر :

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مشهد
وحبّذا اللاتي يزاحمنا عند استلام الحجر الاسود

فقال خالد : اما انهن لا يزاحمنك بعد هذا ابدًا ، ثم امر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف(٢).

واذا لاحظنا ان خالدًا هذا كان والياً على مكة بعد ٩٢ هـ. ادركنا ان القرن الاول للهجرة — اذا صحت هذه الرواية — كاد ينسلخ، والرجال والنساء يطوفون معاً، والغريب ان خالدًا هذا كان — فيما سنرى عند درسنا اصدقاء عمر — رسولاً بين عمر وبين بعض صاحباته : ولعبيد الله في الثريا صاحبة عمر:

حيذا الحج والثريا ومنْ بالخيف من اجلها وملقى الرحال
يا سليمان ان تلاقِ الثريا تلق عيش الخلود قبل الملال (٣

ولنصيب الشاعر ولكثير ولجميل وللاحوص وللحارث اشعار في هذه المواسم ، ليس هنا موضع ذكرها ، فلتراجع في مظانها.

---

١) الاصبهاني ٤ : ١٦٥-١٦٦ ٢) المسعودي ٥ : ٢١٦-٤٠٠
٣) الاصبهاني ١ : ٨٥

مواكب الشريفات من نساء ذلك العصر

والمهم ان نعلم ان النساء كنّ يدركن اهمية هذه المواسم عند هذا النفر من شبان العرب الارستقراطيين ، فكنّ يلبسن لها احسن الثياب ويتزين احسن الزينة وكانت الشريفات منهن يقدمن الى الحج بمواكب تستلفت الانظار تحفهن الجواري ذات اليمين وذات الشمال، ذلك كان شأن عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وفاطمة بنت عبد الملك وعاتكة بنت يزيد بن معاوية ،وقريباً من ذلك كان شأن الكثيرات من شريفات ذلك العصر من حجازيات هاشميات او شاميات امويات او عراقيات عربيات ، وكن يتبارين في هذا الظهور روى ابو الفرج قال: استأذنت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عبد الملك في الحج فاذن لها وقال: ارفعي حوائجك واستظهري، فان عائشة بنت طلحة تحج ففعلت فجاءت بهيئة جهدت فيها فلما كانت بين مكة والمدينة ، اذا موكب قد جاء فضغطها وفرق جماعتها فقالت: ارى هذه عائشة بنت طلحة فسألت فقالوا: هذه خازنتها. ثم جاء موكب آخر اعظم من ذلك فقالوا: عائشة ، عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه فقالوا: هذه ماشطتها ، ثم جاءت مواكب على هذا اي سننها ، ثم اقبلت كركبة فيها ثلاثة راحلة . عليها القباب والهوادج ، فقالت عاتكة: ما عند الله خير وابقى[1].

وروي ايضاً ان عائشة حجت ذات مرة ، ومعها ستون بغلاً عليها الهوادج والوسائل ، فعرض لها عروة بن الزبير فقال :

عائشَ يا ذات البغال الستين اكل عام هكذا تحجين

فارسلت اليه: نعم يا عُرَيَّة . فتقدم ان شئت ، فكفّ عنها[1].

وروي ايضاً انها حجت وسكينة بنت الحسين معاً ، وكانت عائشة احسن موكباً وتقلاً ، فقال حاديها :

عائشَ يا ذات البغال الستين لا زلت، ما عشت، كذا تحجين

فشق ذلك على سكينة ، ونزل حاديها فقال :

عائشَ هذه ضرّة تشكوك لولا ابوها ما اهتدى ابوك (١

---

١) الاصبهاني ١٠ : ٦٠

بعض النساء يرغبن في ان يذكرن في الشعر

وكان بين مواكب الحاجات من ترغب في ان ترى وتمدح، فكنّ لا يكدن يرجعن من الحج حتى تطير ابيات الشعراء في اطرائهنّ ومدحهنّ والتشبب بهنّ حتى لقد روى الرواة ان بعضهن كنّ يغضبن اذا لم يسمعن ان الشعراء قد شبّبوا بهن واطروهن وذكروا من محاسنهنّ ، قال ابو الفرج: ان بنتاً لعبد الملك حجت فكتب الحجاج الى ابن ابي ربيعة يتوعده ان ذكرها في شعره بكل مكروه ، وكانت تحب ان يقول فيها شيئاً ، وتتعرض لذلك ، فلم يفعل خوفاً من الحجاج ، فلما قضت حجها خرجت ، فمرّ بها رجل ، فقالت له : من اين انت ؟ قال : من اهل مكة . قالت : عليك ، وعلى اهل بلدك لعنة الله . قال : ولِمَ ذلك ؟ قالت : حججت ، فدخلت مكة ، ومعي من الجواري ما لم ترَ الاعين مثلهن ، فلم يستطع الناس غير ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره ابياتاً نلهو بها في الطريق في سفرنا . قال : فاني لا أراه الا قد فعل . قالت : فاتنا بشيء ان كان قاله ، ولك بكل بيت عشرة دنانير ، فمضى اليه ، فاخبره ، فقال : لقد فعلت ، ولكن احب ان تكتم عليّ ، قال : افعل . فانشده قصيدته :

راع الفؤاد تفرق الاحباب يوم الرحيل فهاج لي الاوصابا

وانشده قصيدة اخرى ، فعاد اليها الرجل ، فانشدها هاتين القصيدتين ، فدفعت اليه ما وعدته به[1] .

ولعمر فيها ، وفيه اشارة الى خوفه من الحجاج :

كدت يوم الرحيل اقضي حياتي ليتني متّ قبل يوم الرحيل
لا اطيق الكلام من شدة الخو ف ودمعي يسيل كل مسيل[2]

الشعراء يرضون النساء

وكان الشعراء يعنون في ان يرضوا هؤلاء النساء . رووا ان عائشة بنت

١) الاصبهاني ٢ : ١٣٨ ٢) الاصبهاني ١ : ٧٨

طلحة حجت ، وكان الشاعر الحارث بن خالد المخزومي والياً على مكة لعبد الملك بن مروان ، وكان يهواها ، فارسلت اليه : اخر الصلاة حتى افرغ من طوافي . فامر المؤذنين ، فاخروا الصلاة ، حتى فرغت من طوافها ، وانكر اهل الموسم ذلك . هي تحج والناس تضج ، وهو لا يأبه لهم ، ولما بلغ الامر عبد الملك بعث اليه بعزله وأدّبه . فقال : ما اهون والله غضبه وعزله اياي عليّ عند رضاها عني[1] .

الغناء في الحج

ويحدثنا الرواة انه قد كانت تعهد في هذه المواسم سبلُ الطرب ، فهم يروون لنا ان الفريض المغني كان يعترض الحجاج بصوته ، وهم في حجهم ، فيصغون اليه[2] . وانه غناهم مرة :

اجا الرائح المجدّ ابتكارا قد قضى من تلعة الاوطارا

فاطرب الناس ودهشهم ، فقالوا : طائفة من الجنّ حجاج[3] . وهم يحدثوننا ان ابن عائشة كان واقفاً في الموسم متحيراً ، فمرّ به بعض اصحابه ، فقال له : ما يقيمك هاهنا ؟ فقال : اني اعرف رجلاً لو تكلم لحبس الناس هاهنا ، فلم يذهب احد ولم يجيء ، فقال له الرجل : ومن ذاك ؟ قال : انا . ثم اندفع يغني :

جرتْ سنحاً فقلت لها اجيزي نوى مشمولة فمتى اللقاء

قال : فحبس الناس ، واضطربت المحامل ، ومدّت الابل اعناقها ، وكادت الفتنة ان تقع[4] . وهم يحدثوننا ان الابجر كان يقف بين المأزمين ، فيرفع صوته ، فيقف الناس له يركب بعضهم بعضاً ، وانه جلس في ليلة اليوم السابع من ايام الحج على قريب من التنعيم[5] ، فاذا عسكر جرّار قد اقبل في آخر الليل ، فاندفع يغني :

عرفت ديار الحي خالية قفرا . . . . . .

---

١) الاصبهاني ١٠ : ٦١ ٢) الاصبهاني ٢ : ١٣٠
٣) » ٢ : ١٣٠ ٤) » ٢ : ٦٤
٥) موضع بمكة . راجع طبعة دار الكتب للاغاني ٣ : ٢٤٦

فلما سمعه من في القباب والمحامل ، امسكوا ، وصاح صائح : ويحك اعد الصوت[1] . وهم يحدثوننا ان ابن سريج كان يغني من اخشب منى غداة النفر ، فيتردد الانين والحنين من الاخبية والمضارب[2] .

ولقد بلغ اللهو والغناء ايام الموسم مبلغاً ليس بيسير بجيث ان هشام بن عبد الملك امر الوليد بن يزيد ان يحج عاماً من الاعوام ليهتكه عند اهل الحرم، فيجد السبيل الى خلعه ، ورووا انه قد ظهر من الوليد اكثر مما اراد به هشام[3] .

وتردد الفرزدق الى الحجاز ، وشهد هذه المواسم ، فاتبع بعض سبل اللهو فيما يروون ، وقد استغل هذا جرير في هجوه له في اكثر من قصيدة . وقد قال رادًّا على قصيدة الفرزدق التي مطلعها :

« عرفت المنازل من مهدد »

زار الفرزدق اهل الحجاز فلم يحظَ فيهم ولم يحمد
واخزيت قومك عند الحطيم وبين البنيين والمرقد
وجدنا الفرزدق بالموسمين خبيث المداخل والمشهد[4]

وقال الفرزدق قصيدةً يمدح فيها هشاماً ويهجو جريرًا مطلعها :

الم تعاتبين بنا لتا ترى البرصات او اثر الخيام

ثم توصل الى وصف ناقته فقال فيها :

الا تلفتين ، وانت تمني ، وخير الناس كلهم امامي
متى تردي الرصافة تستريحي من التهجير والدبر الدوام

فقال جرير يرد عليه ، ويبتدع له سبباً لهذا التلفت :

تلفتُّ اخا تحت ابن قين حليف الكير والنفس الكهام
متى ترد الرصافة تخزَ فيها كخزيك في المواسم كل عام[5]

ولم يفت الاحوص اذا حج ان يتبع بعض سبل اللهو ، وقد ذكر شيئاً عن عبثه ليلةً بمنى في شعر رفعه الى المغنين[6] .

---

١) الاصبهاني ٣ : ١١٥-١١٦
٢) الاصبهاني ١ : ١١٥
٣) الاصبهاني ٣ : ١١٦
٤) جرير والفرزدق ٢ : ٧١٨
٥) جرير والفرزدق ٢ : ١٠١٦ والبيتي ١ : ١٠٠
٦) الاصبهاني ١ : ٦٠

وليس خافياً ، بعد كل ما ذكرنا ، اثر هذه المواسم في حياتهم الاجتماعية والادبية ، وسنرى ان عمر لم يفته ان يخلد في شعره شيئاً من صورة تلك الحياة البهجة زمن المواسم في الحجاز ، وهو القائل فيها :

فلم ارَ كالتجمير منظر ناظر ولا كليالي الحج افتن ذا هوى (١)

وهو القائل ايضاً في عائشة بنت طلحة :

اني واول ما كلفت بحبها عجب وهل في الحي من متعجب
نعت النساء فقلت لست بمصر شبهاً لها ابداً ولا بمقرّب
وتقد تركن حزازة في قلبه منها بحق او حديث المعرب
فكتمن حيناً ثم قلن توجهت للحج موعدها لقاء الاخشب
اقبلت انظر ما زهين وقلن لي والقلب بين مصدق ومكذب
فلقيتها تمشي تخادى موهناً ترمي الجمار عشية في موكب
غراء يمشي الناظرين بياضها حوراء في غلواء عيش معجب (٢)

وقال في احدى صاحباته :

حي الرباب وترجما اسماء قبل ذهابها
ارجع اليها بالذي قالت برجع جوابها
عرضت علينا خطة مشروقة برضابها
وتدلت عند التاب فرحباً بمتابها
تبدي مواعد جمة وتضنّ عند ثوابها
ما نلتقي الّا اذا نزلت منى بنبابها
في النفر او في ليلة الـ تحصيب عند حصابها (٣)

ولعلّ الرواة قصدوا الى ان يميّزوه بسبب بعض هذه الآثام التي كان يرتكبها ايام الحج ، فزعموا انه رأى امرأة بالطواف ، فذكرها بشعره ، فدعت عليه فمات في دعوتها فيما يزعمون !

---

١) ابن ابي ربيعة (ع) ١٦ وفيه افتن في موضع افتنّ
٢) عمر الديوان مصر (٣٤) ٣) عمر الديوان مصر (٥١)

سُوقي على المسرح

شوقي والتاريخ

تلخيص رواياته — موقفه من التاريخ

بقلم ادوار حنين

شوقي ، امير الشعر بالامس ، هو امير الشهرة اليوم. يكاد لا يخلو القطر العربي اجمع ممن يلهج باسمه ، او يتغنى بشعره . ولهذه الشهرة اسباب متنوعة نخص اهمها بالذكر فنقول : ان شوقي نظم المدائح في اعاظم الرجال من ملوك وامراء وسراة فعرفه الرجال العظام ؛ وقال المراثي في شخصيات بارزة محبوبة فسارت بين الخاصة والعامة . ثم انه لم يدع حادثة مهمة تحدث الا بعث فيها قصيدة تشير سير الحادثة في المجتمعات والاندية وعند الافراد . وقد عرف الصغار اليه ببعض قصائد اودعها حكايات ذات مغاز وعبر عرب معظمها عن شاعر الافرنج المشهور لافونتين. ولم يقف عند هذا الحد ، فاستخدم شهرة المغني محمد عبد الوهاب لتوسيع نطاق شهرته فاوحى الى هذا قصائد من مثل « يا جارة الوادي » و« انا انطونيو » و« خدعوها » و« تلفتت » وما اليها ، فوقعها هذا بانغام سحرية وانشدها بصوت شجي . وكان شوقي قد استخدم من قبل شهرة ابو عيون وام كلثوم اللذين تغنيا بقصائد عديدة له منها « وحقك » و« افديه » ؛ فتسرب اسم شوقي الى حيث تسربت اسماء هؤلاء المغنين و« اسطواناتهم » ، الى بلاطات الملوك واكواخ الفقراء ، الى دور العائلات ودور الملاهي ... ولم يكفه كل هذا بل رغب في الزيادة اذ قام ينشئ ، في آخر حياته ، روايات تمثيلية شعرية فكان لنا :

مصرع كليوباترا ، مجنون ليلى ، قمبيز ، علي بك الكبير ، عنترة

الحقها برواية نثرية : امية الاندلس

وسنتحدث الآن عن شوقي والتاريخ تاركين الى وقت آخر الحديث عما سوى هذا المظهر ... لنفي كلًا من مظاهره العديدة حقه.

وصف وتلخيص

فلنأت، قبل كل شيء، على وصف هذه الروايات واحدة واحدة، وعلى تلخيصها موجزين ليتم للقارئ ما يريد اذ يكون له فيها نظرة اجمالية تمكنه من متابعة النقد وتذوقه.

١ً مصرع كليوپاترا

مطبعة المعارف بالفجالة بمصر ١٩٢٩

رواية تمثيلية شعرية في اربعة فصول وقعت في ١١٠ صفحات، ١٦ × ١٢ سنتمترًا. ملخصها ان انطونيوس القائد الروماني الاكبر واحد الثلاثة (انطونيوس، اكتافيوس، ليبيد) الذين سُلّموا زمام الامور في رومة حوالي السنة الاربعين قبل المسيح، تعشق كليوپاترا مليكة مصر وراح به حبه الى الجحود بفضل رومة والتطوع في خدمة هذه الملكة القادرة. فحاربا جنبًا الى جنب في موقعة «اكتيوم» البحرية، وموقعة «الاسكندرية» البرية، فكان ان خانت هذه حبيبها مرتين متواليتين. فدفع الى الفرار وصفيه اوروس من المعركة الثانية. الى مكان امين حيث تلقى انطونيوس — كذبًا — خبر انتحار كليوپاترا، فعجل بالانتحار. وكان صفيه اوروس قد سبقه فانتحر.

واذ اتفق لهذه ان رأت حبيبها في نزاعه وتأكدت نية اكتافيوس المتغلب في استصحابها الى رومة المنتصرة لجأت، هي ايضًا، الى الانتحار تخلصًا منه. ولحاقًا بانطونيوس حبيبها. وقد تبعها الى الموت وصيفتاها: شرميون وهيلانة — الّا ان هذه الاخيرة نجت بمساعي حابي وانوبيس — فتم هكذا النصر لاكتافيوس، وحق لنا ان نسمي هذه الرواية «مجزرة المحبين» او «مصارع العشاق».

وقد ضم شوقي فيها الى الحوادث التاريخية حوادث اخرى من انتاجه فجاءت رواية في رواية.

اما مجمل هذه الحوادث فهو ان حابي ، احد امناء مكتبة قصر كليوپاترا الثلاثة ، تعشق هيلانة ، وصيفة الملكة ، وكانت هذه مولعة به الا ان حبها القيام بواجب الخدمة الامينة نحو مليكتها كان يمنعها من الاجتماع بحابي والتقرب منه . ولما لم يفت الملكة ما كان بين هـذين العاشقين من مودة وارتباط رغبت في جمعهما الى الابد بالزواج .

الا انها كانت عالمة بما لها عند حابي من البغض وما كان عليه هـذا من الخروج عن الطاعة ، « واي حقوق لهـا تدعي »[1] ولكنها تغلبت اخيراً على عاطفة الانتقام ، وزوجته من هيلانة . . . وكان ان انتحر انطونيوس وكليوپاترا واوروس وشرميون ؛ وآل القصر الى الخراب . فجاء حابي واخذ هيلانة وذهبا معاً الى حيث يقضيان عيشة هـادئة هنيئة . . . الى الحقول التي وهبتهـا اياها الملكة في سهول « طيبة » ، وفيها الختام .

٢ مجنون ليلى

مطبعة المعارف بالفجالة بمصر ١٩٣١

الرواية الثانية من روايات احمد شوقي الشعرية ، وهي ذات خمسة فصول ، وردت في ١٥٠ صفحة ، لها ما لرفيقاتها من الطول والعرض .

ملخصها ان مجنون ليلى ، قيس العامري ، تعلق ليلى منذ كان صغيراً فجنّ بحبها . واذ كان قيس شاعراً ، اخذ يتغزل بليلاه ويشبب بها ، فسار شعره بين القوم سيراً سريعاً وبعيداً . وكان العرب يعدّون عاراً ان يتغزل شاعر بنسائهم ، فتقم عليه آل ليلى والمهدي ابوها بان حرّموا عليـه نتاتهم . فتكرّد هـذا في مضارب البادية ومشارقهـا — ويقال انه وصل الى الشام — ينشد التزليـات والفراقيات ولا يصحو الا اذا ذكرت له ليلى . وكانت هذه كثيرة الحبّ له . الا انها فضّلت التضحية بحبها على التضحية بشرفها وشرف ذويها ، فتزوجت ورداً متخلية عن قيس المجنون . . . ولم يقف شوقي عند هذه الخاتمة بل تعداها فارفقنا

---

١) مصرع كليوپاترا ، ص ٢٢ (وهو جوابه موجهاً لهيلانة عندما دعت الى المحافظة على حقوق كليوپاترا)

تجاه قيس وورد — زوج ليلى — يتحدثان عنها ، وتجاه قيس وليلى بعد زواجها ، وتجاه موت ليلى وتعازي القوم لابيها ومراثي الشعراء فيها ؛ منها مرثاة قيس « المجنون » . . . ولم يات على الختام الا بعد ان شط وبعد عن صميم الموضوع في فصلين كاملين .

٣ً قمبيز

مطبعة مصر ، شركة مساهمة مصرية ، كانون الاول ١٩٣١

وهي الرواية الثالثة جاءت في ثلاثة فصول صفحاتها ١٢٥ ، من الصفحات المرصوفة اعلاه (١٦ × ١٢)

ملخصها ان قمبيز ، ملك الفرس ، طلب الزواج نفريت ابنة امازيس ، فرعون مصر . فابت هذه وأحب والدها ألا يماكسها في رغباتها . إلا ان خطر هذا الرفض كان عظيماً . فويل مصر من قمبيز منتقماً . وادركت نتيتاس ابنة فرعون ايرياس المقتول مقدار هذا الخطر على عرش آبائها ، فطلبت ان تحل محل نفريت فتفتدي بمصر بدمها البري . فلم تجد معارضة ؛ فاقيمت الافراح في بلاط فرعون وانصرف القوم باميرة مصر الى بلاد فارس . ولم تطل بها الاقامة هناك الا جاء فارسَ فانيسُ القائد في الجيش المصري الملتحق بالجيش الفارسي واطلع قمبيز على الخديعة ، فثارت ثورة هذا وجند جيشاً وزحف قاصداً مصر فوصلها واعمل فيها الحريق والقتل والنهب .

وما ان استقرَّ به المكان الا علم بخبر انتحار نفريت . فجنَّ وتجلى جنونه بان طفق يقتل كل من رأى فوقعت الواقعة على فانيس الخائن ، وقائد جيشه الاكبر وكان شيخاً ، وابيس ، العجل المقدس ، اله النيل . . . اما هو فقد تولت عليه روّية اذهلته فانتحر . وهكذا انتهت الرواية بجداد المصريين على مليكهم ومليكتهم والههم ابيس ، والفرس على مليكهم وقائد جيوشهم .

٤ً علي بك الكبير او دولة المماليك

مطبعة مصر ، شركة مساهمة مصرية ، ١٩٣٢

الرواية الرابعة من روايات شوقي الشعرية . وهي كالتي تقدمت ذات ثلاثة

فصول جاءت في ١٣٢ صفحة تماثل واخواتها طولاً وعرضاً.

ملخصها ان محمد بك «ابو الدهب» متبنّى علي بك الكبير واحد امراء المماليك، خرج على ابيه وولي نعمته فناصره كثير من المماليك. واذ ادرك علي خطورة الامر فرّ من مصر ساعة اقترانه بالأمة آمال، ولجأ الى ظاهر العمر في عكا واستنجده هناك على الثائرين فانجده. وقد شهدنا ما كان من امر النجدة اذ وقع ظاهر في قبضة الخارجين وقتل مراد بك علياً واستتب الامر لمحمد بك «ابو الدهب»

الا ان هناك حادثة غرامية جرت مشاهدها الى جنب الحادثة التاريخية. وهي ان آمال الامة التي تزوّجها علي بك الكبير والتي عرضتها للبيع ورفيقتيها، امّ محمود، كانت أتوفاً عزيزة النفس ابية، فتمرّدت على ابيها مصطفى البرجي الذي رغب في بيعها، وعلى ام محمود، وعلى كل من جاء يساوم على سعرها. فرق لها علي وتزوّجها. وكان قد علق بحبها مراد بك فتعشقته الا انها ظلت مبدية له النفور لاباتها ولانها لا ترضيها عيشة الجواري في بيوتات الامراء والملوك... وما زالت آمال في قصر علي آمرة ناهية معرضة عن مراد بك، الى ما بعد الحرب التي ذكرناها، يوم اقرّ مصطفى البرجي قبل ان تيتم جراحه بانه والد مراد بك وبان آمال هي ابنته ايضاً فختمت الرواية بان اعلم مراد آمالَ انها اخته لابيه مصطفى فانتشر الخبر بين القوم حتى بلغ محمد بك «ابو الدهب».

فبكت آمال زوجها علياً، وبكيا معاً اباهما مصطفى... وانعم عليها محمد بك بقصر علي المسمّى بقصر المطاط، ووعدهما بتوفير حياة الرغد والهناء لهما... وهكذا تمّ تعارف الاخوين.

٥ - عنترة

مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢

وهي الرواية الخامسة والاخيرة من روايات شوقي الشعرية، قسمت الى اربعة فصول، واستودعت في ١٣٩ صفحة كلها على الطراز الموصوف اعلاه.

ملخصها ان عنترة، فارس الفرسان، ذاك العبد الاسود الذي صوّرته لنا

الاسطورة بجلاء ، إحبّ عبلة ابنة امير الحي ، فبادلته الحبّ فنال دون زواجها رفض ابيها واخوتها لاسباب اهمها ان عنترة عبد ابن امة . فالعقدة اذاً : الحصول على رضى مالك . فتش عنترة عن هذا الرضى في حماية القبيلة والذود عن نسائها ومراعيها وكافة حقوقها والظهور بمظهر المحارب الذي لا يشقّ له غبار . فتل هذه الادوار حقّ تمثيل ، فتلك بانتصار الاكاسرة والمناذرة — بني لخم — فتكاً ذريعاً وابعد الغزوات عن قبيلته بان عارك قرماً من الغزاة فانهاهم . . .

الا انه لم يوفق الى رضى المهدي الذي احلّ يد ابنته الى صخر ، سري من سراة عامر ، فما كان من عنترة آنذاك الا ان سقط على ركب العامريين الذاهبين عبلة الى صخر فاختطف منهم عبلته وتزوّجها . راغماً انف ابيها وذويها عامة . فحمى لهما جوّ الحياة وعاشا خلي البال ، وكان عنترة فرض ارادته على صخر فزوّجه ناجية رفيقة ليلى ، التي كانت مغرمة به . وهكذا تمت الرواية بزواج المتيمين : عنترة وصخر ، هذا من التي احبته وذاك من التي أحب .

٦ً أميرة الاندلس

مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢

وهي الرواية النثرية الفردة التي وضعها شوقي بك ، فصولها خمسة ، صفحاتها ١٥٧ ، كلها على الطراز الموصوف قبلاً

وهذه ايضاً رواية ذات واقعتين : واقعة اولى تطلعنا على حالة ملك اشبيلية المعتمد بن عبّاد ، وعلى مصيره ومساوئه فنعلم انه ارغم على امره فخلي الملك ، وقيد الى سجن مظلم في اغمات هو وعائلته الملكية . وواقعة اخرى تطلعنا على حادثة غرام لها اولها وآخرها ، وقعت لبثينة ابنة الملك ابن عباد وحسون بن ابي الحسن تاجر اشبيلية الاكبر .

فترى كيف تعرّفت هذه الى وجه حسون ، وذلك في سوق الكتب في قرطبة ، فعلقت بهواه وظلت على حبها له الى ان عادته مثلثة في بيته فتعارفا وتسارّا الحب .

ثمّ وقعت الحرب . فتم انكسار ابن عباد واسرا وسبيت بثينة . ومضت

السنون على هذا الحادث الى ان عاد ابو الحسن وابتاعها من السابي — كل هذا مع حوادث عجيبة غريبة — فعاد بها الى داره ثم سار وايلها وابن حيون وحسون الى السجن حيث ابيها ، فتم اقتران حسون ببثينة عند رضى الاهل اجمعين .

المصادر

لم يعتمد شوقي في رواياته التمثيلية على سوى التاريخ ، وان اقلع عنه فليستبدله بالاسطورة .

ولا حاجة بنا للعودة الى التاريخ ونقل صفحاته العديدة . انما نكتفي بالاشارة الى تلك الصفحات التي نرجح ان شوقي استند اليها في رواياته ، فيطالعها من يريد :

لكليوپاترا وانطونيوس اخبار في التواريخ الرومانية كلها . وليرجع الباحث عن مصادر « مصرع كليوپاترا » الى تاريخ « Humbert et Petitmangin »[1] في الصفحة ٢٢٠ وما اليها .

وليراجع قارئ قيز ما ورد من اخبار هذا الملك الفارسي واخبار همجيته وقسوته في Maspero, *Histoire ancienne des peuples de l'Orient* ، وذلك في الفصل الثالث عشر الحامل اخبار افتتاحات العجم حيث وردت اخبار قيز وامازيس وبسامتيك الثالث ، وافتتاح مصر في السنة ٥٢٥ . ترى كل ذلك في الصفحات ٦٧٥—٦٩٥ .

وقد جاء جرجي زيدان في كتابه « تاريخ مصر الحديث »[2] في الجزء الثاني منه ، على ذكر علي بك الكبير والمناوشات التي حصلت بينه وبين محمد ابي الذهب ، وذلك في الصفحات ٥٦-٦٦

اما عنترة والمجنون فاخبارهما في الاغاني[3] . فقد ورد للاول ذكر في :

---

١) Paris, J. de Gigord, éditeur. 2e édition, 1926

٢) المطبعة المصرية ببولاق

الجزء الاول ص ١٠٦
الجزء الثاني ص ١٣٢
الجزء السابع ص ١٢٥
الجزء التاسع ص ١٤٨
الجزء الحادي عشر ص ٢٨
الجزء الخامس عشر ص ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٤٨ - ١٥٢

والثاني ذكر في الطبعة الحديثة من الاغاني وفي الجزء الثاني منها ، من الصفحة الاولى الى الصفحة ٧٢ [1]

اما اميرة الاندلس فاخبارها في Dozy [2]

موقف شوقي من التاريخ

وماذا كان موقف شوقي من التاريخ ؟

الحق يقال ان شوقي لم يدرك واجبات الروائي تجاه التاريخ ، اذا ما اتخذ الروائي التاريخ مصدرًا لرواياته . وليس من الامانة الادبيـة في شيء ، ولا من حسن الذوق الفني ، ان ينزو الروائي التاريخ باقل حوادثه في عمل عماده الاكبر الخيال ولذته الكبرى ما فيه من جديد الاحداث وعذب الابتكار .

ان يستوحي المؤلف الروائي التاريخ فينقل عنه حادثة من حوادثه المشهورة ويتفنن في عرضها ، اذ يضفر على حواشيها مشاهد ومواقف تقرب بالروح منها وترتبط بالاحتمال اليها ؛ فليس هذا من المستنكر . امّا ان ينقل الروائي التاريخ مدخلًا عليه بعض الاخطاء الفظيعة ليوهم القرّاء انه تحرّر من قيوده وتفلّت من حباله . فهذا ما لا مبرّر له ، وما يمجّه كل ذي ذوق سليم وادب صادق .

ولم يكن شوقي ، في وقفتـه تجاه التاريخ ، كما سترى ، الا هذا الثاني ، اذ انه كان يكتفي بان ينظم شعرًا الحوادث التاريخية كما عرضت ؛ ولم يتعب في اخضاعها لقواعد المسرح والتمثيل مقدماً ما يجب تقديمه ، مؤخرًا مـا يجب

---

١) الاغاني – مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة – الطبعة الاولى

٢) Dozy, *Histoire de l'Espagne II*, p. 150 et s.

تأخيره ، ومهملًا ما لا منفعة له فيه ان لتحسين واقعة الرواية او لتصوير شخصيات اشخاصها ، وان لزيادة ، اية كانت ، في محسنات الرواية التمثيلية .

ونحن لا نرجئ تبيان هذه الحقيقة الى وقت آخر . وانما نسعى ، من ساعتنا ، الى جلاء الموقف ، فنعرض للقراء صورتين : صورة اولى يتراءى لنا فيها « مجنون ليلى » شوقي ، واخرى توقفنا تجاه المجنون في التاريخ ؛ فيرى القارئ هنا ما لشوقي فيها فيبقيه له ، وما للتاريخ فيعيده للتاريخ .

مسألة يجب ان تعلم قبل كل شيء وهي ان مجنون شوقي هو المجنون العامري قيس بن الملوّح بن مُزاحم بن عدس بن ربيعة بن جَعدة بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، الذي نقلت لنا اخباره في كتاب الاغاني وفي الصفحات المشار اليها . ذلك ان غير واحد لقب بالمجنون وكلهم كان يشبّب بليلى كما حدّث الاصمعي قائلًا : « سألت اعرابيًا من بني عامر بن صعصعة عن المجنون العامري فقال : عن ايهم تسألني ؟ فقد كان فينا جماعة رُموا بالجنون فمن أيهم تسأل ؟ فقلت عن الذي كان يشبّب بليلى فقال : كلهم كان يشبّب بليلى . فقلت : فانشدني لبعضهم »[1] فانشده هذا لمزاحم بن الحارث المجنون ، ولمعاذ بن كليب المجنون ، ولمهدي بن الملوّح . — ومهدي هذا اسم آخر ذكره بعض الرواة عانين به قيس بن الملوّح المقصود في بحثنا .

نقطة اولى وقف عندها شوقي حائرًا وهي مسألة جنون قيس ، فسمعناه يتراوح تارة بلسان منازل — والكلام عائد لقيس —

تؤدّبني ، زياد ، وانت ظلّ لمجنون ، ورواية لحاذي (٢

وبلسان ليلى :

وقيس ذو جنّة ، وان زعموا جنونه مدّعى ومصطنعا
تحير الناس في جنونه فتى لا عقل الا بشره ولعا (٣

وبلسان المجنون نفسه :

« عامهم لا يقولون : فتى مشتركُ اللبّ » (٤

---

١) راجع ذلك في الاغاني (طبعة دار الكتب المصرية) ٢ : ٦
٢) مجنون ليلى ٢٠ ٣) مجنون ليلى ١١١
٤) مجنون ليلى ٥٠

وهذا :

ليلى ، لحاني مجنون يخيل لي لا لحاني عادوا على ليل ولا نوحوا (١

وتارة نسمعه يصرح بالعكس ، نافياً عن قيس الجنون ؛ من ذلك تصريح منازل وشهادة القوم بها . قال منازل :

ان قيساً كامل في عقله ؛ او آتسم على قيس الجنون ؟ (٢

فيجيبه الناس مقسمين : « لا ورب البيت »

ولم يكن شوقي في هذا المقام الا مجارياً التاريخ حيث تقاسمت الاراء في هذه المسألة ، وحيث رأينا علماء الانساب والمطلعين على اخبار العرب لم يجمعوا على اقرار الجنون في قيس . فمنهم من سلم بجنونه ، وهم الكثيرون ، ومنهم من حاول نكران ذلك كالاصمعي الذي حدث حماد بن طالوت بن عباد قال :

« لم يكن مجنوناً بل كانت به لوثة احدثها العشق فيه » (٣

وكابن سلام الذي قال :

« لو حلفت ان مجنون بني عامر لم يكن مجنوناً لصدقت ، ولكن تولّه لما زوّجت ليلى وايقن اليأس منها » (٤

فشوقي في مجاراته التاريخ ، واقفاً معه ما بين انكار الجنون عن قيس واثباته عليه ، جعل صاحب « النظرات التحليلية » — والنظرات هذه بحث نقدي جاء في ذيل رواية المجنون — ان ينفي الجنون عن قيس مستشهداً ببعض اقوال له صائبة كان يتلوها المجنون عندما يُحدّث عن ليلى او تذكر له ، كحديثه لليلى قبل اغمائه للمرّة الاولى في الفصل الاول (٥) ، وحديثه لها في الفصل الثالث قبل ان يغمى عليه للمرّة الثالثة ، اذ كان يناجي ليلى وحيّها مناجاة العاقل ويقرّر وينفي ويناقش في منطق سليم (٦) كما قال صاحب النظرات . وكذلك قوله عن حديثه ساعة وقف على مقربة من دار ليلى وحيّها الجديد حيث تصوّر صوراً لا يمكن ان تخطر في خيال عاقل .

---

١) مجنون ليلى ٤٦
٢) مجنون ليلى ٥٧
٣) الاغاني ٢ : ٤
٤) الاغاني ٢ : ٣٨
٥) المجنون ٣٦
٦) المجنون ٥٢

ولو تريث الناقد قليلاً قبل اطلاق حكمه لما فاته ان شوقي في هذا المقام ايضاً يزعجه ان يخالف التاريخ ، فيجاريه على مزاعمه واعتقاداته . وذلك ان علماء التاريخ يقولون كما قال عثمان المرّي : انه كانت بقيس جنة « اذا ذكرت لـه ليلى نشأ يحدّث عنها عاقلاً ولا يخطئ حرفاً »[1].

والآن فلننظر الى مظاهر هذا الجنون اهي هي في مجنون شوقي ومجنون التاريخ ؟ متبعين ذلك بنظرة الى قيس العاشق وصفات عشقه ، وما الى هنالك من الاوصاف التي اتصف بها المجنون.

لقد جاء في شوقي — والكلام صادر عن ابن عوف — :

ما باله يطأ التراب حافياً ويقطع اليد ممزّق الردا (٢

وجاء ما يوازي ذلك في التاريخ وهو قول لعثمان المرّي :

« كان — قيس — لا يلبس ثوباً الا خرّقه ولا يمشي الا عارياً » (٣

وجاء في شوقي ان احداث الحيّ كانوا يأتونه وينشدونه الشعر والنزل[4] . فيصدّهم عنه حاصباً جماعتهم بالحصى كما شهد ذلك ابن عوض عندما قال مخاطباً نصيباً :

انظر ، نصيب ، ضجّة وصيحة ورجل يرمي المنار بالحصى (٥

اما ما كان يقوله الاحداث فهو :

قيس عفّر البوادي ومزار الزبوات
قيس كشّفت الذارى وانتهكت الحرمات (٦

قابل ذلك بقول عثمان المرّي :

« كان يلب بالتراب والحجارة . . . ويأتيه احداث الحي فيحدّثونه هنها — اي ليلى — وينشدونه الشعر والنزل » (٧

وبما قاله رجل من بني مرّة من انه خرج اليه ولما رآه قيس تناول حجراً يرميه به[8].

---

١) الاغاني ٢ : ١٦
٢) المجنون ٢٦
٣) الاغاني ٢ : ١٦
٤) المجنون ٢٧
٥) المجنون ٢٨
٦) المجنون ٢٧
٧) الاغاني ٢ : ١٧
٨) الاغاني ٢ : ٤

وجاء في شوقي ان قيساً اضرب عن الاكل، وذلك فيما قاله زياد :

يـاقه قيس الا اكلت (١

فيلاحظ شوقي بقوله :

يشتد ميل قيس عن الطعام

ويزيد بلهاء هامسة لزياد :

زياد ، ما ذاق قيس ، ولا همّا

وكان قد جاء في التاريخ خبر امية الجبار بن سليمان بن نوفل بن مساحق عن ابيه عن جدّه قال :

« اختلط عقل قيس بن الملوّح وترك الطعام والشراب » (٢

وجاء في شوقي ان قيساً كان يهيم ويظل متشرداً في مناكب البلاد ومشارقها، كقول منازل :

تشرّد مستظماً في البلاد ، وجُنّ فما ازداد الا ُنى (٣

وقال جني من العفاريت الذين كانوا بصحبة الاموي ، شيطان شعر قيس :

لقد ضلّ الطريق ، أما تراه يمزّق بالبنين وبالشمال ؟
وقد قلب الشباب عليه ضجاً على عاداتهم عند الظلال (٤

وشهد قيس على نفسه اذ قال :

ربِّ ، الى اين انتهت بي السُرى وايّ وادٍ انزلتني ، يا تُرى ؟
عامي في الشام ؟ لعلي جزته ؟ او انا بالطائف ؟ او ابن انا ؟ (٥

وكان عثمان المرّي قد تكلم عن هيامه اذ قال : « فهو يهيم »(٦

ولم يأتِ ذكر الشام فيما ذكرناه من شعر قيس عرضاً . وانما كان قد بلغ قيس الشام في تشرّده ، وذلك عند حدّ قول هشام بن الكلبي :

« وصل قيس الى الشام وكان يسأل من يمرّ به : اين نجد ؟ » (٧

جنّ قيس فلم يفت آله وانسباءه هذا الجنون نظراً لظواهره التي رأيت

١) المجنون ٢٢
٢) الاغاني ٢ : ٢٥
٣) المجنون ١٩
٤) المجنون ٢٢
٥) المجنون ١٢
٦) الاغاني ٢ : ١٧
٧) الاغاني ٢ : ٢٢

ومن البديهي ان يقوم والد قيس ، وكان لم يزل في قيد الحياة ، بامر شفائه تماً هو فيه ، وهكذا كان . وقد اطلعنا على ذلك شوقي في قول زياد لابن عوف ، عندما اشار عليه هذا ان يذهب بالمجنون الى الكعبة للاستشفاء ، وهاك ما قال زياد :

رويدًا ، سيدي ، مهلا ! فلا تستغرب الامرا
لقد سقناه بالامس ، فحجّ الكعبة الغرّا
فلمّا لمس الركن ، ومست يده الشرا ،
وقلنا : الآن من ليلى ومن فتنتها يبرا ،
سمعناه ينادي : الله من ساحته الكبرى

ابن عوف : وماذا قال ؟

زياد ، متابعاً :

ما تاب من العشق ، ولا استبرا
ولكن قال : يا ربّ ملكت الخير والشرا
فهبك الشرّ ، ان كان هوى ليلى هو الشرا ،
وان كان هو السحر ، فلا تبطل لما سحرا !
ويا ربّ ، هب السلوى لنيري ، وهب الصبرا ،
وهب لي موتة المضنى بها لا ميتة اخرى (١

وكأن شوقي احبّ ان ينظم شعرًا ما قاله هشام الكلبي عن ابيه نثرًا من ان ابا قيس قاد ابنه الى مكة وقال له :

«تعلّق باستار الكعبة واسأل الله ان يعافيك من حبّ ليلى فتعلق باستار الكعبة وقال : « اللهم زدني حبًا لليلى ، وبها كلفًا ، ولا تنسني ذكرها ابدًا . » فهام حينئذ واختلط فلم يضبط » (٢

هذا ما حضرنا عن جنون قيس ، وهذا كل ما جاء في رواية شوقي عن اصله ومظاهره . فلنتكلم الآن عن عشقه الذي هو في نظر المؤرخين ، ونظر شوقي ، علة هذا الجنون . اما كيف نشأ هذا العشق وما هي مظاهره فهذا ما سنجده باظهازه فيما يلي :

يقول شوقي ، فيما يخصّ اصل عشق قيس لليلى ، بالرأي الذي يأخذ به معظم المؤرخين . اما هذا الرأي فادلى به شوقي في مقالين مختلفين اولهما قول قيس مخاطباً ليلى :

---

١) المجنون ٤٢-٤٤ ٢) الاغاني ٢ : ٢٢ -

تسالي الى ذكرى الصبا وجنونه ، واحلام عيش من دد وأمان

. . .

ولم تكُ تدري يوم ذلك ما الهوى ولا ما يرود القلب من خفقان (١

وثانيها قول قيس تجاه جبل التوباد :

جبل التوباد ، حيّاك الحيا ! وسقى الله صبانا ورعى !
فيك ناغينا الهوى في مهده ، ورضعناه فكنت المرضعا !
وعلى سفحك عشنا زمناً ورعينا غنم الاهل معا
هذه الربوة كانت ملعباً لشبابنا ، وكانت مرتعا (٢

ونحن نعلم ان ابا عمرو الشيباني وابا عبيدة قالا في نشأة هذا الحب ما قاله شوقي :

« ان المجنون كان يهوى ليلى وهما حينئذ صبيان فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي اهليهما فلم يزالا كذلك حتى كبرا . . . » (٣

اما مظاهر هذا العشق فهي ان مجنون شوقي قال الشعر واجاد في ساعات هيامه، ولم يكن مجنون التاريخ ليقصر عنه في هذا المضمار فقد كان شاعراً فذّاً.

كان عشق قيس يثير فيه الشعور فيقول الشعر فيزيد هذا العشق عشقاً فيغمى على قيس من وجده. ان قيس التاريخ كان سريع الاغماء كثيره. وقد رأينا الاغماء يعاود قيس شوقي عندما يأتي في طلب النار من دار ليلى ويسرّها ما به[٤] ؛ وعندما يسمع صغار الحيّ ينشدونه غزلاً ويذكرون له اسمها ؛ وعندما يشخص امام حي ليلى ، بصحبة ابن عوف ، ويرى ليلى في حيها المضطرب بين الرماح والسيوف[٦] . وقد شهدنا ابا المهدي ينصح اتباع قيس بان يكبّروا في اذنيه فيصحو[٧] ؛ ثم عندما اطلعه بشر على وفاة ليلى حبيبته[٨] . وهي صفة اقرّها له التاريخ فقال فيها مهدي بن سابق :

« ان قيساً سادف حيّ ليلى راحلاً ولقيها فجأة فعرفها وعرفته فصعق وخرّ مغشياً على وجهه » (٩

---

١) المجنون ١١٢-١١٤
٢) المجنون ١٢٢
٣) الاغاني ١١
٤) المجنون ٣٦
٥) المجنون ٣٨
٦) » ٥٢
٧) » ٧٢
٨) » ١٤٠
٩) الاغاني ١٤

ونقل خبرًا كهذا ايضاً نوفل بن مساحق والقحذمي[1].

وقد ضمّ شوقي الى هذه المظاهر مظهر البكاء فاسمعنا قيساً يقول :

وكم جدت عى الرمل، ولم ابخل على العشب ،
بدمع مثل دمع الثكل مذروف من القلب (٢

وهذه ظاهرة لم يتعب المؤرخون باثباتها له ، فضلًا عمّا قاله هو في نفسه عن بكائه ودموعه.

وقد تجلّى عشقه بعلامات ، غير الجنون والاغماء والبكاء ، اهمها المزال والصفرة فقال شوقي في ذلك – والكلام صادر عن جنّي اسمه هيد – :

تأمل قيساً المُضنى تجده ، من الذوبان ، اصبح كالخيال (٣

وهاك ورد يرى قيساً فيقول فيه :

لعلّه ابن سبيل يمرّ بالحيّ مرًا
انى رآه سقيماً يمرّ ساقيه جرًا

رفيق : عرفت من هو؟

ورد : قيس به الغرام إضرًا (٤

وهاك قول منازل :

هو ابن الملوّح دلّ المزال عليه ونمّ اضطراب المُطا (٥

وهاك قول ليلى :

ابي ، ما تراه كالذي انا فيه وي نحولًا وكالثيب اصفرارا (٥

وهما صفتان — المزال والصفرة — حدّث عنهما ابن مسكن قال :

« . . . واذا معهم فتى ابيض طوال – اي مفرط الطول – كاحسن من رأيت من الرجال على مزال منه وصفرة ، واذا هم مشفقون به ، فسألت عنه فقيل لي: هذا قيس المجنون » (٦

وحدّث عنهما التاريخ في قوله :

ولم يبقَ الا الجلد والعظم عاريًا ولا عظمَ لي، ان دام ما بي ، ولا جلد (٧

اما كيف كان يقوم المجنون بواجب هذا العشق فقد قال عجباً في رواية شوقي :

كم جئت ليل بابيات ملفّقة ! ما كان اكثر اسبابي وعلّاتي ! (٨

---

١) الاغاني ٦٦
٢) المجنون ٥٠
٣) المجنون ٩١
٤) المجنون ١٠٤
٥) » ٢٩
٦) الاغاني ٢٢-٢٣
٧) الاغاني ٦٥
٨) المجنون ٢٢

فنشتم من هذا البيت انه كان كثير التردد الى بيت ليلى ممهدًا لنفسه الطريق باسباب ملفقة . ولم يكن يأتي بهذه الاسباب الا في سبيل الاجتماع بها والتحدث اليها .

وقد اثبت التاريخ الشيء نفسه في قول رباح بن حبيب العامري حيث جاء :

« كان المجنون اول ما علق ليلى كثير الذكر لها والاتيان بالليل اليها والعرب ترى ذلك غير منكر ان يتحدث الفتيان الى الفتيات » (١

وهو القائل :

« . . . وكان يأتيها في كل يوم فلا يزال عندها فاره اجم حتى اذا امسى انصرف » (٢

اما ما نراه عند شوقي من ايفاد هذا وذاك الى ليلى ، فهذا ناتج عن اهدار الخليفة دمه ، فهو ان عرض لآل ليلى قتاوه ؛ لا لخجل منه او جزع من القيام بحضرة من يحب .

قال شوقي :

حلل السلطان بالامس لكم دم قيس ما الذي تنتظرون ؟

وجاء في الاغاني :

« حدث الهيثم قال . . . ولم يسمح للمجنون بدخول الحي قال القوم : لا والله لا يدخل المجنون منازلنا ابدًا او يموت فقد اهدر لنا السلطان دمه » .

وليست هذه السفارات ، سفارة ابن ذريح وسفارة ابن عوف ، من مخترعات شوقي وانما وردت في الاغاني حيث جاء :

« حدث اسماعيل بن ابي اويس قال : التمس قيس بني عامر فتيًا بن ذريح وطلب اليه الاول ابلاغ سلامه لليلى فمضى قيس بن ذريح حتى اذا ليلى فسلم وانتسب فقالت له : حيّاك الله الك حاجة ؟ قال نعم . ابن عمك ارسلني اليك بالسلام ؛ فاطرقت ثم قالت : ما كنت اهلًا للتحية لو علمت انك رسوله » (٣

وهذا ما جرى حقًا في رواية شوقي لابن ذريح الذي نراه في الفصل الاول في المشهدين الاولين[٤] . ولم تكن سفارة ابن عوف الا تاريخية ايضًا ، وقد نسبها شوقي لابن عوف ، ولي صدقات بني كعب وتشير و . . وقد قام بها في الحقيقة

١) الاغاني ٤٣
٢) الاغاني ٤٤-٤٥
٣) » ٤٣-٤٤
٤) المجنون ١-١٤

خليفته نوفل بن مساحق الذي تولى الصدقات في السنة الثانية. ونحن نكتفي، لاظهار الدور الذي مثله هذا في رواية شوقي، بايراد الحادثة كما جاءت في التاريخ :

« ولي ابن عوف صدقات بني كعب وقشير . . . فنظر الى المجنون قبل ان يتحكم جنونه فكلمه، وانشده فاعجب به . . . اخذه معه في الجيش . . . جاءه رهط من رهط ليلى واخبره بامنته وانه لا يريد التجمل به وانما يريد ان يدخل عليهم ليوشم ويفضحهم في امرأة منهم يهواها فاعرض هذا من قيس . . . ووليت الصدقات في السنة الثانية نوفل بن مساحق وفيه رويت حادثة الثوب . . . وخطبة ليلى من ايها لقيس . . . وهياج الحي. وحرمانه للدخول اليه » (١

فجلّ ما غيّره شوقي في هذه الحادثة انه مزج ما حدث لوليّي الصدقات وقيس ونسب كل ذلك لوليّ واحد هو ابن عوف.

هذا . وقد نسب شوقي الى مجنون ليلى صفات خارجية باتت تحتجب النساء فيه جمعها ابن ذريح بقوله :

وقيس ، يا ليلى ، وان لم تجملي ، زين الشباب ؛ وابن سيد الحيي
لم تدر في حيك او في حيه فتى حكاه نبلا ولا فتى
ولا جمالا . . . (٢

وكلها صفات ذكرها ابن مسكن بقوله :

« واذا معهم فتى ابيض طوال جعد كاحسن من رأيت من الرجال » (٣

واتمها عثمان المرّي اذ قال :

« كان قيس اجمل الفتيان » (٤ :

وهكذا فاننا نرى تقيد شوقي المفرط بالتاريخ، وما لهذا في ذمته في اخراج رواياته، وخاصة في اظهار شخصية قيس المصوّرة اعلاه . . . اجل ! ان قيسنا مجنون، وهو مجنون على طريقته، ولم نطلب من شوقي يوماً ان يصوّره لنا متعقلاً، معاكساً في ذلك الحقيقة التاريخية، وانما رغبنا اليه لو صوّر هذا الجنون بطريقة تعرف به لا ينقل فيها التاريخ واسلوب التاريخ . . . وهو لو فعل لكان مجنونه على غير ما هو عليه من الروعة والجمال . . . والذوق الفني.

١) الاغاني ١٦-١٧ ٢) المجنون ١٢
٣) » ٢٢-٢٣ ٤) الاغاني ١٥

ولم يقلّ تقيد شوقي بالتاريخ في علي بك الكبير ، وقبيز ، ومصرع كليوباترا ، واميرة الاندلس ، عنه في مجنون ليلى .

الا ان شوقي ، على ما شهدنا عنده من الاحتفاظ بالحوادث التاريخية ، لم يكن يحسن المحافظة على الحقيقة التاريخية او قل على جوهر التاريخ .

وذلك ظاهر في عنترة على الاخص ، عندما يصوّره لنا وعبلة تجول فيهما روح القومية الحية فيدعوان الى الوحدة العربية وعندما لا يحسن تصوير « السيد العربي » فيما نسبه لمالك ابي عبلة ، كما سترى .

فما هو مستند هذه الدعوة من التاريخ ؟

مما لا مراء فيه ان ذاك العربي ، ربيب الصحارى الواسعة الارجاء ، الممتدة الاطراف ، الذي حُكم عليه ان يعيش معتزلاً ، منفرداً باعضاء اسرته كان لا يحلم بالوحدة ولا يشعر بتلك الروح ، روح القومية التي نُسبت اليه . وجلّ ما كان يفكر به هو ان يحمي قبيلته فتبقى له مراعيه ومواشيه ويحافظ على نسائه من ان تُسبى . واذا تمّ له ذلك كان ينالب جيرانه على ماء آبارهم وحشيش مراعيهم ليحقق حياة ماشيته المتعلقة بها حياته وحياة اهله .

وقد اخذ ابن خلدون بهذا الرأي في صفحات من مقدمته حيث بيّن كيف « ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك »[1] وانهم « ان تغلبوا على اوطان عاجلة اسرع اليها الخراب »[2] والتاريخ العربي باجمعه كفيل بتبيان هذه الحقيقة .

وقد قال ما يقابل ذلك الاب لامنس اليسوعي في كتابه Le Berceau de l'Islam « وجاء له في احد اعداد « المشرق »[3] ما يلي :

« ان البدوي رجل فردي ولهذا لم يرتقِ قط الى مستوى « الحيوان الاجتماعي » فيؤلف نظاماً سياسياً واجتماعياً ثابتاً . وان تلك الصفة الفردية وحدها تشرح ما نراه في البدوي من عدم الاخلاص للمصلحة العامة المشتركة » ولاحظ انه جاء في سفر التكوين (١٦ : ١٢) في وصف اسماعيل جدّ العرب

---

١) مقدمة ابن خلدون – المطبعة البهية المصرية – ص ١٠٧ الفصل ٢٨

٢) مقدمة ابن خلدون – المطبعة البهية المصرية – ص ١٠٥ الفصل ٢٦

٣) المشرق ٣٠ [١٩٣٢] ١٠٤

هذه الصورة : « ويكون رجلًا وحشيًا يده على الكل ويد الكل عليه وامام جميع اخوته ينصب مضربه » . . . وقال : « ما ذاك الا لانه عاجز عن ان يرتفع ، بنفسه ، الى ما فوق فكرة الحي او القبيلة . عاجز عن ان يتصور نظاماً اجتماعياً اوسع وارقى . واذا ارتفع الى شيء من ذلك بمساعدة قوة خارجية . فلا يلبث ان يرجع الى تقشفاته وتشبثاته عندما تتركه تلك القوة الخارجية وسواء اكانت هذه القوة نبوغاً سياسياً كنبوغ معاوية الاول او حزماً اداريًا كحزم زياد بن ابيه والحجاج وغيرهما . . . فيعود البدوي القهقرى الى فطرته الفوضوية »

فالعربي اذًا ، من فطرته ، فردي وفوضوي ، ومن اجتمعت فيه هاتان الصفتان لا يمكنه ، ولا بوجه من الاوجه ، ان يطمح الى الوحدة . . . بل انه لا يمكن ان يتصورها .

فاين نحن ، واين الحقيقة التاريخية ، واين شوقي منها ؟

ولم يكن شوقي في تصويره « السيد العربي » باقرب الى الحقيقة التاريخية منه مصورًا الرجل العربي .

ذلك انه اظهر مالكاً بظهر اللؤم والخسة في حين ان هذا لم يكن على شيء من ذلك . والا لما كان تنصب سيدًا ، والعرب يتعبون في انتخاب اسيادهم .

فمن هو مالك في شوقي ؟

سيد لئيم ، حسود ، خسيس النفس ، دنيئها ، لا هم له الا قتل عنترة ، فارس الفرسان ، وحامي القبيلة الفرد[1] . فهو القائل لسراة بني عامر اذ طلبوا يد ابنته لصخر اميرهم :

أصيخوا لي : اذهبوا ، قولوا لصخر يقدم رأس عنترة صداقا (٢

وهو القائل لضرغام في سبيل هذه الغاية :

المهر يا ضرغام غال فاجتهد ان تحذره . . .
اسمع ، اذن ، اصغ له : المهر رأس عنتره (٣

---

١) راجع عنترة ص ٢٤ وما يليها . ٢) عنترة ص ٥٦
٣) عنترة ص ٦٥-٦٦ .

اما التاريخ فيعلمنا ان الخشونة واللؤم والدناءة والحسد ليست من صفات السيد العربي . وانما هي صفات وسم بها شوقي مالكاً ظالماً وجبوراً . اما صفات السيد العربي ، على ما ذكر الاب لامنس ، فمنها الحلم والكرم : « يجعل السيد العربي بيته مفتوحاً للضيافة ، وحديثه لطيفاً ، ولا يتطلب شيئاً . بل يرحب بالكبير والصغير فيعدهم جميعاً من امثاله . وهي صفات تفرض التجرد والتضحية الدائمة وقد جمعها حكمة العامة في امثالهم فقالوا : « سيد القوم اشقاهم » وقالوا ايضاً : « سيد القوم خادمهم »[1]

فاين التجرد فيمن رغب ابن يجرد رأس عنترة عن جسمه تشفياً ؟ واين التضحية الدائمة فيمن يضحي بابنته ، وبعنترة ، حامي القبيلة الوحيد ، في سبيل غايته الفردية ! ! !

وقد يكون شوقي تعمد النقل ، في هذا الموقف ايضاً ، فنقل الاسطورة فجاء « ابو عبلاه » على ما هو عليه في روايته .

فان صح هذا الزعم جاز تخطئة شوقي في امرين : اولهما تحديه اقاويل الاسطورة المغلوط فيها ، غير عابئ بما للتاريخ من حقوق حتى على الروائي نفسه ، ثانيهما افساد روعة الاسطورة بانقاصه منها وزيادته عليها حيث لا ينبغي الانقاص ولا الزيادة .

ثم ان شوقي جعل من عنترة رجلاً مستهتراً يجتمع الى الفتيات فيغازل عبلة[2] . ويذهب الى ما هو ابعد فيحمله على اختطافها من ركب بني عامر ليتزوجها قسراً . وكلها اشياء لم يتعودها قائل :

اغشى فتاة الحي عند حليلها ... واذا غزا في الجيش لا اغشاها
واغض طرفي ، ما بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مأواها

على ان نقل التاريخ في الرواية حدا بشوقي في بعض الاحيان — وهي قليلة جداً — الى حسنات منها انه احسن تصوير اخلاق المماليك وفساد بيئتهم في علي بك الكبير ، فرأينا الابن يثور على ابيه ، والمأمور يخرج عن طاعة آمره

---

١) الاب لامنس في المقال نفسه ص ١١٠

٢) عنترة : ٣١-٤٦ ، ٨١-٨٢ ، ٨٥-٩٥

فيدبّر له الدسائس ويقتله ، ورأينا الفساد سائداً فيات يخشى الصديق الصديقَ ، على امرأته او اخته.

وقد نجح بعض النجاح في تصوير اخلاق الفرس والاسبان ، وذلك في قبيز واميرة الاندلس.

فنحن ، كما ترى ، لا ننتقد على شوقي مخالفته للحوادث التاريخية. فلكم وددنا ان يتصرّف بها . وانما ننقد عليه مخالفته للحقيقة التاريخية تلك التي رأيت ، مخالفته لجوهر التاريخ الخاصّ وروحه الخالصة اذ جعل عبلة وعنترة من دعاة الوحدة العربية فاوجد فيهما الروح القومية التي يستحيل وجودها عند قوم صفاتهم الفطرية : الفردية والفوضوية ، وصوّر « سيد العرب » عاقاً لئيماً حسوداً خسيساً ، وهي صفات لم يتفق لواحدة منها ان اتصف بها مالك السيد العربي .

نتائج هذا الموقف

لم يكن موقف شوقي هذا تجاه التاريخ بدون نتائج . فقد حدا به الى الازدواج في الواقعة ، والى مسائل اخر ستتناولها بالبحث في دورها .

واقعتان في رواية واحدة . هذا اول ما يلفت نظر القارئ في روايات شوقي ، وهي صفة اظهرناها جلياً فيما تقدم لنا من اختصار الروايات . ولا يخفى انها نتيجة تقيّد شوقي تقيداً مادياً بالحوادث التاريخية اذ انه مهما اطنب المؤرخون في ذكر واقعة من المواقع فهم لا يأتون على ما يكفي انشاء رواية تمثيلية،ولاسيما ان شوقي كثير الاحتفاظ بذكرات التاريخ فهو يكاد لا ينقص منها ولا يزيد. فما العمل وشوقي ممن ينشئون رواياتهم على ذكر الحوادث ليس غير ؟ واين المواد لالف بيت تنظم فيطلق عليها اسم رواية تمثيلية ؟ فما كان من شوقي ، وهذا موقفه ، الا ان هبّ يضفر على الحادثة التاريخية حوادث غرامية لا صلة لها بتلك ولا لحمة ، ارجدها ولم يحسن ادماجها بصميم الموضوع التاريخي ، فجاءت الرواية « الشوقية » ذات واقعتين كما اظهرنا سابقاً : واقعة تاريخية ، واخرى غرامية اخلاقية ابعد ما يكون عن التاريخ . اما النتيجة الثانية ، والتي لا تقل قيمة عن الاولى ، فهي ان « الرواية الشوقية » قصة للقراءة والمطالعة لا للتمثيل

والمسرح ، ذلك ان شوقي نحا فيها نحو المؤرخين في تواريخهم اذ اخذ ينيط حوادث رواياته باسبابها ونتائجها كما في التاريخ وكما شهدناه فيما خص «المجنون».

المجنون يحب ليلى . فشوقي يطلعك على كيفية نشأة هذا الحب[1] على تطوره ، ونموه ، وعلى نتائجه : الجنون فالتشرد . وإذا بنا تجاه واقعة تولد ، وتنمو ، وتموت ، ولا نجد احتكاكاً في الارادات المتعاكسة والعواطف المتنافرة . . . فالرواية عنده تاريخ ، اشخاصه آلات متحركة تسير دوماً الى الامام . . . نحو النتيجة.

ثم ان من نتائج موقف شوقي تجاه التاريخ انه لم يعط لكل حادثة من حوادث رواياته القيمة النسبية التي تستحق ان تحلها في الرواية[2] ، مراعياً في ذلك الفن التمثيلي والشروط المسرحية. وانما ابقى الحوادث القيمة التي اقرها لها المؤرخون وفقاً لقوانين التاريخ. وفي هذا من الغلط ما فيه ، لان الرواية التمثيلية شيء والتاريخ شيء آخر . . . وشتان بين حقيقة الواقع والخيال.

وهكذا ترى هذا الشاعر المبدع يقيده التاريخ في معظم مواقفه.

عنترة شوقي وعنتر غانم

وهل يجب ان نذكر بين المصادر ما كان « لعنتر » غانم من التأثير في شوقي « بعنتره » ؟

يكاد لا يداخل ، قارئ هذين الروايتين ، ريبٌ في ان شوقي لم يتعرف الى عنتر غانم. وذلك لما بين حوادثها من التباعد والفروق . الا ان من ينعم النظر فيهما ، وان قليلاً ، يلمس بيده ما كان من تأثير غانم في شوقي بكيفية تركيب الرواية ، وطرق الموضوع ، وكيفية ايجاد العقدة وحلها.

فكيف نظر غانم الى الموضوع ؟

---

١) مجنون ليلى ، ص ١١٢-١١٤ ، ١٢٢

٢) « مجنون ليلى » ، وفادات المجنون الى ليلى : وفادة ابن ذريح ، ص ١ . . . ووفادة ابن عوف ص ٢٨ . . . ثم مقابلة المجنون ليلى وورداً زوجها ص ١٠٢ . . . وفي غير « المجنون » كثير من هذا.

عنتر العبد ، الراعي ، ابن الأمة تعشق ابنة الامير فبادلته حبه . ولكن كيف السبيل الى الزواج وبينهما ما بينهما من الفوارق الاجتماعية ؟ على عنتر ان يأتي اذاً بافعال تحببه الى الجمهور ، وتجعل سيد القبيلة مديناً له بخدماته . وهكذا كان اذ ذاد عنتر في مواقف عدّة عن القبيلة وحقوقها ، وفتك بغزاتها . ولما كان مالك شهماً يقرّ بالجميل ويجازيه ، بادل العمل الجميل بعمل اجمل ، وحلّل يد عبلة ، ابنته ، لعنتر فتمّ الزواج .

اما شوقي فنظر الى الموضوع من الناحية التي نظر اليه منها غانم فجاءت العقدة هي هي في غانم وشوقي . الا ان هذا الاخير جعل مالكاً لئيماً ظالماً لا سبيل لارضائه . . . فكانت النتيجة ان اختطف عنترة عبلته وتزوجها قسراً .

ثم ان شوقي لم يخرج من تقليد غانم في مسائل استخدمها هذا تحسيناً لفنه الروائي كالتي استعملها ليزيد شخصية عنتر ظهوراً اذ جعل عنتر جد الدعاة الى الوحدة العربية . . . هي دعاية في غانم اجل ! الا انها دمجت في صميم الموضوع فخفّت وطأتها تماماً ، فكانت راضخة للفنّ معينته على امره ، فيما اظهرته من الصفات المجيدة في عنتر .

فما كان من شوقي الا ان علق بهذه الدعاية وجعل عبلة لا عنتر — وذلك للتمويه والتضليل — بطلتها الكبرى فجاءت نافرة لا صلة لها بالرواية ، ولا نفع لها في خدمة الفن الروائي .

واظنّ ان غانماً كان اشد تأثيراً في شوقي مما ذكرت وذلك بدفع الاول الثاني الى محاكته ، ردّاً سابقاً على القائلين بتقليده له .

في غانم ، عنتر هو الذي يدعو الى تحرير العرب ، وفي شوقي عبلة .

في غانم يظهر مالك وعليه صفات السيد العربي من حلم وشهامة . اما في شوقي فيظهر لئيماً خسيساً ناكر الجميل حسوداً .

في غانم يتزوج عنتر عبلة عند رضى القوم ورضى ابيها . وفي شوقي يتزوجها اغتصاباً رغم انف القوم وانف ابيها .

في غانم يظهر عنتر الحقيقي ، ذاك البطل المقدام العفيف كما صوّره لنا التاريخ وضخّمته الاسطورة . فلا يجتمع بعبلة قبل الزواج ، ولا يحدّثها عن حبه

لها. وفي شوقي نرى عنترة يجتمع الى عبلة غير مرة ، ويغازلها في كثير من المواقف ، ويتوصل اخيراً الى اختطافها من ركب بني عامر، فلا نعرف فيه صاحب القول:

اغشى فتاة الحي عند حليلها واذا غزا في الجيش لا اغشاها

وما الى ذلك مما احب شوقي ان يعاكس فيه غائماً فجاءت معاكسته له مخالفة حقيقة الواقع كما يصورها التاريخ وكما تتناقلها الاسطورة في كل عصر ومصر. فضلاً عن انه لم يوفق الى ما توخاه ، بل بالعكس ، فظهر تأثير غانم فيه سلبياً وايجابياً . . . كما رأيت.

وقبل الانتقال الى موضوع آخر احبّ ان اعرض للقارئ حادثة استنتجها غانم ، ولم يتراجع عن استخدامها شوقي ، فيكون لنا فيها مثال على طريقتي غانم وشوقي ، في تنسيق الرواية التمثيلية.

يزاح الستار عن الفصل الاول من « عنتر » غانم ، فيكون الحي قد سبي ويكون عنتره قد اعاد عبلة ومن معها من السبيات الى آلهن. فنرى، في المشهد الاول منه ، القوم يلهجون باسم عنتر وفضله ويتحدثون عن اعماله ومآتيه.

اثر هذا المشهد في شوقي فبنى عليه ثلثي الفصل الاول من الصفحة الاولى الى الصفحة ٣٥ -- وينتهي الفصل عن ٤٦ صفحة -- حيث نرى الحي يسبى وعبلة تدافع عن نفسها دفاعاً قوياً الى ان تغلب على امرها وتقاد مع السبيات، وحيث نرى عنترة في غطيطه وشداد ومالك يوقظانه طالبين نجدته للمدافعة عن الحي . . . فيرضى بعد قيل وقال ويكرّ فيعود بالسبايا ويتم له النصر وينادي في الحي بالغلبة للعبسيين ، فيغتبط الجمهور ، وينتهي شوقي حيث ابتدأ غانم . وقد يكون دافع شوقي الى هذا التطويل رغبته في استيعاب ما ورد في الاغاني[1] من حديث طويل رواه ابن الكلبي اذ قال :

« ان بعض احياء العرب اغاروا على بني عبس فاستاقوا من ابلهم فنذيم العبسيون ليستنفروا اموالهم فقال شداد لابنه : كرّ يا عنترة . فقال : العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلاب والصر . فقال : كر وانت حر . فكرّ وقاتل قتالاً حسناً فادعاه ابوه والحقه بنسبه »

١) الاغاني – طبعة بولاق – ص ١٤٦

وهاك ما ورد في شوقي[1]

شداد : اصجعة ، يا عبدُ ، والحيّ سبي

عنترة : من المنادي؟ سيدي! صوت ابي!

شداد : ماذا يقولون غدًا في العرب ؟
يا ابن شداد!

عنترة : ما انا ابن شداد ولكن عبد يوم ويسي
لست من عبس ، لا ، ولست لك ابنًا لون امي افاتني منك حتي

شداد : قم ، يا فتى عبس ، انهض ذر عن حربي رعني
اذا رددت البايا فانت عنترة ابني

ولم نورد هذا المثل الا ليتمرّن القراء الى طريقة شوقي في التأليف والتنسيق ، فتخف عليهم وطأة المفاجأة نوعاً . ثمّ اوَ ليس في هذا الكلام برهان جديد على تقيد شوقي بحوادث التاريخ ؟؟ ... بقشوره ، كما شهدت ؟؟

امّا الآن وقد اطلنا الكلام عن المصادر فنختم هذا البحث ، منتقلين ، في بحث آخر ، الى الفن في روايات شوقي ، مظهرين مذهب هذا الشاعر في الرواية التمثيلية وما لهُ في ذمة التاريخ من الفضل عليها ... او ما لها عليه .

---

(١) عنترة — ص ٢٤ وما يليها

الامير دي جوانفيل في شمالي لبنان

اثر خطي عن رحلة ابن لويس فيليب ، ملك فرنسة ، الى لبنان

نشره لاول مرة واضاف اليه بمقدمة وتعاليق

الاب اغناطيوس طنوس كفرشخنا الراهب اللبناني

تمهيد

حكاية المخطوطة

لما عهد غبطة بطريركنا المفدى ، مار انطون عريضة السامي الاحترام ، برئاسة المدرسة البطريركية في قصبة زغرتا الى حضرة القس سمعان عاقله ، في صيف سنة ١٩٣٣ ، انتدبنا حضرته مساعدًا له في ادارة المدرسة مع القيام بتدريس الافرنسية والعربية لصف واحد . وفي شتاء تلك السنة المدرسية (١٩٣٣—١٩٣٤) كان يتردد الى المدرسة صديق حميم لرئيسها هو حضرة الوجيه السيد سليم طربيه من سبعل . وعندما تعارفنا لم يكن حظنا من صداقته باقل من حظ الرئيس . وفي بعض الاحاديث ، طلع علينا بخبر تاريخي استرعى الانتباه كله ، وهو انه يحفظ في خزانة كتبه القيمة مخطوطة جميلة موضوعها وصف زيارة الامير دي جوانفيل بن لويس فيليب ، ملك فرنسة ، الى البيت الكرمي والارز سنة ١٨٣٦ . فاصاب ذلك الخبر من قلبنا الوقع الطيب ، وسألنا السيد طربيه ان يتكرم علينا بهذه المخطوطة لنبعثها من الطي الى النشر . فوعدنا بها الى اللقاء الثاني ، ووعد الكريم صدق . فاقبل علينا بالمخطوطة المنتظرة ، وما تركها لنا حتى تأكد منا العهد الوثيق على نشرها والتعليق عليها . فشكرناه جزيلًا وانفردنا بها نقلبها ونتصفحها ، فالفيناها واقعة في ١٧ صفحة ، طولها ١٦ س .

في عرض ١٠ س. ذات خط حسن من النوع الكنعي البسيط ، وورق عادي صقيل متين ، اورد فيها مؤلفها ، وهو شاهد عيان ، تفاصيل دقيقة وافية عن مقدمات رحلة الامير دي جوانفيل في المياه الشرقية ، وكيفية وصوله الى ثغر طرابلس ، وصعوده الى اهدن ، وزيارته الارز ، وما جرى له فيه وفي البيت الكرمي ، ووقوفه اشيناً لابنة الشيخ بطرس كرم ، كل ذلك باسلوب مسجع ، يبدو فيه التكلف ، ولكنه ذو قيمة في ذلك العصر المتأخر بالشؤون الادبية . وقد رأينا المخطوطة جديرة بالنشر لما فيها من الفوائد التاريخية ، ولكونها الوحيدة من نوعها لم ينسخها ناسخ ولم ينشرها مؤرخ بعد.

خطها ــ مؤلفها

اما الخطاط الذي كتبها فهو الشيخ حبيب عواد من حصرون ، ابن الخوري يوسف من صلب الشيخ ابي سليمان عواد القديم الشهير . له اليوم حفيد من ابنه خاطر هو الشيخ شكري عواد الموظف حالياً في ادارة الجمرك بالاسكندرونة. كان خطاطاً مشهوراً في عصره يجيد الخط العربي والسرياني كما تدل عليه آثاره الخطية الرائعة في كثير من الكتب الطقسية في كنائس حصرون وبعض كنائس شمالي لبنان . وقد كتب في ذيل الصفحة الاخيرة من مخطوطتنا هذه العبارة :

« كتب هذا الكراس عن اصله حبيب عواد لجناب الخواجا طوبيا طربيه الابجد في ٥٥ ايار سنة ١٨٣٧ صح صح صح . »

كما انه كتب على الصفحة الخارجية الاولى من المخطوطة هذه الكلمة :

« تخص جناب الخواجه طوبيا طربيه المحترم . »

اما مؤلفها فقد ترجح لنا ، بعد البحث الطويل ، انه طوبيا طربيه ، مقتنيها ومستنسخها بحرص واعتناء ، الذي يرد ذكره مراراً في تضاعيفها ، وقد واكب الامير في من واكبه من المشايخ والاعيان من اهدن الى الارز ذهاباً واياباً ، ولازم حاشيته طيلة وجوده في الشمال ، فوضع مشاهداته في هذا الكراس الفريد بنوعه في كل البلاد . وهو من اسرة طربيه السبعلية ، من انبل الاسر اللبنانية ، وجدها هو العلّامة الشرقي الشهير المطران اسحق طربيه الشدراوي.

الامير دي جوانفيل ، بطل المخطوط

هو فرنسوا - فرديناند - فيليب لويس ماري دورليان ، المعروف بالامير دي جوانفيل ، ثالث اولاد لويس فيليب ملك فرنسة . ولد في بلدة نويلي - سور - سان ، القريبة من غابة برلونيسة على ضفاف السان . دخل في مدرسة الجيش البحري سنة ١٨٣٤ ؛ وتعين ضابط دارعة سنة ١٨٣٦ . ولما ابلى احسن بلاء سنة ١٨٣٩ ، في احتلال حصن سان جان دولوا ، وامام قيراكوز ، كوفئ بالترقية الى قائد دارعة . وسنة ١٨٤٠ احضر الى فرنسة رفات نابوليون . وسنة ١٨٤٣ اقترن بالاميرة فرانسواز دي براغانس شقيقة بطرس الثاني امبراطور البرازيل (١٨٣١-١٨٨٩) ، ورزق ولدين : فرنسواز التي وُلدت سنة ١٨٤٤ وتزوجت من دوق دي شارتر سنة ١٨٦٣ ، وبطرس دوق دي بانتييفر الذي ولد سنة ١٨٤٥ . وكان ، في سنة ١٨٤٣ ، قد تعين اميرال الاسطول الفرنساوي واعطي لقب « امير فرنسة القديم » ، وسنة ١٨٤٤ تولى قيادة الحملة البحرية التي دمّرت ثغر موغادور على شاطئ الاطلانتيك في مراكش . وقد ابرز بثورته الحامية على وزير ابيه ، غيزو ، زعامة شعبية كبرى . وسنة ١٨٤٨ لحق بوالده المتنزل عن العرش الى المنفى . وعبثاً ازداف سنة ١٨٧٠ الى حكومة « الدفاع الوطني » ، وحاول ارضاءها بمجهودات عنيفة وخدم جلّى ذهبت ادراج الرياح . لكنه في سنة ١٨٧١ انتخب عضواً في المجلس الوطني ، وردّ عليه منصبه في الاميرالية البحرية . وفي سنة ١٨٧٥ اعتزل السياسة وقضى حياةً منفردة الى ان توفاه الله في باريس سنة ١٩٠٠ ، وهو من شخصيات فرنسة ورجالاتها اللامعين . ترك مؤلفات قيمة في شؤون البحرية الافرنسية مع كتابٍ نفيس ضمنه مشاهداته وتذكاراته من سنة ١٨١٨ الى سنة ١٨٤٨ واسماه مذكرات قديمة ، « Vieux souvenirs » طبعه في باريس سنة ١٨٩٥ .

موضوع المخطوط في نظر المؤرخين

اهتمّ المؤرخون المعاصرون لزيارة الامير دي جوانفيل هذه ، وكتبوا عنها

نبذًا موجزة لكنها طريفة وعلى اهمية من القيمة التاريخية . واول ما يجمل بنا ايراده من اقوالهم ما كتب الامير دي جوانفيل نفسه في كتاب مذكراته الذي تقدمنا ذكره منذ هنيهة. وهذه ترجمة ما جاء بالحرف في صفحته ٩٨-٩٩ :

« ومن طرابلس سورية توقلت في جبل لبنان حتى قمته[1] فوقع نظري على مشهد من البلاقع والمجاهل فسيح الارجاء ، سحيق الاطراف ، تتوسطه خرائب بعلبك وصحاريها . وهناك تحت ظلال الارز الجبار كانت لنا مأدبة برية (او حقلية) (champêtre) مع بطريرك لبنان[2] ورهبانه[3] . »

ثم يقول : « وفي اهدن ، حاضرة الموارنة وعاصمتهم ، استقبلني الشيخ بطرس كرم ، الشيخان من الايام ، باعظم ما يمكن من الحفاوة الملوكية . واريق عليّ من ماء الورد العطر ما كدت اكون تحت وابله الغزير في حمام او منطس ، حتى انني انفت من رائحته على عطريتها الزكية . وقد كان وصولي اهدن موافقاً عيدًا عظيماً فيها يشغل الاحتفاء به شعبها بجملته ، وهو عرس ابنة[4] الشيخ بطرس كرم . وكل الامة الماروتية (كذا) قد هرعت الى هذا العرس في ملابس العيد ، وهي اروعة جمال في الوجوه الصبوحة والقدود الميناء . يسترعي افرادها الانظار خصوصاً بملابسهم وعمائمهم الشرقية اللبنانية . وقد وقفت شاهدًا (إشبينًا) للعروس ، فوضع على رأسها ورأسي ايضاً اكليلان متساويان ، وتت الاحتفال برتبة الاكليل الكنسية . واذ ذاك ارتجفت العروس تحت خمارها فوقع الاكليل عن رأسها . وبعد الرتبة قابلتني سافرة دون خمار ، فاذا بها على اسمرار جميل للغاية في زي معجب جدًا . على انها لا تعد من الغانيات . »

وممن كتبوا عن زيارة هذا الامير لبيت كرم[5] والارز ، المطران نقولا مراد

---

١) اي قمة الجبل الذي فوق الارز رأسًا ، كما سترى في النص المخطوط .

٢) هو البطريرك يوسف حبيش الشهير .

٣) يريد الحاشية البطريركية من الكهنة العالميين الذين خالهم رهبانًا .

٤) كانت التي تكللت على الشيخ نفسه الشيء كما سيجيء .

٥) اشتهر البيت الكرمي في اهدن بثيابته وحسن استقباله اشتهاره بتأصله في النبل والمجد . وقد حلّ فيه كثير من العظماء والوجهاء . نذكر منهم في القرن الاخير الكونت

الماروني من قرية عرامون كسروان في صفحة ١٩ و٣٦ من نبذة تاريخية عن الموارنة وعلاقاتهم بفرنسة ، طبعت في باريس سنة ١٨٤١ . وما جاء فيها عن الزيارة ستقرأه مفصلاً في نص المخطوطة مما قليل . فلا حاجة الى اثباته هنا .

ثم نسيم نوفل ، كتب عن موضوع المخطوطة بعض الشيء في كتابه « بطل لبنان » المطبوع بالاسكندرية سنة ١٨٩٦ ، صفحة ٢٥٣ . فوصف بالاخص حفلة الزفاف بكل دقائقها مما سنثبته في حاشية خاصة عند ذكر المخطوطة .

واخيراً جاء حضرة البحاثة الفاضل الخوري اسطفان البشعلاني بكتابه القيم الضافي عن تاريخ بطل لبنان وعنوانه « لبنان ويوسف بك كرم » . فاستعان باكتب المطران مراد ونسيم نوفل ، على ما دونه حضرته عن زيارة دي جوانثيل للبيت الكرمي في كتابه المذكور صفحة ١٣٥ و١٣٦ و١٣٧ . فعليك بذلك هناك .

واليك ، بعد هذه التفاصيل ، وصف زيارة دي جوانثيل للارز والبيت الكرمي في نص المخطوطة بعبارتها المسجعة وحرفها الواحد :

دي جيرامب ، من الرهبان الكبوشيين ، في ١٨ ايلول ١٨٣٢ ؛ ثم الشاعر الفرنسوي الكبير الفونس دي لامرتين في اول نيسان ١٨٣٣ ؛ ثم الامير دي جوانثيل بطل مخطوطتنا ، في السنة ١٨٣٦ . وحلّ الدار الكرمية سنة ١٨٣٩ ابراهيم باشا الفاتح المصري . ثم المرنشور ميلن الرحالة النسوي الشهير سنة ١٨٤٨ . وكذلك اقام في ضيافة هذا البيت اوجين بوجاد ، قنصل فرنسة العام في بيروت بعد السنة ١٨٦٥ . ثم الكونت دي پاري ، ولي عهد فرنسة ، سنة ١٨٦٠ . وفي السنة التالية زارها فؤاد باشا ، ناظر خارجية تركية ، ورئيس اللجنة الدولية للنظر في حوادث ١٨٦٠ . وممن زارها من العظماء البرنس اوف وايلس ، ولي عهد الملكة ڤيكتوريا سنة ١٨٦٢ . ثم ولي عهد سكسونية . وأكثر متصرفي لبنان قبل المرب . والكثير من القناصل والقوّاد والاميرالية الاجانب ، وجمّ غفير من كبار الرجّالة ، ورجال الدين والدنيا من شرقيين وغربيين .

[١] تذكرة

بزوغ شمس سليل السلطنه الفرنساويه

في اقاصي الديارات الشرقيه

١ مقدمات الباعث وظروفها[١]

ان جلاله الملك المهاب المنتصر ، لويس فيليبوس الاول المظفر[٢] ؛ سلطان الجماهير الفرنساويه ، وصاحب العزه القيصريه ؛ لما تسنم معالي ذروات العز والافتخار ، وجلس على سرير سلطنه فرنسا ذات الاقتدار ؛ قد وجه فكره الشفاف ، نحو اشباله الاشراف ؛ مؤثرًا ان ينظم كلًا منهم بمقام ، كما حسن لرأيه الملوكي المقوام . فاخص النجل الاول[٣] ذا اللطافه ، والمتولي بعده الخلافه ؛ بشرف مقام سام ، اي سر عسكر[٤] عام . واخص النجل الثاني المصان[٥] برياسه الالايات الخياله الفرسان ؛ ومعيناً بصمصامه الابتر ، لسعاده اخيه الاكبر .

اما النجل الثالث المجيد ، والشبل الفتاك العنيد ؛ العالي الشان ، والمتوقد الجنان ، الاثيل الامير فرديناند دورليان ، برنس دي جوانفيل ؛ قد حسن لارادة ابيه السنيه ، ان ينظمه مع الجيوش البحريه ؛ لكي بعد ان يتقن

---

١) ان كل ما ترى من العناوين المتسلسلة والنقط والفواصل « ، » والرجوع الى السطر عند اللزوم هو من وضعنا .

٢) ابن الامير فيليب ايگاليته والاميرة لويزا دي بوربون . ولد في باريس سنة ١٧٧٣ تسنم عرش فرنسا سنة ١٨٣٠ . تركه سنة ١٨٤٨ لحفيده الكونت دي پاري الذي كان والده دوق دورليان قد مات سنة ١٨٤٢ . ونفي الى كلارمون بانكلترة حيث توفي سنة ١٨٥٠

٣) دوق دورليان شارل مغري المعروف بدوق دي شارتر الذي ولد في باريس سنة ١٨١٠ وتوفي سنة ١٨٤٢ ، وهو والد الكونت دي پاري ، ولي عهد فرنسا المذكور .

٤) إصطلاح تركي معناه رئيس العسكر وقائده .

٥) دوق دي نيمور لويس شارل فيليب . ولد في باريس سنة ١٨١٤ وتوفي سنة ١٨٩٦

استعلام هذه المعجه ، يحوز الارتقاء درجه فدرجه ؛ حتى الى وظيفه سرعسكر البحار ، وضابط عمارات دولته البحريه في كافه الاقطار .

ففي الحال لبى هذا الابن المطواع ، صوت جلاله ابيه المطاع ، وارمى بنفسه في البحار العباب ، رهينه السفن والاخشاب . واذ كان الامر معلوماً من عامة الانام ، ان ضابط العمارات البحريه العام ؛ يلتزم في كل الممالك ، ان يخوض جميع البحور ويتجرع التهالك ؛ فلهذا قد التزم هذا النجل المنصار ، ان يستتبع هذه الاثار ؛ فيتدجج بقوى اسلحه الرحمن العاليه ، ونهج اولاً بلاد ايطاليه . ثم سار ثانيه بنفس سارّه ، ناجماً جهات انكلاتره . واخذ ثالثاً يقطع البحور [٢] وينحو جزاير اسور[1] ؛ خايضاً بعزم نشيط ، مخايض البحر المحيط . وفي الرابعه قد اثر القرب ، الى جزاير العرب . ثم قاء بعدُ من هذه الاسفار الشاسعه ، الى المدينه المتملكه باريز الشمس الساطعه . فتقدم بامر عظمه ابيه المزوم ، الى فحص فاحصي غزاه البحور حسب الرسوم . فظهر بعد الفحص فطحلاً شجاعاً ، وبطلاً جراعاً ؛ متعمقاً بهذا الفن ومتعلقاته ، ومدركاً كامل غاياته . فنال من ابيه بالمحظوظيه ، وبالاحرى ، قد حاز التقدم من وظيفه الى اخرى . ولا زال يرتقي سؤدد المعالي ، ويتولى المراتب والموالي ؛ الى ان حاز من الوظايف العظام ، رتبه قيقام .

٢ً العزم على السفر والتأهب له

ثم راق ايضاً لاراده ابيه السنيه ، ان يرسله خامساً نحو الاقطار الشرقيه ؛ فلبى صوت ابيه الخطير ، واسرع للسفر دون تأخير . ولما حل بركابه الشريف المصون ، في احدى مدائن فرنسا المعروفه ببطولون[2] ؛ الشهيره بيننا الحروب ،

١) وبالافرنسية (Açores) وهي مجموعة جزر في الاوقيانس الاطلانتيكي الشمالي على ١٣٠٠ كيلومتر من البورتوغال ، وعددها ٩ : سانت ماري ، سان ميشال ، تيرسايرا ، سان جورج ، غراسيوزا ، فايال ، بيكو ، كورفو ، فلوريس . وكلها اليوم تحت الحكم الافرنسي .

٢) من اعظم الثغور الحربية ، موقعها على الشاطئ المتوسط شرقي مرسيلية . وسكانها اليوم ١١٥٬١٣٠

والترس الموقي من الخطوب . فتأهبت هذه لاستقباله ، مبتهجة باقباله ؛ واثارت المدافع براً وبحراً من جهاتها الاربع ، فتدت اصواتها كالرعود من كل مربع . واذ كان قد خرج الامر الكريم الموقر ، من سعاده وزير ومدير امور البحر المظفر ؛ ان يعدّ لركب سعاده الامير المومى اليه مركوباً اميناً ؛ وهو احدى الفراتاكات المعروفة بالالايفجينا[1] الشهيرة بحمول معلوم من المدافع ستون مدفعاً ، ومن الرجال خمسمايه واربعه عشر جدعاً[2] ؛ تحت مناظره الرجل الشهير الامين ، تيودان باشي المعروف في برسفال دوشين[3] . وأعدّ ايضاً بصحبتها البريك[4] ، المسمى دوكديك[5] ؛ الشهير بحمول معلوم من المدافع اثنان وعشرون مدفعاً ، ومن الرجال مايتان وستة عشر سعيداً[6] ؛ تحت مناظره الرجل الباسل النششم ، الكومندانت بويت المفخم[7].

---

١) محرفة وصوابها ايفيجينيا Iphigénie او Iphigénia ، وهو اسم تاريخي شعري لابنة اغاممنون بطل الاغريق الاعظم ، وقد قدما ابوها ضحية الى الآلهة ليتمروه على اعدائه الطرواديين . اتخذ قصتها نوابغ الروائيين موضوعاً لاعظم آثارهم التمثيلية مما هو زينة اهم المراسح في العالم . ولشهرة هذه الابنة اطلق اسمها على الدارعة التي اقلت دي جوانفيل في سياحته هذه . وقد ذكرها هو في « مذكراته القديمة Vieux souvenirs » ، صفحة ٩٤

٢) لفظة عامية يراد بها الشجاع .

٣) Parseval Deschênes ، وهو الكندر فرديناند اميرال الاسطول الفرنسي الشهير . ولد سنة ١٨٠٩ وتوفي سنة ١٨٦٠ . وجاء ذكره في الكتاب المذكور : « المذكرات القديمة » صفحة ٩٤

٤) لفظة افرنسية (brick) معناها مركب شراعي ذو صاريين مربعين .

٥) تحريف دوكريديك Ducouédic وهو اسم شهير . قدم لشارل لويس احد ضباط البحرية الافرنسية البلاء . ولد سنة ١٧٦٠ ومات صريع الوغى سنة ١٧٨٠ ، وتخليداً لذكره اطلق اسمه على هذه السفينة المذكورة ايضاً في كتاب « مذكرات قديمة » صفحة ٩٣

٦) والصواب سَعِيْدَع معناها السيد الكريم الشريف الموطأ الاكناف والشجاع . وغلط من كتبها بالدال المهملة وضم السين .

٧) محرفة ايضاً وصحيحها بُروا (Bruat) وهو اومن جوزيف الاميرال الافرنسي المشهور ولد ١٧٩٦ وتوفي سنة ١٨٥٥ . وكان رفيق دي جوانفيل في هذه السياحة ، كما ورد ذكره في صفحة ٩٣ من المذكرات المعهودة .

٣ً الشروع في السفر

ومن ثم قد تحرك ركاب سعادته السعيد ، الى هذا السفر [٣] البحري المديد . ولما دنا من جزيره مالطه ، بنفس رضيه غابطه . فلم يرغب ان يتحول عن التيار ، بل ظل خايضاً البحار ، وقاطعاً الطرقات ، من غير التفات . ولما بلغ لمدينة اتينا الزهيه ، الشهيره بكرسي المملكه الروميه ؛ فحصل هناك لمقامه المفخام ، استقبال ملوكي سام . ثم تحرك من هناك بالمسير ، الى ان بلغ ازمير ؛ ومنها الى رودس ، ثم جزيرة قبرص . ولما انه اقترب من لاذقيه العرب ، فلم يشاء ان يدنوا الفراكاته الى المرسى ، ولا ان يلقى به مرسى . بل اخذ قلوكة صغيره ، وبمعيته قبودان باشي واتفار يسيره ؛ وخرج للاسكلة المومى اليها ، فاقام نحو ثماني ساعات فيها . ثم انعكف للادبار ، لتكميل ما عليه من الاسفار .

٤ً الوصول الى ميناء طرابلس

ولما كان اليوم الـ ٢٩ من شهر ايلول النفيس ، والساعه الـ ٩ من النهار المعروف بالخميس ، وسنة المسيح الجزيله الشرف واللطف ، الواقعه في عدد ست وثلاثين وثمانمايه والف ؛ قد اشرقت شموس هذا النجل الهمام ، في نواحي مدينه طرابلس الشام . واذ كان موجوداً بهذه المدينه ، الشاب اليقظ اللطيف ، والرجل الفطن الشريف ؛ الحميد الشيم والمزايا ، والحسن المناقب والسجايا ؛ مسيو جقروا[1] القرنساوي المكرم ، قنصل دوله فرنسا المفخم . فهذا اذ شام اقبال المراكب ، ولم يبدر من هو الراكب ؛ فمن دون ان يخلع عنه ملابسه الغير الزرينه ، ويتسربل باسمال[2] الوظيفه ؛ قد قام فوراً وبمعيته الكنشلير ،

---

١) جهدنا كثيراً لتعريف هذا القنصل فلم نظفر بذكر له ، لا في مذكرات دي جرانفيل ولا في قاموس الاعيان العام .

٢) يعني الاثواب . والاسمال : ج. سَمَل وسمناه الثوب المَلَق البالي . ولم يقصد به المؤلف هذا المعنى .

وجد كلاهما بالمسير ؛ لينظرا من المفاجي ، وهل ثم خبرٌ ومناجي . فلما بلغا المينا حيث الشاطى ، واذا بفلوكه مقبله عليهما من غير تباطى ؛ وضمنها احد ملازمي عسكر فرنسا المنصور ، اتياً لاحضار القنصل المذكور . فسأله القنصل من هو كومندانت الفراكاته القادمه ، وما هي المأموريه اللازمه ؟ اجاب الملازم بانه لا يعلم شيئاً اخر ، سوى ان النجل السعيد المظفر ، سليل السلطنه [٤] الفرنساويه ، قادم بهذه الفراكاته الزهيه ؛ وهو صاحب الامر الجزوم ، في احضار القنصل المرقوم . فارمى على الفور القنصل والكنشليز نفسيهما بالسفينه ، وسارا عاجلين من غير سكينه . فلما انتهيا للفراكاته السعيده ، قيل لهما ان سعادته جالس على المايده . فبلغ خبر وصولهما المقدم ، لسعاده قبودان باشي المفخم . فنهض حالاً عن الطعام ، واستقبلهما بكل انس واكرام . وبعد ان حياهما بالسلام ، احجم فوراً لدى النجل المهام . فاستأذنه بادخالهما لديه . فدخلا وامتثلا بين يديه . فحازا من لطفه الرفق والهشاشه ، اذ صادفا منه كل لطف وبشاشه . ثم امرهما بالجلوس ، فجلسا طايبي النفوس .

في السعي لزيارة الارز

وبعد هنيهه اظهر للقنصل المار ذكره ، ما ارتاح اليه ترقد فكره ، سايلاً اياه ان كانت تمكن زياره ارز لبنان ، بعده ثلاثه ايام من الزمان . فاجابه القنصل بالايجاب ، وانه ليس هو من الامور الصعاب . فامره حينئذٍ بسرعه التأويب[1] ، لاستحضار ما يلزم من المراكيب . وانه في الساعه الثامنه من النهار الثاني ، تسيكون السفر الملوكاني .

فلياه القنصل مسرعاً بالرجوع ، وتمم المأموريه من غير هجوع . واذ كان القنصل يعلم بتحقيق ، لزوم سعادته لقطع ليلتين بالطريق ؛ فسبق ولحظ ان المحل الموافق المدين ، هو القريه الشهيره باهدن . حيث ان هناك يستولي على نهار سفر سعادته الاسفار[2] ، ويلتزم به لاخذ الراحه من عي الاسفار . واذ كان

١) اي المآب والرجوع . اعتمده المؤلف للسجع .

٢) عبارة مضاربة المعنى والمبنى تفسرها الجملة بعدها : « لاخذ الراحة من عي الاسفار » .

متقدم المحل المذكور ، معلوماً بل ومحبوباً من القنصل المنفور[1] ؛ وهو الرجل الماروني الشريف النسب ، الزكي العرف والفسيح الرحب ؛ المحب الدوله الفرنساويه العظمى ، الشهير بالشيخ بطرس كرم[2] اسماً ومسمى. فلهذا امسك القنصل [ه] ساعياً (وسولاً) بالحال ، وارسله للشيخ المومى اليه من غير امهال. فاخبره ما وقع عليه الخاطر ، من صاحب السعاده والمفاخر . وان توجه سعادته هذا سيكون بصفه سايح في النبراء ، لا كابن الملوك والامراء.

وعند غد ذلك الصباح ، المعدّ للسفر الاغر المصباح ؛ قد حضر لدار القنصليه ، جناب الاجل الماجد المفرد ، السنيور جورجي كاتشفليس[3] قنصل الانكليز الامجد. ثم شقيقه الاجل الاحشم ، السنيور خريستوفي قنصل فرنسا المحترم. ثم افتخار الأماجد الكرام ، الحاج صالح افندي وكيل متسلم طرابلس الشام[4]. واظهروا للقنصل ما جوته الاراده، وانهم آتون لملاقاه صاحب السعاده. فتوجهوا والقنصل من غير احجام ، وصحبتهم جمع من الخدام ؛ آخذين بجد الذهاب والمسير ، الى حيث هو سعادة الامير. وفيما هم بوسط الطريق مجدين الاقدام ، واذا بسعادته قادم على الاقدام ؛ وبمعيته احد الملازمين الشهير بالكولير اتوته[5] المنازي ، ووكيل الاسكلة المعروف بمصطفى غازي ، فتقدموا لاستقباله ، وتشرفوا بتبلة اذياله . وقدّم القنصل لديه الخيل المعده لركوبه ، واعرض ان اهبه السفر تهيأت حسب مرغوبه . فامر ان ترسل عشره روس من الخيل اخرين ، لركوب ساير الاتين . منهم مسيو برنيت وقبودان باشي ، وسته

---

١) اي المكشوف. عنى بها المذكور او المعروف لاستقامة السجع.

٢) والد يوسف بك كرم.

٣) او كاتسفليس. وهي من اثيل اسر الروم الارثوذكس في بلادنا ، اغريقية الاصل من جزيرة كورفو اليونانية في البحر المتوسط . برز منها شخصيات وجيهة اعتدها الدول المسيحية قناصلها في طرابلس.

٤) هو خلف مصطفى آغا بربر ، ولم نظفر باسمه على رغم بحثنا ، وعانا بمكتشفيه في بحوثنا عن تاريخ بربر الآخذين بتكوينه.

٥) احد رفاق الامير دي جوانفيل. وقد نشدنا اصل اسمه بالافرنسية في ام المراجع ، فوجدناها مع « المذكرات الندية » ايضاً غفلاً من اي ذكر لهذا الرجل وعائلته.

من الاوفيسياليه (الضباط) الحواشي. ولا سوى مما تقدم ، الا نفرين من الخدم. فلباه القنصل بما ذكر ، وارسل الخيل حسبما امر . ثم انعكف للاياب سايراً صحبة الركاب.

٦ً زيارة طرابلس

ولما بلغ سعادته للمدينه المحميه ، عرّج الركاب لحي القنصليه الفرنساويه. فاقام به يسيراً من الزمان ، وذهب للمدينة السابقة البيان. فجال كافة شوارعها واحياها، الى ان [٦] اكمل الغايه من سرّاها. ثم توجه نحو ذلك المحل، المعروف بالتل ؛ وكانت وقتيذٍ الساعه الثامنه من النهار، المرسومه لاخذ طريق الاسفار. ففي الحين عينه اقبل سعاده قبودان باشي وساير الاعوان ، فقر سعادته للركوب كالاسود الشجعان . وامر ان يكون المذكورون والقنصل من المسافرين بركابه الشريف ، ومعهم ايضاً الشاب الانيس والفرع النفيس اللطيف، الخواجه موسى بنبينو[1] ترجمان القنصلية الفرنساويه ، وجمهور من ابناء الديانه المسيحيه.

٧ً في طريق الهدره

ثم اخذوا يجدون السير ، بعدوٍ يحاكي خفة الطير. وقبل ان يناهزوا الوقود ، لمحل اهدن المعهود ، قد انتهوا الى طرقات شاقه شزونه ، ودخلوا العقبه الشهيره بجيرونه[2]. واذ كان هناك قد شاخ النهار وانهزم ، ودجن الليل واعتم ؛ وشق التيار ، وكثر العثار ؛ فاستحوذت عليهم عوارض الحيره ، واستولى جمهم ظلامُ البصيره. وفيما هم بهذه الحال المكفهرّه ، يقاسون نوايب شديدة مرّه ؛

---

١) بنبينو ، لفظة ايطالية معناها الولد الصغير . واصطلاحاً هي اسرة لاتينية نبيلة شهيرة نزحت الى طرابلس حول سنة ١٧٢٦ من جزيرة كورسكا ، فاقتسمت فرنسة اعضاءها تناصل ووكلاء قنصليا في طرابلس وحماه وبيروت.

٢) لفظة سريانية اصلها سُنْهُدُّا تصغير سُنْدُا ومعناها ارض وعرة ذات تلال ومناور. وهي طريق عقبة تطرقها الارجل صعوداً ونزولاً بين اهدن وساحل الزاوية وطرابلس . موقعها شرقي قريتي سبل وايلو وراء حرج اجبع الجميل.

اذا قد تخيّل امامهم رجل ماشي ، من رعاه المواشي ؛ فسُئل من القنصل : من ذا المؤانس ، بالليل الدامس . فاجاب المومى اليه ، بانه من رعاه مواشيْ الخواجه طوبيا طربيه[1] ، حبيب السايل ، ومجيب المسايل . ففرح القنصل اذ سمع حسن جوابه ، لا سيما اذ هو خاصة احبابه . وقال له فترغب اليك اذاً ان تكون من حفظة نعم ، وتدلج امامنا على القدم ؛ موقداً بازاينا مصابيح النار ، لتنقذنا من هذا العثار . فاباه الرجل من غير احتجاج ، واخذ بايقاد المصابيح والاسراج .

٨ً الاستقبال في اهدن

ولما دنوا من الوصول الى اهدن [٧] وتلك الطلول ، اسرع القنصل بارسال الخبر ، للشيخ بطرس المحرر . اما الشيخ المذكور اذ كان يؤمل هذا الاقدام ، قبل دجون الظلام ؛ قد كان صنع نهاراً الاستعداد الفاخر ، للقاء سعادة هذا الليث الظافر ؛ وخرج من القريه هو وبنوه وساير اقربايه ؛ وجمع غفير من خواصه واصدقايه ؛ سايرين مسافه بعض اميال ، ينتظرون اقبال صاحب الجلال . ولما اطالوا المكث وداهمهم الظلام ، وابطا سعادته عن الحلول والاقدام ؛ فاستحوذ على جمهم ضعف الرجا ، بتدومه بذلك الدجا . ولما حصاوا بهذا الارتياب ، انعكفوا للاياب .

وفيما هم في الهذيذ (الحديث) والمنافسه ، في ثالث ساعه من تلك الدامسه ؛ اذا قد وقف في بهرة جمعهم احد الشبان ، ونشر عليهم بشرى تدوم سعادته بذلك الان . فهبّ الشيخ وبنوه وجميع من حضر ، هبّة البارد عند ملتقى الشرر ؛ اخذين بايديهم المصابيح والشموع المسرجه ، متسابقين للملاقاه الشريفه المبهجه . واذ بعدوا قليلاً عن المحل ، واذا بركاب سعادته قد حل . فساروا امامه باحتفال طابت به النفوس ، حتى الى الغرفه المهيّاة للجلوس . فجلس بمكانه واجلس بحضرته كافه اعوانه . ثم حضر الشيخ المومى اليه (بطرس كرم) ، وامثل متهيباً بين يديه . وبعد ان استعلمه سعادته اخذه بالمشاشه ، وانثنى

١ مؤلف المخطوطة على رأينا ومتنبها ، راجع التوطئة .

يخاطبه بكل رفق وبشاشه . ثم اجلسه عن جانبه اليمين ، وهكذا اجلس ساير الحاضرين فاسدوه وجلاله والده القاهره ، مواجب الدبرات المتواتره .

٩ً الليلة الاولى في البيت الكرمي

وبعد ان مضت ساعه من الزمان ، واخذ راحته كل عيان ؛ فامر بسعادته باحضار العشاء ، فحضر فوراً حسبما شاء . فجلس على المايده واجلس باشماله الشيخ بطرس عن يمينه والقنصل عن شماله . ثم الملازم موسيو انزته المتبر ، وقبودان باشي المرقر ؛ والكومندانت [٨] بريت ذي الاكرام ، والاوفياليه الته الكرام . واذ كان الشيخ وقتيذٍ مهتماً بصدقه غير مظنونه ، بتزويج ابنته كاترين الكبرى المصونه بخطيبها الشاب الشهير المعروف بالشيخ نعمه العشي[1] ولد الشيخ لطوف . وانه في اليوم الثالث من تشريف سعاده النجل الامجد ، والثاني من تشرين الاول المحكم يوم الاحد ؛ ستكون حينيذٍ حفلة السرور والابتهاج ، باتمام اكليل هذا الزواج . فلهذا قد كان العريس يومئيذٍ بادي الاستعداد ، حسب عاده البلاد ؛ قاعاً محفله بذلك المغنى ، بالطرب والفرح والرقص والغنا . واذ كان المحفل ملاصقاً بيت العروس ، حيث وجود سعادته وساير الجلوس ؛ قمعوا وهم على المآكل ، ضوضاء العرس والمحفل : الطبول بالرجيج ، والزمور بالصفير والضجيج . فسال سعادته عن المغنى ، فأعرض لديه من غير استثنا . وبعد ان انتهى من المآكل ، قد رغب الذهاب الى المحفل . فذهب وبجيته جميع من كان ، واخذ يتفرس باعمال المكان . فاقام نحو ساعة من الزمان ، متعجباً في منظر كتا جديد العيان . ثم انعم على ارلى الرقص بما اراد . ونهض للرجوع والمعاد ، فراقه له الوسن والرقاد ، لاخذ الراحه من الطراد . فذهب لمخدع منامته ، وهكذا جميع عزوته .

١٠ً زيارة الاورنبوكب عظيم

وبعد ان خطف من النوم نحو اربع ساعات ، قد هبّ هبه النطاحل الى

١) اسرة شامية يرتقي اصلها الى اوائل القرن الرابع عشر . سميت بذلك لان جدها يقال عنه انه كان طاهياً ماهراً عند حاكم الشام .

الغارات ؛ مريداً بذلك السحر، تكميل ما عليه من السفر. فامر بشد الركبان، واخذ بالكد لارز لبنان. فسار وبمعيته خواصه وحواشيه، والشيخ بطرس وابنيه[1] وابن اخيه[2]؛ والخواجه طوبياطربيه والشيخ خطار الشدياق[3]، وغيرهم كثيراً من الرفاق، وركاب خيل وازلام، وشرذمه من الخدام[4].

ولما اقبلوا على ذلك الارز، المتقدم عنه الرمز ؛ فدخل سعادته والبقيه، تحت [٩] ظلال تلك الإشجار البهيه. واخذ يتأمل بنباتها الراسخ، ويتفرس بارتفاعها الشامخ. ثم جسامة اجسامها الجسيمه، المخبره عن احقابها القديمه. اذ قد بلغت كمية غلاظه احدى هذه الأشجار، استدارة خمسة باعات ورجال كبار. فتحقق حينيذٍ لدى سعادته والجميع، ان هذا الارز المقدس الرفيع، هو عين الارز المقطوع منه الخشب العظيم، الى هيكل سليمن الحكيم. بل هذا الذي كان به قول النبي داود اعظم برهان، وهو ان الصديق ينمو كالارز في لبنان. وقول النبي الاخر النبيل: «هلمي من لبنان يا عروسي للتكليل». وبالتالي هذا هو الارز المثنى بمدايح موتلفه، والمنعوت بتقريظات مختلفه ؛ بعبارات جزيله مؤسسه ؛ على الاسفار المقدسه. وناهيك من وجوده في سفح ذلك الجبل الاسيل الاملد، في بقعه جليله بشكل مفرد ؛ حاوي الماء العذب، والنسيم اللطيف الرطب ؛ والمناخ اللين الحسن، والمشهد الشهي السكن. وما احلا المقال الناذر، الذي قاله في مثله الشاعر:

وقانا نفحة الرمضاء نادٍ سقاهُ مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحهُ فحنى علينا حنوّ المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمإٍ زلالاً ارقّ من المدامة للنديم

١) يوسف بك ومخايل بك. ٢) حبيب بك كرم.

٣) هو ابن خال بطل لبنان وحميد الشماس الشيخ انطونيوس ابي خطار المؤرخ الشهير و «شيخ مشايخ الجبة» من قرية عينتورين الكائنة في بطن الجبل بين اهدن ودير قزحيا. وهي اسرة عريقة وجيلة جدهما الشدياق توما. تفرع عنها مشايخ بيت رفول في قرية اجبع ومشايخ بيت عبد النور في بشعي (عن قلائد المرجان المخطوط).

٤) وقال عن ذلك نسيم نوفل صفحة ٢٢٦، انه كانت تحمر المرفان بالمئات من اهدن الى الارز طول الطريق ذهاباً واياباً في ذلك الموكب الملوكي.

يصد الشمس أنّى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم[1]

فلهذا قد استوعب سعادته من ذلك مزيد السرور ، بل امتلأ من البهجه والحبور . واخذ يرسم بيده اللطيفه صوره تلك الاشجار الشريفه .

١١ بين دي جوانفيل والبطريرك الماروني

واذ كانت قد بلغت من الليل الماضي ، بشرى تشريف سعادته هذه الاراضي ، الى غبطه السيد الكلي القداسه ، والسامي اللطف والرياسه ، صاحب المجد القدمي ، لدوله فرنسا العظمى ، الشهير بمنار يوسف[2] بطرس بطريرك الطايفه الماروتيه ، في ساير الاقطار الشرقيه [١٠] . فحالما سمع غبطته بهذه البشرى السنيه بل المنة الكبرى العليه ، قد ارسل لاهدن كاتم اسراره ، لاستبار الحي المبارّ تذكاره ، لكي اذا ما تحقق غبطته اقبال سعادة صاحب الجلال ، يتوجه فوراً للقاء والاستقبال . واذ بلغ كاتم الاسرار لاهدن ليلاً ، واذا بسعادته وقتيذٍ متبلاً . فتقدم كاتم السر لناديه ، وامثل بين يديه . ثم اعرض للسامع الشريفه ، عن غايه مجيئه بتلك الليله الحالكه الكثيفه .

---

١) هذه الابيات لشاعر حلب الشهير ابي نصر المناذري . وهي في اصلها خمسة اعمل المؤلف خامسها وهو :

« تروع حصاه حالية العذاري فتلمس جانب العقد النظيم »

انشدها المناذري في حضرة ابي العلاء المعري العزيز حيث جمعتهما صدفة في الشام ، متنقلاً فيها يوسف وادي يزامعة قرب حلب . وبعد الانشاد قال له ابو العلاء : « انت اشعر من بالشام » . مرت على ذلك ٧ سنوات وجمعتهما صدفة اخرى في بغداد فانشده المناذري خمسة ابيات اخر على نفس الوزن والقافية . فقال له المعري : « ومن بالعراق » . عطفاً على قوله السابق في الشام ، قبل ٧ سنين . وهو مثال اعلى اقامه ابو العلاء من قوة الحافظة وشدة الذكاء وسرعة الابتداه . وحبذا لو ابقاها المؤلف على اصلها خارجةً من فم المناذري . ففي البيت الاول وضع « نفحة » عوض « لفحة » « ونادٍ » عوض « وادٍ » ، وفاته ان اللفح للحر والنفح للبر . وفي الثاني اتخذ حلنا بدل تركنا ، وهذا ما قال المناذري لا ذاك . ثم اخطأ في كتابة « حنى » والصواب « حنا » لان مضارعها يحنو كما لا يخفى . وفي الثالث اعتمد كلمة « ارق » مكان « الذ » ، وعهدُ المناذري بالثانية دون الاولى . اما البيت الرابع فيحمد الله على السلامة . واما الخامس فقد عمه الاهمال من تكبات اخوانه .

٢) البطريرك يوسف حبيش (١٨٢٣ — ١٨٥٥) .

فاخذه سعادته بوجه مانوس ، وامره بالجلوس. اما كاتم السر المذكور ، عندما تحقق الخبر المسفور ؛ فهمّ واخبر غبطته عجلاً ، وان يكن الوقت ليلاً.

ولهذا ففيما ان سعادته مفرّه الالحاظ الالميه ، يشهد تلك الاشجار البهاظ البهيه ؛ اذا بغبطه السيد الموسى اليه قد اقبل ، وبجميته جمهور من الخدام والحلل[1] واذ بلغ سعادته خبر اقباله ، امتلأ فرحاً وقاهب لاستقباله. ودلالةً على. انه سليل تلك العيله الملوكيه الشريفه ، المجمله بحسن الديانه المسيحيه الغرّاء المنيفه ؛ فلهذا حالما اقترب غبطته لحاه ، فرّ منتصباً وجدّ السير لمقاه ؛ وحيّاه تحيات التقاه الكرام ، واجلّ مقامه الروحي اجلالاً فايق المقام. وكان هكذا اول خطاب سعادته مع سيادته : « انه ليصعب عليّ جدًا مما الّم بسيادتك من الثقله والعنا ، في حضورك بسببي لهذا المنا ». فاجابه غبطته هكذا :

« يا له من امر عجيب ، وشرف سامٍ غريب ؛ الشرف الذي حازته هذه الامصار ، الامر الذي ما اخبرت عنه سوالف الادهار. وهو انه قد وجد ههنا فرع الشجره الملوكيه ، وسليل السلطنه الفرنساويه ؛ الحارسه في كل اقاصي البريه ، حسن الديانه المسيحيه [١١]. ومن ثم ليس اني فقط لم اشعر بسفري هذا على ادنى عناء او اذا (اذى) ، بل بالحري قد حزت حظاً سعيدًا ساميًا ، وشرفاً فريدًا متساميًا . حيث اني في هذا الوقت والمكان اللطيف ، قد تشرفت بمقابله شخص سعادتك الشريف. وسيكون لي سرور اعظم ، وشرف جزيل افخم ؛ اذا حصلت من منازلة سعادتك الوفيه ، على تشريفك الكرسي البطريركيه (قنوبين) ».

وعند انتهاء هذا المقول ، انشى سعادته يقول : « ان جميع الاقاصي الشرقيه ، منسوبه للبطريركيه الماروتيه . وامر معلوم ان اشرف هذه الاقاصي بل وكل الامصار ، هو ارز لبنان الكلي الشرف والافتخار. ومن حيث اني حصلت على زيارته الشريفه ، فافتكر كأني زرت ذات كرسيك المنيفه ». فحينئذٍ اخذ سيادته يسدي سعادته مواجب الدعوات الخيريه الوافره ، والتوسلات

---

(١) جمع حلة ومعناها المجتمع. عبّر بها عن كثرة الجمع القادم برفقة البطريرك.

التقويـــه المتواتره . وبسط اكف الابتهال والضراعه ، لدى صاحب الاستماع والشفاعه ؛ بحفظ عز جلاله ملك الفرنساويه ؛ وترس الديانه المسيحيه . وان يديم سرير سلطنته بالعز والاقتـــدار ، ويويد تميم دولته مدى الادهار . وبعد ذلك قد حسن لدى سعادته ، ان يكلف غبطته للجلوس لاخذ راحته ؛ فابى غبطته من الجلوس تلاطفاً ، حيث ان سعادته استمر واقفـاً . واذ شعر سعادته بذلك ودرى ، قد جلس فوراً على الثرى . ثم انه اعدَّ بيده الشريفه ، وسادته الظريفه اللطيفه ؛ فاجلس غبطته عليها بكل احترام . واخذ يلاطفه بعذوبة الكلام .

ولمـا حان وقت غداه ، كلف غبطته للجلوس حذاه . واخذ يستمثل نحوه واجبات المرايد ، بمناولة الاطعمه حسب العوايد . وجرت بعدُ محادثات [١٢] اخر انيسه ، بموضوعات عذبه نفيسه . فاتـــام سيادته بحضره سعادته نحو اربع ساعات ، فكانت لديه كاضغاث حلم وفات .

١٢ وداع الاسير للبطريرك

واذ كان النهار ، قـــد ناهز الاسفار[1] ؛ وضاق على غبطته الزمان ، لبعد مسافه الاوطان[2] ؛ فلهذا قد حاول الايلب مستأذناً سعادته قبل الذهاب . اما سعادته قد كان امتطى جواده كالبطل ، راغباً الصعود الى اعلا الجبل ؛ ليقابل من هنـــاك الاطروفه العجيبه ، والاعجوبه الغريبه ؛ بهجة الدنيا الوحيده ، الشهيره بقلعة بعلبك الفريده . لانها تتراءى من اعـــلا الجبل شرقي بقعه الارز الجليله ، من مسافه ست ساعات مستطيله . واذ شعر ان غبطته يحاول المعاد ، فارعى بنفسه عن سنام الجواد ؛ وتقـــدم نحو غبطته للوداع ، والقلب مصمى بسهم الالتياع . فودّعه بكل ودٍ واحترام ، طالباً منه الموازره بالدعا المستدام . ثم اخذ كلٌ طريقه ومضى ، كأنه ساير على جمر الغضا .

---

١) جمع سَفَر ومعناه بقية النهار بعد مغيب الشمس .
٢) بين قنوبين والارز مسافة اربع ساعات شيّا .

١٣ الرجوع الى الهدرة والمبيت الثاني فيها

فلما بلغ سعادته الى اعلا الجبل المذكور ، وشاهد تلك القلعه بواسطة الناظور ، قد راق له مشهد ذلك ، ثم اخذ بالرجوع طريقه السالك . ولما انتهى للارز المار بيانه ، امر بقطع حصة من اثماره واغصانه . وظل مجدًا السير بالرجوع ، الى اهدن وتلك الربوع : واذ اشرف على المحل المحرر ، واذا بجموع مقبله للقاه لا تقرر : رجال ونساء وحدثان ، من القرى القريبه واهل المكان . فساروا امام سعادته بالاجمال ، بغايه من الابتهاج والاحتفال . فانتهوا الى نادي الشيخ بطرس المعلوم ، في اخر النهار المرقوم . فاقام سعادته نحو ساعتين زمان ، ثم امر باحضار العشا من غير توان . فهيأه الشيخ بطرس من دون [١٣] تغاضي ، كما اعده باليوم الماضي .

وعند الانتهاء من الطعام ، واحضار ما فخر من المدام ؛ فنهض الشيخ منتصباً على الاقدام ، بغاية المهابه والاحتشام ؛ وانشى يقدم الدعوات اللطيفه ، والشكرانات المنيفه ؛ لجلاله الملك المظفر ، والريال المصور المنصفر ؛ صاحب السلطه القيصريه ، سلطان الابطال الفرنساويه . ثم اخذ كاساً من السلافه ، مستاذناً سعادته بكل لطافه . فرشفها بسر جلاله الملك الوقور ، سلطان الفرنساويه المنصور .

اما سعادته ، عندما شاهد ذلك ، فرّ منتصباً على الاقدام ، اجلالًا لسر عظمة والده المفخام واعدّ عمل الشيخ بطرس هذا بانه عن نباهه رايقه ، وفطنة شفافه حاذقه . واوعده بانه سيعرض لجلالة والده العطوف ، كلما بدى منه من اللطف والمعروف . وعند الانتهاء من الطعام ، وحسر المدام ، نهض سعادته للقيام ؛ ودعى لمجلسه الشيخ المرمى اليه ، حضر لديه مع ابنيه ؛ وهما ميخايل ذو اللطافه ، ويوسف ذو الملاحه والظرافه . فانعم عليهم سعادته بعلبه فاخره من العسجد ، وساعه من الذهب المنضد . ثم بزوج من الطبنجات ، من منقولات الملوك والولاة . فقبلوا امتنانه ، وشكروا احسانه . واذ بلغ وقت الرقاد ، ذهب لمخدعه كالمعتاد .

١٤ اليوم الثالث في اهدن : مقبلة العرس .

وفي غد ذلك الصباح ، عندما بشق الفجر ولاح ؛ قد نهض سعادته من منامته ، ودعى الشيخ وابنيه لحضرته . واخذ يرسم[1] في بنانه الشريفه ، صور اشخاصهم اللطيفه . ثم رسم ايضاً صورة الشيخ حبيب ابن اخي الشيخ بطرس المومى اليه ، وصورة الخواجه [١٤] طوبيا طربيه ، مشهراً بانه قد راق له لطف هنداميه ، ثم رسم ايضاً صورة احد خدامه . واذ كان ذلك اليوم المسعد ، متوقعاً يوم الاحد ، الذي تم به بعد التقديس ، اكليل ذينك العروسه والعريس ؛ فلهذا قد تأهب سعادته للذهاب تأهب الفضلا ، لسماع قداس احد السادات النبلا ، المعروف بالسيد الجليل ، والراعي النبيل ، اسطفانوس[2] دويهي اسقف امدن الزهيه ، وتلميذ المدرسه الرومانيه ؛ الذي قد كان حضر لدى سعادة الامير المومى اليه ، واسداه الدعا حسبما وجب عليه . فتقدم حينئذٍ الشيخ بطرس لدى سعادته حميد الشيم ، بقلب يملو من الرجا والشمم[3] ؛ وتوسل اليه ان كان يشاء متنازلاً ؛ وينعم متفاضلاً ، فيصير اشبيناً لذلك التكليل ، ليكون ذلك لديه شرفاً ملوكياً جيلاً بعد جيل . فيا له من تنازل جزيل لا يستقصى ، وتفاضل ملوكي لا يحصى . فمن فرط حبه الوفور ، نحو الشيخ بطرس المذكور ، كان الجواب بالايجاب ، مجيباً التماس الشيخ بطرس ومراده ، ومتمماً له كلما اراده . وبعد الذهاب والاياب من القداس والتكليل ، بالاحتفال الجزيل[4]

---

١) كان الامير دي جواقيل رساماً حاذقاً كما قال هو عن نفسه في كتابه « المذكرات القديمة » صفحة ٩٣ وما بعد ، انه كان يختلس الفرص مدة سياحته هذه في المياه الشرقية ويجرع الى القلم فيرسم به ما حدث له من المشاهدات براً وبحراً كل يوم بيومه .

٢) هو الحلقة الاخيرة التي انتهت عندما سلسلة الاساقفة الدوجيين الاعلام .

٣) الطمع ، ويريد به الدالة .

٤) واليك وصف هذا الاحتفال ملخصاً عن نسيم نوفل صفحة ٢٢٥ وما اليها : « ولما علم الشيخ بطرس كرم ان ابن ملك فرنسا سيكون اشبيناً لابنته اجّل الاكليل الى اليوم الثالث واعلن البشائر على قرى الجبة والزاوية وهموم مقاطعات شمالي لبنان . واجتمع في امدن يوم الاحتفال نحو ٣٠ الف رجل ينشدون ويطلقون ويطلقون البارود . وكانت مراقص الفتيان

الجميل ؛ قد جلس سعادته بمكانه ، ومثل بحضرته جميع اعوانه . ثم امر فحضرت العروسه ووالدتها واشبينتها لديه ، وتشرفن بلثم اذياله وامتثلن بين يديه . فاجلس العروسه بجانبه المقخام ، بغاية اللطف والاحتشام ثم اخذ كعادة الاشبين ، يهنيها بكل رفق ولين . فمكث ريثما حيّاها بالسلام ، ثم ودعها ونهض للقيام .

فامر باحضار الفطور ، فصار ذلك من غير فتور . فجلس على المايده واجلس المتادين [١٥] بالجلوس ، ثم اجلس ايضاً عن شماله قرين العروس .

١٥ مغادرة الشدره الى ميناء طرابلس

وحالما انتهى من الطعام ، اخذ فوراً بالسفر المقرام . فسار امامه الجمع النفير ، بالاحتفال السابق التقرير . ولما جازوا امامه بعض اميال ، امرهم بالرجوع والمآل . ثم اودعهم وذهب ، واودعهم اللهب . فظل سايراً بركابه الوقور ، ابنا الشيخ بطرس المذكور ؛ ثم الشيخ حبيب (بك كرم) الموصى اليه ، والخواجه طوبيا طربيه ؛ والشيخ خطار الشدياق ، وبعض من الرفاق . ولما انتهوا الى ارض البقاع[1] جايزين الطرقات الشاقه ، غدوا يشدون الركبان اخذين بالمسابقه . فظهر

والفتيات مالئة شراوع اعدن وفساحاتها الرحبة على قرع الطبول ونغمة المزمار ونقرة الاوتار وكانت اعدن في تلك الليالي الزاهرة برجاً من نور . وعندما ازف وقت الزفاف خرجت العروس من خدرها وعلى وجهها طلاء من الدقيّ الوردي وثوجا من الاسطوقة المذهب ويداها مخضبتان بالحناء ، جرياً على ازياء وجرجة تلك العصور ، والعذارى يحطن بها احاطة الهالة بالقمر . وسار الموكب بالعروس الى الكنيسة وعن يمينها سمو البرنس دي جوانفيل حاملاً بيده شمعة طويلة مزدانة بالورد والزهور . واذ وصل الى ساحة الميدان ، بين اطلاق البارود وزغردة النساء وتهليل الرجال ، عزفت موسيقى المطارية (النوبة) بالطبول والزمور . فسار لها سموه ببلغ سبعة الاف فرنك ، وبنصفه عند الرجوع من الكنيسة . وبعد اقبال العروسين من الاكليل المقدس من يد المطران اسطفان الدويهي ، طلب سموه ان يشاهد العروس في بيت ابيها . فلما وصلوا بها الى الدار رآها جالسة في معرض الجلاء وهي مفضضة العينين . واذ علم سموه من شقيقها يوسف بك البعال الكرمي ان ذلك من العوايد الشرقية اخذ رسمها في الفوتوغرافيا وارسله الى شقيقته الدوقة دوتجرج التي كانت ممتازة بصنعة حفر الصور . وبارح سمو البرنس اعدن بعد ساعات قليله من حفلة الجلاء .

١) يعني سهل الزراعية في الجنوب الشرقي من طرابلس ، لا سهل البقاع الشهير .

سعادته على سنام الجواد ، شديد الهمه والطراد ؛ اخف من العقاب ، واسرع من السحاب. فجاز الجميع بالسباق ، وغادرهم يحاولون الالحاق. وما زال بالجد والكد والاقدام ، الى ان بلغ طرابلس الشام . وظل اخذًا الجدّ والاحتاج ، الى المكان الشهير بسوق حراج ، المشتمل على بعض عواميد عظيمه ، تستحق توسيمات الملوك الوسيمه. فرسم سعادته صورة ذلك ، وظل اخذًا طريقه السالك. ولما انتهى الى الميناء حيث الشاطى ، اخذ فلوكه ونجع الفراكاته من غير تباطى.

١٦ وليمة الوداع في الدارعة ايفيجينيا

وبعد ان استوى على سريره الباهر ، امر ان يعد العشاء من الطعام الفاخر. ثم ارسل يدعي بوليمته المنيفه ، جميع الاتين بخدمته الشريفه . فنهم من اعتفى لبعض موانع ، وابنـاء الشيخ بطرس لبياه من غير مانع . فسارا الى الفراكاته السعيده ، وتشرفا بمشهد تلك المناظر الفريده . فسعادة النجل [١٦] المنتصر ، ظل متسربلًا بحلة السفر ، اما اعوانه تسربلوا بحللهم الزريفه ؛ وتقلدوا بنواشين وظايفهم الشريفه.

ثم امر سعادته باحضار العشاء ، فسار ذلك حسبما شاء . فجلس بالمكان المنسوب اليه ، واجلس ابني الشيخ بطرس عن جانبيه . ثم جناب القنصل وبقيه اعوانه ، كلًا لمكانه. فاحضرت الاطعمه الفاخره ، والمشارب المذهبه العاطره ؛ المعدّه بالاتيه الذهبيه ، التي لا تنعت سوى بايدة ملوكيه . وعند الانتهاء من الطعام ، واحضار ما فخر من المدام ، قد اثر سعادته ان يظهر زيادة حبه السامي ، وانعطافه الملوكي الطامي ، نحو الشيخ بطرس المحرر ، فاخذ امام كل من حضر ، كاساً من الخمر الباهر السفور ، فحساها بسر الشيخ المسفور. فانتصب ابنا المشروب بسره على الاقدام ، وشكرا احسانه ودعيا بحفظه مدى الدوام.

وكان الانتهاء من هذا العشاء الاتيل ، في الساعه الخامسة من الليل. وبعد ذلك دعى لحضرته ، القنصل المذكور الذي كان بخدمته ، واخذ يظهر له سروره منه بما يفوق القياس ، ثم انعم عليه بثلث قطع من الماس. فتقلدها بمقام الازرار لاسماله النظيفه ، وشكر مكارمه العميمه. وحينئذٍ تأهب سعادته للسفر ،

وودع جميع من حضر . فودعهم وفات ، واودعهم الافتتات[1] .

١٧ مغادرة الشواطئ اللبنانية

ولما بلغ الى مدينـــه بيروت ، لم يؤثر بها الثبوت . بل ظل اخذًا الطريق اللاطيف ، حتى الى القدس الشريف . وبعد زيارته مقادس تلك الربوع ، انعكف اخذًا طريق الرجوع . ولما انتهى لجزيره مالطه ، قد ادخل نفسه تحت لواء الشريعه [١٧] القاسطه ، متمماً بها عمل الكوارنتينا حسب الواجب ، واخـــذ شعاب السير من غير حاجب . ولا زال يقطع الطرقات بالمجيز ، حتى انتهى الى باريز ، قافل حينيذٍ شعاع شمس سعادته المشرق ، عن اقاصي بلاد المشرق . فغدا لبنان يمضي بنان الندمان ، ويفكر بما كان ، شعرًا :

ولذاك اصبح في المذيذ بما مضى فكأنه اضغاث حلم وانقضى
وغدا لسان الحال يهتف قايلًا متضورًا متـــأرقًا متمضضاً
فكأنه برق تالق بالحـــما ثم انطوى يا ليتهُ ما اومضا

والى هنـــا كانت النايه ، مما اشرت عنه البدايه . اي بزوغ شمس سليل السلطنه الفرنساويه ، في موامي الديارات الشرقيه . فـــلا زالت شموس هذه الدوله مظللة الـــرايا بكل الاقطار ، ومدججه باسلحه العز والفخر والبها والانتصار ، بحقوقه من المولى الرحمن ، بدوام التاييد لانقضاء الدوران ، آمين .

كتب هذا الكرّاس عن اصله حبيب عوّاد لجناب الخواجه طوبيا طوبيه الاعجد في ١٥ ايار ١٨٣٧

ملحق

هـــذه هي المخطوطة اوردناها بنصها وفصها معلقين عليها ما رأيناه واجباً يناسب المقـــام . وقبل ان نمسح اليراع بوقيعة الختام نذكر ما فعل الامير دي جوانفيل مع البيت الكرمي بعد وصوله الى باريس مبتدئين بما قاله نسيم نوفل عن ذلك في كتابه « بطل لبنـــان » صفحة ٢٣٦ ، وخاتمين بما رأينا نحن رأي

١) كلمة من نحت المؤلف ، جاء بها لقيام السجع ، والتعبير عن الم الفراق الشديد .

العين. قال نوفل :

« وبعد وصول سموه (دي جوانفيل) الى باريس ارسل هدية ملوكيه الى العروس وهي عقد وحلق من الجواهر الثمينة وصليب معلق بسلسلة ذهبية وسوار مرصع بالحجارة الكريمة. والى والدها علبة عطون من ذهب ثمين مرصعة بالالماس . والى كل من مخايل بك ويوسف بك بنادق من الطرز الاخير وست مسدسات . وقد رأيت بعرأى العين مدة وجودي باهدن تلك المجوهرات التي لا زالت محفوظة كذخائر مقدسة يتوارثها الخلف عن السلف ».

وبعد ان مرت على العروس حقبة كبيرة من السنين صارت ام بنين كثيرين . منهم الشيخ بولس الشي البطل والشهيد اللبناني المعهود. وقد ازوجته امه من خزون ابنة شقيقتها حرا زوجة قيس بك الظاهر الشهير وهنأتها بالتحفة الملوكية ، هدية دي جوانفيل اليها وهي عروس . اما خزون فاحتفظت بهذه التقدمة النفيسة العزيزة الى ما بعد ان ماتت خالتها وحماتها السيدة كاترين ، رباتة من الايام والاجداد ، بروح من السنين طويل. ثم باعت زوج الحلق والسوار والسلسلة ممن بحثنا عن معرفته بجد وعناء. وعبثاً ما نشدنا وبحثنا.

اما العقد الثمين فاشتراه منها شقيقها المرحوم بركات بك الظاهر وقدمه بعد حين لابنته السيدة حسنا تهنئة بزفافها الى الشيخ نعمة الله الظاهر في قرية كفرياشيت الزاوية. والسيدة حسنا وهبت بدورها تقدمة ابيها لابنتها السيدة مريانا عقيلة النطاسي الفاضل الدكتور سعيد نخول من قرية بسلوقيت وطبيب قضاء زغرتا الحالي. والسيدة مريانا ما زالت في ميعة الصبا ونضارة الفتوة تزين جيدها بذلك العقد الملوكي النادر. وهو بشكل سلسلة عريضة ، من الذهب الثمين جداً ، بديعة الصنع للغاية ، يتصل طرفاها بصليب ثمين محفور عليه شعار المملكة الفرنساوية بصورة زنبقة منتصبة . وقد زرنا بنفسنا السيدة مريانا في دارها بزغرتا مدة وجودنا السنة الماضية هناك ، فارتنا بين حلاها ذاك العقد الفريد ، وقد اخذنا صورته كما هو بالذات وتكرمت علينا بهذه المعلومات التي تقدمت عن مصير تلك الهدية الملوكية وتنقُّل العقد بالتسلسل حتى انتهى اليها على ما تقدم والسلام.

شذرات

دروس الآداب الشرقية

في السنة ١٩٣٤ – ١٩٣٥

كان موعد افتتاح الدروس في معهد الآداب الشرقية[1] للسنة ١٩٣٤ – ١٩٣٥ نهار الاربعاء ١٤ تشرين الثاني ١٩٣٤ ، فافتتحها الاب مرسيل لوبينياك اليسوعي ، رئيس المعهد البابوي الكتابي في اورشليم ، بمحاضرة عنوانها : « الممالك الآرامية في سورية ، وسيادة دمشق في القرن التاسع قبل المسيح ».

ومما يجدر بالذكر ان المعهد اعلن هذه السنة انه يعطي في آخر السنة ١٩٣٦ « شهادة اولى بالدروس الشرقية » ، على اثر امتحان يقدمه الطالب في تاريخ سورية وفنيقية وآثارها في العصور اليونانية - الرومانية والبيزنطية ، وفقاً لمنهاج خاص سيُنشر في ما بعد . وقد عيّن لإعداد هذا الامتحان سلسلة خاصة من المحاضرات العلمية يجد الطالب ذكرها في القسم الخامس من منهاج الدروس للسنة الحالية . اما تفصيل هذا المنهاج فكما يلي :

١ً : اللغة العربية وآدابها

عواصم الادب العربي : السلسلة الثانية : دمشق عاصمة الادب الاموي.

١٥ اشولة يلقيها فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف . من ١٠ كانون الثاني الى ٢٣ ايار ١٩٣٥

٢ً : التاريخ والآثار القديمة في سورية وفنيقية

١ : مملكة دمشق الآرامية وعلاقاتها بدولتي عمري وياهو في اسرائيل.

٥ اشولات يلقيها الاب مرسيل لوبينياك اليسوعي ، رئيس المعهد الاثري البابوي في اورشليم ، من ١٤ تشرين الثاني الى ٥ كانون الاول ١٩٣٤

---

(١) راجع في تأسيس هذا المعهد وغايته ، مشرق السنة الثالثة (٣٢ [١٩٣٤] ١٢٢) .

ب : الآلهة الفنيقية وطرق العبادة في فنيقية.

٥ اسئولات يلقيها الامير موريس شهاب ، امين المتحف الوطني اللبناني . من ١٢ كانون الاول ١٩٣٤ الى ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٥

ج : بعض مظاهر المدنية التدمرية، استنادًا الى الآثار . الديانة، الفنون ، اللباس.

٥ اسئولات يلقيها هنري سيريغ ، مدير مصلحة الآثار القديمة في المفوضية العليا في بيروت من ٣٠ كانون الثاني الى ٢٧ شباط ١٩٣٥

د : انطاكية الوثنية والمسيحية ، استنادًا الى الحفريات الحديثة.

اسئولتان يلقيهما جان لاسوس ، استاذ في الادب من جامعة فرنسة ، وعضو المعهد الفرنساوي في دمشق . في شهر اذار.

٣ً : علم الشؤون الارمنية

تاريخ ارمينية الادبي والسياسي والديني منذ القرن الثالث حتى القرن الحادي عشر.

١٥ اسئولة يلقيها الاب جان ممبريان ، الاستاذ في كلية اللاهوت من جامعة القديس يوسف . من ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٤ الى ٢١ اذار ١٩٣٥

٤ً : تاريخ الكنائس الشرقية القديمة ومؤسساتها

ا : الآداب السريانية.

٦ اسئولات يلقيها الاب بولس موتزد اليسوعي ، استاذ الكتاب المقدس في جامعة القديس يوسف . من ١١ كانون الثاني الى ١٥ شباط ١٩٣٥

ب : الليتورجيات القديمة : درس الهيكل.

٦ اسئولات يلقيها الاب جان ممبريان اليسوعي . من ٢٩ اذار الى ١٢ نيسان ١٩٣٥

٥ً : محاضرات عملية في التاريخ والآثار القديمة

غاية هذه المحاضرات مساعدة الراغبين في الحصول على الشهادة الاولى بالدروس الشرقية، وهي تخوض في مصادر البحث وتحليل المؤلفات ونقد النصوص ، ودرس الآثار ووقتها وتنوعها . يدير هذه المحاضرات الاب ربنه موتزد اليسوعي . من ١٠ كانون الاول ١٩٣٤ الى ١٣ ايار ١٩٣٥

علم قراءة القرآن وفهرس مخطوطاته[1]

من جهود الالمان في سبيل إحياء العلوم أنهم اسسوا جمعية تساعد العلماء مساعدة مالية على القيام بالابحاث والدروس التي تطلب نفقات تنوء بها قوى الافراد . وان تلك الجمعية سهّلت سبيل العمل للسيد أوتو برتزل ، فسافر الى استنبول سنة ١٩٣٠ ، واشتغل في مكاتبها ، وبذل جهده في الاطلاع على ما فيها من المخطوطات الموضوعة في علم القراءة . ورأى في مكاتب العاصمة العثمانية من الكتب في ذلك الصنف ما هو جدير بالنشر ؛ ولكن اتى للعلماء ان ينالوا المبالغ للقيام بالنشرات العلمية ، والازمة الحاضرة آخذة بخناق الناس !

على ان السيد برتزل لقي في ادارة مجلة « الاسلاميات » الالمانية ، تشجيعاً على نشر لائحة المخطوطات في علم القراءة . فقدّمها الى قرّاء المجلة المذكورة في الكرّاس الاول للعام ١٩٣٣ ، وفي الكرّاسين الثاني والثالث للعام المنصرم .

عدّ لا اقلّ من ٥٦ مؤلفاً في علم القراءة ، ورتبها الترتيب العلمي ، وقدّم عليها بدرس في علم القراءة ونشأته ومصادره . فمنها الكتب التي تعنى بالقراءة على العموم ، وفيها ذكر للقراءات السبع ، والثاني ، والعشر وغيرها ؛ ومنها الكتب المختصة بالتجويد والوقف وعدّ آي القرآن . . .

ولم يكتفِ بالبحث عن تلك المخطوطات في استنبول ، بل استعان على الكلام فيها بما اطّلع عليه بذاته ، او بواسطة غيره ، من المخطوطات المحفوظة من هذا الصنف في احدى وثلاثين مكتبة ، اكثرها موجود في عواصم اوربة ، وبعضها موجود في القاهرة . فاشار اليها في كل مخطوط وصفه ، وذكر من المخطوط اوله ولائحة فصوله ، اذا ما كان سبيل الى ذلك .

في سنة ١٩٣١ عرّف المشرق (٢٩ [١٩٣١] ٣١٨) الى قرّائه « كتاب التيسير في القراءات السبع » تأليف ابي عمر بن عثمن بن سعيد الداني ، وقد عني بتصحيحه اوتو برتزل . وان المصحح خصّ في المقال الذي نحن في صدده

[1] Otto Pretzl, *Die Wissenschaft der Koranlesung*, Islamica, Heft 1, (1 1933 ; 2, 3, 1934

درساً بكتاب التيسير ، وحلله للقرّاء الالمان ، واستند اليه في ذكر روايات غيره من المؤلفين فافاد ، لا علم القراءة فقط ، ولكن علم العربية ايضاً ، لما بين علمَي الفراماطيق والقراءة من الصلات ، وقدّم على بحثه بديباجة حسنة ، وهي صفحة من تاريخ الآداب العربية يسرّنا تعريب شيء منها ، قال :

موضوع علم القراءة

علم القراءة موضوعه التلفّظ بالفاظ القرآن طبقاً لاصول وقواعد مستندة الى استعمال قرّاء القرن الاول الهجري . وهي تختلف في طرائق اللفظ ، وربما ادّت الى اختلافات في المعنى .

وقد كان لتسميع القرآن الشفهي اهميةٌ عظيمة منذ القديم لان محمداً اراد ان يكون كتاب المسلمين اشبه بكتاب اليهود والمسيحيين ، وهؤلاء يقرأون الاسفار المقدسة في صلواتهم ويلقّنونها الناس بالسمع ؛ فسمّاه قرآناً ، دليلاً على واجب تلاوته شفهياً ولم يكترث كثيراً لتدوينه خطاً . وبعد ان مات محمد ، خشي الصحابة ان يأتوا على عمل احجم عنه نبيّهم ، فلم يجمعوا وحيه في كتاب الى ان ظهر عثمان ، ثالث الخلفاء الراشدين ، فجمع آيَ القرآن ودوّنها خطاً ، ضناً منه لا بتحديد طرق قراءة القرآن ولفظه ، ولكن بصيانته من الزوائد والزوائد . فجمعت آيُ القرآن وسوره في كتاب واحد ، كان على ما فيه من المصاعب المتعذرة سبيل قرّائه — وهو مخطوط بالخط الكوفيّ المجرّد من الحركات والتشكيل — حاجةً من حاجات الاسلام الحيوية ، وقد صار اساس التشريع للبلاد التي اخضعها المسلمون لحكمهم . ولم يرضوا ان يترجموه الى لغاتها وتمسكوا التمسك الشديد بالعقيدة « ان القرآن أُنزل باللغة العربية فهو بطبيعته عربيّ » ، فكان ولا بدّ من ان يبقى عربياً . لكنهم قرّبوا متناوله من الناس بوضع القواعد في شرحه وفهمه وتحليله ، وهذه التعليقات كانت جزيلة الفوائد لا للمسلمين غير العرب فقط ، ولكن لمن تحضّر من العرب ايضاً من اهل الامصار ، بعد مغادرتهم الجزيرة مع الفتوحات ، وقد فقدوا لهجة البادية . فوُضعت لهؤلاء قواعد العلمين : علم الصرف والنحو وعلم القراءة . وامتاز بهما الاسلام لانهما باتصالهما بتفسير القرآن اصطبغا بصبغة دينية . وان علم الصرف والنحو وعلم القراءة

صنوان لا يفترقان ، وممثلو العلم الاول هم ايضاً ممثلو العلم الثاني كأبي العلاء المطار ، والكسائي ، والفراء ، وابي الحسن الفارسي ، وابي عمر الداني .

لم يكن في الغرب لعلم القراءة ما كان له في الشرق من الاهمية الدينية . على ان فيه من الاهمية التاريخية واللغوية ما يجدر بلفت انظار المستشرقين . وان لم يشتغلوا فيه ، الى يومنا ، فذلك لان مصادره غير الحصول عليها في غير الكتب المستحدثة . وذلك ان مؤلفات الاقدمين ، وعليها العمدة في تحصيل العلم ، صعبة المنال لم تتداولها ايدي الناس ولم يعمل فيها العلماء رويتهم على خلاف ما هو معهود من العلوم الصرفية والنحوية ، مع كون علم القراءة لا يقل قيمة عن علم الفراماطيق .

تطور علم القراءة

ان الاستاذ برجشتريسر ، من مونيخ في المانية ، بيّن في كتابه «تاريخ القرآن» (٣١:١١٦) ان علم القراءة يشمل عهدين ، وان المقابلة بينهما توقفنا على تطوره ، وتعرّفنا الى اهم المؤلفات الموضوعة في هذا الصنف ، وتقدير قيمتها .

في البدء كان تعليم القرآن يقصر جهوده على تلقين قراءة القرآن وحفظه ، من غير العناية الخاصة بلهجة دون غيرها . وان كان لملقن القرآن همّ فانما هو القراءة الصحيحة من غير خلل يؤدي الى اضطراب في المعنى ؛ وان كان له طريقته في اللفظ فهي اختيارية لا اجبارية ، وهو لم يكن يجبر عليها تلاميذه .

على ان القرآن لم يكن مشكّلاً بالحركات ، فكان ولا بدّ من ضبطه ، وكان الحكم في ذلك لما هو معهود بين الناس في استعمال اللغة العربية . هذا ما يظهر جلياً في كتاب ايضاح الوقف والابتداء لابن الانباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ (٩٣٥م) ، وهو معاصر لابن مجاهد اول من علّم القراءة واثر في اصولها تأثيراً بالغاً . روى ابن الانباري القراءات عن القرّاء ، لكنه لم يؤدِّ رواياتهم بالاستقصاء ، ولم يفرق بين القراءة القانونية والغير القانونية .

اما فيما بعد ، فتغيرت الحالة تغيّراً جوهرياً :

كان ابن مجاهد قد اختار من القرّاء الذين سمعهم سبع قراءات ، وادخل في الاستعمال الفرق بين القراءة الشاذة والقراءة المتواترة ، ولم ينل اختياره من

الناس التفضيل المطلق لانهم بعده عدّوا ثماني قراءات ، وعشراً ، واربع عشرة واكثر ، وهم في ذلك يتركون الحرية في اختيارها ، بالرغم من علماء الحديث واحتجاجهم بان السبع القراءات او « الاحرف » تؤدي الى تحريف القرآن . على انهم اتخذوا الفرق بين القراءة الشاذة والقراءة المتواترة اساساً في تعليم القرآن،وقيّدوا مذهبهم بالقول ان القراءة سنة،فأغلق باب الاجتهاد في هذا العلم وقصر العلماء جهودهم على تفسير وفهم ما بلغ اليهم من تعليم محمد والصحابة .

فكان ولا بدّ من التعويل على الحديث لضبط القراءة . وحيث لم يكن حديث يستندون اليه في البتّ بمشكل ما ، صاروا يتخذون القياس والمقابلة بين الائمة قاعدة لتلاوة القرآن . ولما كانت الحرية مطلقة في اختيار قراءة دون غيرها ، ولكل امام روايات مختلفة مع اختلاف السامعين الآخذين بها عنه ، تعدّدت القراءات ووُضعت فيها الكتب ، لكل كتاب موضوعه طبقاً لاختيار صاحبه . فللداني عن نافع كتاب التقريب ، وهو على عشر روايات ، ولابي علي الفارسي كتاب الحجة على السبعة القراءات ، ولابي علي المالكي كتاب الروضة في القراءات الاحدى عشرة . اما كتاب التبصرة ، وكتاب التيسير فلا يُذكر فيها لكلّ إمام الا قراءتان . وان الفرق بين القراءة الشاذة والقراءة المتواترة ادّى بالطبع الى اهمال الاولى فلم يشتغل بها المؤلفون الا نادراً ، ومن كتبهم « كتاب الشواذ » لابن خالويه ، و « كتاب المحتسب » لابن جني .

ثم دخل علم القراءة في طور جديد مع ظهور كتاب « حرز الاماني ووجه التهاني » المعروف بالشاطبية لابي القاسم الشاطبي المتوفى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣م) ، نظم كتاب التيسير للداني ، فصار كتابه مدرسياً يتعلّم فيه طلاب علم القراءة ، ووضعت الشروحات على الشاطبية نظماً ونثراً . ولما انتشر فنّ الطباعة في الشرق نال السبق على سائر الكتب كتاب « النشر في القراءات العشر » ، لمحمد الجزري ، المتوفى سنة ٨٣٣ هـ (١٤٢٩م) ، واثرت قصيدته المقدمة الجزرية في التجويد تأثيراً بليغاً في علم القراءة فطبعوها وشرحوها . وله ايضاً كتاب قيّم في علم القراءة مهيأ للطبع بركشتريسر ، اعني به طبقات القراء المسمى « غاية النهاية » . اما كتاب « الاتقان في علم القرآن » لجلال الدين السيوطي

فنيه كامل ما يرغب في معرفته عن علم القراءة . ف . ت .

الاصلاح اللغوي في تركية[1]

ان ما يسمونه الاصلاح او الانقلاب اللغوي نشأ منذ زهاء قرن في تركية، لما وضع احمد جودت (١٨٢٢ — ١٨٨٥) ، كتاب القراماطيق التركي ، واحمد وفيق باشا (١٨١٩ — ١٨٩٠) قاموسه ، وقد عني فيه بجمع الالفاظ التركية . وان تلك الدروس ساعدت على اليقظة الادبية التركية ؛ لكنها لم تحرز برنامجاً غرضه النهضة اللغوية القومية . فظلّت اللغة العثمانية في فكر الناس كمزيج لغات ثلاث اعني بها التركية ، والعربية ، والفارسية . وكان لا بدّ للمتضلعين منها ان يكون لهم إلمام باللغتين العربية والفارسية ونحوهما وتاريخهما ؛ وكان القاموس مكتظاً بالالفاظ العربية والفارسية غنياً ثقيلاً بها . وكذلك القراماطيق وقد تسربت الى طياته الاضافة الفارسية والمصادر العربية . في ايام نشأة السلطنة العثمانية ، لم يكتبوا باللغة التركية الا نادراً . ولما صاروا مع الايام يستعملونها في الدواوين كانوا يضمنون في المتن التركي العبارات الفارسية او العربية ، وذلك لاسباب دينية وسياسية . وفي غضونها كان الشعب التركي يحافظ على لغته وروحها الفطري . ومنذ زهاء ٥٠ عاماً دخلت تلك اللغة التركية الصميمة طوراً جديداً ، لما اخذ الادباء يستعملونها . ومنهم محمد امين (ولد سنة ١٨٦٩) ، وعمر سيف الدين (١٨٨٢ — ١٩٢٠) ، وضياء جوك الپ (١٨٧٥ — ١٩٢٤) ولم ينبذوا استعمال العربية او الفارسية نبذاً تاماً الى ان وضعت في السنة ١٩٢٣ مبادئ الاصلاح التركي الحديث ، واليك بنودها الثلاثة : ١ً استبدال اللغة المستعملة في الاتاضول باللغة العثمانية . ٢ً اسقاط اللفظة العربية او الفارسية ان كان لها مرادف في التركية . ٣ً التخلي عن كل تعبير عربي او فارسي غير موافق نحو اللغة التركية .

وكان للانقلاب الكمالي تأثيره الشديد في الاصلاح ، وقد قويت شوكته بانتصارات الغازي على اليونان والغاء السلطنة والخلافة ، فدخل مشكل اللغة

---

١) عن انور روسي في مجلة «الشرق الحديث» الايطالية : ك٢ ١٩٣٥ ، باختصار :
Ettore Rossi, *La Riforma linguistica in Turchia*, Oriente Moderno, pp. 45 sq.

في طوره الجديد. فوضعت سلسلة قرارات كانت اهم بنودها الغاء المدارس الدينية والغاء تعليم اللغة العربية ، وادخال الابجدية التركية اللاتينية ، واستبدال التاريخ المسيحي بالتاريخ الهجري . وما عتموا ان منعوا استعمال الابجدية العربية لا في المدارس فقط بل في البلاد وحكومتها ودوائرها ، واقتصروا على تعليم العربية والفارسية في كلية الآداب في استنبول ، وفي معهد الفقه. وقرروا جعل لغة الخطب تركية لا عربية . وكذلك ترجموا القرآن الى التركية . واجبروا القرارات بالتنفيذ ، وصاروا يؤذنون بالتركية. واجبروا كل شركة تركية او اجنبية على استعمال اللغة التركية في مخابراتها وسجلاتها ، وخطوا في ذلك خطوة جديدة في سبيل الاصلاح الكمالي، وغرضه التخلق باخلاق الغرب وتتريك البلاد.

وفي السنة ١٩٣٠ ظهر كتاب عنوانه « في سبيل اللغة التركية » ، ألفه صدري مقصودي ، وهو رجل تركي ، روسي الاصل ، درس في روسية والمانية ، ثم صار يعلم في معهد الحقوق في انكره . قال في كتابه يواجب تطهير اللغة التركية من كل اصل فارسي او عربي ، والتعويل على المؤلفات التركية القديمة لاستنباط الالفاظ من التراث التركي القديم الحي في لغة الاناضول وغيرها من بلاد اوربة وآسية ، اشتقاقاً ، شأن ما فعله اصحاب اللغات اللاتينية المستحدثة ، مستمدين الالفاظ من اللغة اللاتينية القديمة . وقدم صدري مقصودي كتابه الى رئيس الجمهورية ، فنال رضاه.

وفي السنة ١٩٣٢ انس الغازي « جمعية دروس التاريخ التركي » ، و « جمعية دروس اللغة التركية » ، وترأس الجمعية سامي رفعت بك ، وكان مساعده وكاتب الاسرار العام معه روشن اشرف بك. فعقد المؤتمر اللغوي الاول في قصر طوله بنجه في استنبول. وفي ختام المؤتمر حُددت غاية الجمعية ، وهي تعريف جمال التركية ، وجعلها في مقام يحلها محل اللغات العالمية. وفي الجمعية تشكلت لجنات لكل لجنة مهمتها ، فمنها اللغوية، والاشتقاقية، والتراماطيقية ، والقاموسية ، والفنية ، لوضع الاصطلاحات في المخترعات الحديثة . ونالت الجمعية موافقة الغازي. ودخلت الصحافة في الحركة فصارت تتعاطى شأن الالفاظ المستعملة في التدوين والتشريع ، وتتناقش في موضوعاتها . وفي غضون ذلك

كانوا ينشرون استعمال اللغة التركية في المعاهد والمؤسسات العمومية ، وبين الاقليات . ودعت جمعية « دروس اللغة التركية » سكان المدن الى التفتيش اللغوي الواسع النطاق . نشرت بالراديو او بالجرائد ١٠٥ لوائح من الالفاظ العربية او الفارسية الاصل ، وسألت الناس مرادفاتها التركية ، فجمعت اجوبة سكان المدن لتنشرها في مؤلف عنوانه « دليل الالفاظ التركية الموافقة للالفاظ العثمانية » — وجدير بالذكر ان الجمهورية التركية نبذت اللقب « عثماني » منذ الغت الخلافة وطردت سلالة بني عثمان — وطرحت بين ايدي الناس في تركية ، واوربة ، وفي الاناضول الوفاً من البطاقات او الاوراق لكي يدونوا عليها ما اصطلحوا عليه من الالفاظ المرادفة للالفاظ العثمانية المطلوب اسقاطها من القاموس ومن الاستعمال . وقد عمدوا الى المؤلفات التركية فصاروا يستنبطون منها الالفاظ التركية . وكان عدد العمال في ذلك الحقل يبلغ الثلاثين . فجمعوا من مطالعات المخطوطات ١٥,٠٠٠ بطاقة ، ومن ديوان لغة الترك لمحمود الكشغاري ١٢,٤٩٨ ، ومن قاموس اللغة التركية لردولف ٨,٤٢٨ ، ومن القاموس التركي لشمس الدين سامي بك ٧,٤٣٢ ، وعملوا المذرى في ذلك البيدر ، فطيّروا منه ٧,٠٠٠ لفظة عربية وغيرها من افرنسية ، وايطالية ، وعوّضوا عنها بثلاثين الف لفظة تركية مشيرين الى اصل كل لفظة من هذه الالفاظ . وان هذه الحصيدة تدلّ على جهود قيّمة جديرة بالثناء . ولكن ثابتها سرعة غرّها ، وتفاوت قيمة منشئيها وليس فيهم لغويّ اختصاصي .

قال السيد اتوره روسي ، ما خلاصته :

ان الحركة في تجديد اللغة التركية اساسها الانقلاب السياسي ، والقوة التي يستمدّها الاتراك من فكرتهم الصادقة ، او الموهومة ، ان اللغة التركية والامة التركية ، منذ القدم ، ارقى واعظم أمة ولغة ظهرت تحت الشمس او تكاد ! ولكن هل في تلك الفكرة من القوة ما يمكنها من تكوين لغة جديدة ؟ وعلى كل فان العربية والفارسية سوف تفسحان من تدريس اللغة التركية . ولكن ليس في ذلك ما يقرب منال التركية الى المشرقين ، وكانوا اذا تعلموا العربية او الفارسية وجدوا فيهما التسهيل الى لغة الاتراك ا ف . ت .

فهارس صبح الاعشى للقلقشندي

ان كتاب صبح الاعشى للقلقشندي ، بعد طبعه المصرية الاميرية باجزائه الاربعة عشر ، صار قريب المنال في المكاتب ، وأشهر من ان يعرّف الى قرائنا ولهم فيما كتبه الاب شيخو (مشرق ٣ [١٩٠٠] ٣١٠) ترجمة مختصرة لصاحبه ، وذكر لمؤلفاته . وقد قال ان صبح الاعشى « يتضمن خلاصة الفنون الادبية والعلوم العربية » كأنه الموسوعة او دائرة المعارف .

على انه مع حسن طبعه وترتيب فهارس فصوله في كل جزء من اجزائه ، ليس له فهرس عام يسهّل الوقوع على الموضوع من غير الاضطرار الى مطالعة الاجزاء كلها ، فلا يزال كالبحر الخضمّ لا يعثر على لآلئه الا الغوّاصون .

وان السيد محمد عبد الجواد الاصمعي ، بدار الكتب المصرية ، اخذ على عاتقه المهمّة الخطيرة في وضع فهارس القلقشندي ، وله الباع الطولى في هذا النوع من العمل المفيد ، وقد سبق ووضع فهارس « الاغاني » في طبعته المصرية الجديدة التي وصفها المشرق مراراً .

وقد ارسل يبشرنا بما عزم عليه من الاعمال ويستشيرنا في امر الفهارس ؛ فنشكر للعامل الهمام في خدمة العربية وآدابها عنايته بتلك المؤلفات الكبرى ، ونروي رسالته لما فيها من الفوائد ، ثم نبدي رأينا في الامر .

قال عن فهارس صبح القلقشندي :

« اما هذه الفهارس فتقع في نحو ثلاثين نوعاً مما وقع في الكتاب كالاعلام والاماكن والقبائل واسماء النبات والمعادن والاحجار والحيوان والكلمات (المفسّرة والمضبوطة بالعبارة والدخيلة والمستعملة في عصر المؤلف والالفاظ الاصطلاحية) والوثائق التاريخية والسياسية ، وقد قسمناها الى قسمين : داخلية وخارجية . اما الداخلية فهي المكاتبات التي دارت بين مصر والامم التي كانت تابعة لها . والخارجية المكاتبات التي دارت بين مصر والامم الاخرى . وفهرس خاصّ بالعادات والاجتماعيات ونحو ذلك . واعرّفكم لزيادة الايضاح ان كل فهرس من هذه الانواع سيكون مرتباً على الحروف الهجائية ،

وسنذكر بجانب عدد الجزء ورقم الصفحة وعدد السطر المناسبة التي جاء بسببها هذا الاسم، اذ رأيت ان سرد الارقام بجانب الاسم لايكفي في هذا الكتاب الكثير الاجزاء . فنرى مثلاً اسم « مصر » و« الشام » و« بغداد » و« ابن خلدون » و« ابن فضل الله العمري » وغيرها من الاسماء وردت في الكتاب مئات المرات فأبين للقارئ كل مناسبة ورد بسببها هذا الاسم حتى أسهل للباحث كل ما يحتاج اليه. اذ في مراجعته اسم « مصر » مثلاً ، وقد ورد في اكثر من ١٠,٠٠٠ صفحة من صحف الكتاب ولم يجد فيها ما يبحث عنه في الصحف التي راجعها ، تضيع لوقته ، فبيّنت المناسبات التي وردت في هذه الصحف خاصة بمصر . وهكذا في كل فهارس هذا الكتاب اذ لا اذكر اسم شيء والصفحة التي ورد فيها الّا بالمناسبة التي ورد بسببها »

ثم كان حضرته قد سبق وكتب الينا في رسالة غيرها :

« اودّ ان تشرفني بكلمة عن الفهارس وفائدتها مع تنويهكم بهذا العمل الشاقّ لانني كتبت الى الآن من مفردات هذه الفهارس نحو ٦٠٠,٠٠٠ الف جذاذة . »

فنتزل عند طلبه ونقول :

ان فائدة الفهارس بيّنة ، ليس فقط في وضع لائحة المواد اخذاً عن عنوان فصول الكتاب وابوابه لانها كالدليل في الطريق وكالمصباح في الظلام ، ولكن في وضع لائحة المواد بالترتيب الابجدي او القاموسي لما في المواد العديدة الواردة في شتى الفصول من الفوائد التي يُقتبس منها شعلات تنير علوماً كثيرة ولا يمكن اكتشافها من العناوين في الفصول .

وان ٦٠٠,٠٠٠ جذاذة تدلّ على عمل جبّاري هائل ، وطبعها على افتراض وضع كل مئة جذاذة في وجه واحد من حجم الاغاني في طبعته الجديدة المصرية ، سوف يقتضي لا اقل من ستة آلاف صفحة اي ما يكاد يوازي عدد صفحات صبح الاعشى بمجلداته الاربعة عشر . ولكن ألا يُخشى ان تتضخم المواد بين غثّ وسمين فتفقد السلسلة بطولها منفعتها القيمة من تسهيل الحصول على المقصود منها ؟

هذا بين يدي مجلد الاغاني الاول وفي آخره الفهارس الثاني ، وهي تستغرق خمس الكتاب واكثر ، وآخرهـا فهرس الموضوعات وليس هو بالجدي . ولعل المؤلف احجم عن وضع فهرس الجدي للمواد ، شأن گويدي صاحب الفهارس في طبعتها الافرنجيـة ، لان في الاغاني تقاطيع وتفاصيل يعسر معها جمع الفكر حول مادة واحدة . اما صبح الاعشى فليس الامر فيه كذلك . وفصوله تتناول مسائل مطولة ، وفهارس المواد في كل مجلد من المجلدات تحوي او تكاد تحوي في كل لفظة من الفاظها باباً جديراً بان يدخل عنواناً في فهرس الجدي . فلذلك ، لو سمح لنا الاستاذ الاصمعي ، لاشرنا عليه بان يكتفي بان يضم في سلسلة الجدية الالفاظ المهمة الموجودة في صدر كل مجلد من المجلدات عنواناً للابواب والفصول . وكفى بذلك اشارة الى اهم المواضيع . والمثال في ذلك اخذاً من المجلد الاول :

الكتابة : فضلها ١ : ٢٥ مدلولها ٥١ ، كتابة الانشاء ٥٤
النثر وترجيحه على الشعر ١ : ٥٨
الشعر يرجح عليه النثر ١ : ٥٨
الكتاب وآدابهم ١ : ٦١
ديوان الانشاء : وضعه في الاسلام ١ : ٦١ ترتيبه ١ : ١٠١ صاحبه ١ : ١١٠ وظائفه ١ : ١٢٠

فنكتفي بخمسة عناوين ، او بخمس جذاذات لهذه الالفاظ الخمس المطبوعة بالخط الرقعي ، على ان نضمها بعد نهاية الشغل في سلسلتها الجدية . واذا اضاف السيد الاصمعي الى هذا الجدول جدولاً آخر لاعلام الامكنة والاشخاص اكتفى بفهرسين وكفانا مؤونة السبيل الى مطالعة الكتاب السهلة ، ومن ثم سوف لا يزيد مجلد الفهارس المنوي طبعه على حجم مجلد من مجلدات القلقشندي الاربعة عشر .

هذا ما نراه موافقاً لذلك المشروع الخطير . اعربنا عنه ، مع التحفظ ، عسى ان يرى غيرنا ما لا نراه ، ويكون احق منا بان يدلي برايه ، واننا نتمنى للسيد محمد عبد الجواد الاصمعي ان ينهي فهارس القلقشندي باسرع ما يمكن ويتحف العربية بها وبامثالها كفهارس نهاية الادب للنويري ، كما وعدنا بذلك

ف . ت .

مطبوعات شرقية جديدة

W. J. A. Visser, Die Entwicklung des Christusbildes in der frühchristlichen und frühbyzantinischen Zeit. In-8°, 187 pp. Bonn, J. Carthalig, 1934.

تطوّر صورة المسيح في الصور القديمة للنصرانية وفي الفن البيزنطي

مؤلف الكتاب من كاثوليك هولندة سمع محاضرات بون ، وهي مدينة فيها عدد من علماء الفنّ القديم ، فدفعه ذلك الى اعداد هذا التأليف في صور المسيح المختلفة والمثال الاصلي الجامع بينها . ثم اقام مدة طويلة في رومة فزاد معلوماته ومواده مستفيداً من علماء الفن القديم فيها ، ومن مكاتبها الفنية . اما كتابه فيبتدئ ، كما يتوقع المطالع ، بالقول انه ليس في الكتب المسيحية القديمة كالاناجيل واعمال الرسل والرسائل ما يفيدنا شيئاً عن صورة المسيح الخارجية . ثم يعرض للنصوص العديدة التي تشير الى شيء من هذا ، وهي لقدماء المؤلفين من كاثوليك ، ومنشقّين ، ويهود ، وغيرهم حتى يصل الى العهد البيزنطي فيرى شيئاً ثابتاً يقرّه ارباب الفن اجمالاً . فيتحقّق ، اذا ما وضع جانباً مسألة ثوب المسيح وبعض صفاته ، ان المناقشات تنطبق على الغالب في هل كان المسيح طليق اللحية ام حليقها .

هو عمل كلّف جهداً وجلداً كبيرين فبدا متقناً جزيل الفائدة لكل من يهمه البحث في تطوّر صورة المسيح . فنشكر للمؤلف هذا الاهتمام ، ونتمنى ان يعطينا يوماً مجموعة ، وان صغيرة ، لصور المسيح المختلفة يضع فيها الشواهد على نظريته هذه .

س . ر .

Alfons M. Schneider, Die Brotvermehrungskirche von Et-tâbga am Genesarethsee. [IV 13 des *Collectanea Hierosolymitana*]. In-8°, 82 pp., 18 fig., 31 pl. Paderborn, F. Schoningh, 1934.

كنيسة تكثير المخبزات في الطابغة على بحيرة طبرية

يملك الكاثوليك الالمان ، منذ السنة ١٨٨٦ ، على الشاطئ الغربي من بحيرة طبرية قطعة ارض واسعة فيها كثير من الآثار القديمة . على انهم لم يهتموا باجراء

الحفريات فيها الا مؤخرًا. فدرسوا في السنة ١٩٣٠، بمعاونة الاب كوبيل اليسوعي من المعهد الكتابي البابوي في اورشليم، التكوين الجيولوجي في تلّ من ارضهم. ثم قاموا في السنة ١٩٣٢، تحت ادارة الاب مادر، الذي يفتخر المعهد الشرقي في جامعتنا بانه عده من مستمعي محاضراته مدة اشهر قبل الحرب، باجراء الحفريات في نقطة غنية بالآثار المسيحية. وقد اسفرت الابحاث التي عاون فيها الاب شنيدر، من معهد اورشليم الشرقي المنتسب الى Görresgesellschaft، عن نتائج باهرة يعرض خلاصتها الاب المذكور في هذا الكتاب الذي نصفه اليوم.

ظهر ان الكنيسة ترقى في اصلها الى اواسط القرن الرابع. وقد أُجريت فيها اصلاحات عدّة في القرن الخامس وفي اوائل السادس، على اثر زلزلة ارضية، فجدّدت ارضها، وغُيّر تصميم الصحن والخورس. ثم انها خربت في القرن السابع الحافل بالاضطرابات. ولم يُجدّد بناؤها. على انها ظلت معروفة بواسطة النصوص القديمة. ثم هناك كنيسة اخرى كانت معروفة في القرن التاسع، وقد اعتقد العلماء، على مدّة، انها متصلة بالاولى. وهذا خطأ فان اطلال هذه بعيدة عن اطلال تلك. وعلى عهد الصليبيين كان الناس يشيرون، بطريق التقليد، الى بقايا كنيسة قديمة بُنيت في المكان الذي اجرى فيه المسيح اعجوبة تكثير الخبزات. اما الصليبيّون انفسهم فلم يعرفوا الكنيسة القديمة.

على ان الحفريات الاخيرة كشفت آثار بناء مستطيل يزيد طوله عن خمسين مترًا في نحو ثلاثين عرضًا، مع مرافقه المختلفة. فامكنت من استخراج التصميم العامّ، ومن تمثيل بناء المعبد، والتدقيق في تاريخ بنائه، ووصف ميزاته الخاصة. وهو عمل جزيل الفائدة لا في درس المعبد المذكور فحسب، بل في ما يفيده من معلومات للمقابلة بين المعابد المسيحية في تلك المنطقة وفي فلسطين كلها.

ومما يجدر بالذكر في هذا الاثر، ما اكتشف فيه من قطع الفسيفساء الجميلة وقد صُوّرت كلها باتقان، وقوبلت بما يعرف من هذا النوع في فلسطين وفي سائر انحاء العالم المسيحي. فاتى البحث غاية ما يُنتظر من نوعه. فنهنئ المؤلف ومعاونيه، والطابع.

ي. د.

Histoire de l'art byzantin, publiée sous la direction de M. Ch. Diehl. — **Monuments d'architecture byzantine**, par J. Ebersolt. In-4°. VI-217 pp., 48 pl., 71 fig. Paris, Les éditions d'art et d'histoire, 1934. Prix : 185 fr.

آثار الهندسة البيزنطية

كتاب متقن جميل من آثار عالم معروف ، طواه الموت قبل اوانه ، فشاركنا الاستاذ دييل ، كاتب المقدمة ، في حزنه وأسفه . اما موضوع الكتاب فظاهر في العنوان . على ان المطالع لا يدخل الفصول الاولى منه الا وتملكه الدهشة . ذلك ان المؤلف يدرس الكنائس البيزنطية : تصميماتها وزخارفها على طريقة لا يتوقعها المطالع . فهو لا يتبع فيها الترتيب الجغرافي ولا التاريخي . انما يرتبها على انواع فنية خاصة ، ويدرس كلًّا منها خلال التاريخ : منها الكنائس الموحدة السرق ؛ والكنائس الملكية ؛ والكنائس ذات التصميم الشاعي ، وذات التصميم الصليبي ، او المثنى او المثلث ، او ذات القبب . . . ودرسه في ذلك اقرب الى الوصف الخارجي الملتحق بمذهب هندسي منه الى العرض التاريخي . بيد انه لا يهمل التاريخ ، فهو يعرض اللازم منه بوضوح في المختصرات البالغة ٢٠٠ الملحقة بالمتن ، وفي ما يقوم به من المقابلات العديدة بين المنشآت حتى اقدمها واكثرها فروقاً . وهناك جدول مثلث نظمه الاستاذ سور (M. G. Seure) فسهل به الاستفادة من معلومات الكتاب . اما الصور فمتقنة . وهنا يجدر بنا ابداء ملاحظة لا تغيّر في شيء من آراء المؤلف ، وهي ان كنيسة بيت لحم (اللوحة الثالثة) مصوّرة عن رسم قديم . اما اليوم فان الحائط الذي كان يحجب منظر الحوش أزيل في اوائل عهد الانتداب الانكليزي على فلسطين . ر . م .

R. P. Louis Paré, S. J., **L'Eucharistie vie de nos âmes**. Illustrations de R. de Coniac. In-16, 172 pp. Toulouse, Apostolat de la Prière. Prix : 6,50 fr.

الافخارستيا حياة نفوسنا

اننا نحث جميع قرّائنا على مطالعة هذا الكتاب الصغير ، بل على تأمل ما فيه عن الافخارستيا حياة نفوسنا . فان كاتبه من اساتذة الروحانيات ، يتمرن

ثبات العقيدة وبسطها بالاسلوب الدقيق البسيط ، مشيراً الى المركز المهم الذي يحتله سرّ الافخارستيا في حياتنا الروحية ، عارضاً ملخصاً جامعاً للحياة المسيحية طالما يشاء ، لسوء الحظ ، كثير من الممتدين . وهو يجمع بين النظرات المتتابعة فيسوقها الى الغاية المثلى . ان يكن سرّ الافخارستيا قد مُجد على ما نعرفه في الفنّ وفي الطقس الكنسي فذلك لانه النقطة المركزية في العبادة المسيحية ؛ ان تكن الكاتدرائيات رُفعت عظيمةً جليلةً ، وان يكن على المؤمن ان ينحني احتراماً فيها انحناءه في احقر معبد فذلك لان يسوع حاضر فيها جميعاً ؛ ان يكن نظرنا يتقمع بشوق نحو القربانة فتندفع بنا خطواتنا اليها ، فذلك لانها اجلّ هدية اهداها ابن الله الى كنيسته ؛ ان يكن علينا ان نرمي بالروح الجنسيني دون ان نخرج عن الاحترام الواجب ، فذلك لان المسيح يريد ان يعطينا ذاته تحت شكل الخبز المقدّس ؛ ان تكن هذه الهبة تفوق بما لا يقاس افكار العالم الضيقة ، فذلك لانها تذكرنا بالنعمة السماوية والحياة الخالدة ؛ ان يكن غذاؤنا الروحي الهيّأ ، فذلك لان حياتنا فائقة الطبيعة ؛ وان تكن المناولة غريبة باعجوبتها ، فأن تبتني الله ايانا بنعمته اعجب واغرب ؛ وان يكن من الافضل ان يتناول الانسان في آخر الذبيحة المقدّسة ، فلان التناول ثمرة هذه الذبيحة القريبة ؛ وان يكن القدّاس المقام كل يوم على ما نعرف من الجلال والعظمة ، فلانه يعيد ذبيحة الجلجلة ويسهّل علينا الاستفادة من جميع استحقاقاتها .

امام هذه العقيدة القوية الجميلة يتلاشى كل ما نراه فينا وفي غيرنا من ضيق في الفكر ، وتقيد مادي في العبادة ، وجفاف في القلب ، واهمال في واجباتنا تجاه يسوع الحاضر في القربان المقدس . وقد عرف الكاتب ان يطبّق نظريته في المجال العملي . فبيّن ، في جملة ملاحظاته ، كم تعمل عادة التناول قبل القداس او بعده ، على فصل سرّ الافخارستيا عن الذبيحة ، فتوقع عنه معناه الاسمى . وهو يدقق في اهمية الاستعداد والشكر لا بالاعمال التي تتلى في الكنيسة وحدها ، بل بافكار الانسان وميوله كلها في سهاره ذاك ، وبالاتحاد المتين بالذبيحة الالهية وبفقه العبادات الطقسية ، فيدفعنا ذلك الى ان نقدّم لله لا اعمالنا او رغباتنا وحدها ، بل اعمال ابنه الذي اصبح واحداً منا .

وان من مفاعيل هذا الحبّ العجيب ان يحملنا على التعويض عن سيئاتنا وعن سيئات سائر الناس . ومن ثمّ ينقلنا المؤلف الى عبادة قلب يسوع ، وهي في اصلها عبادة افخارستية ، شارحاً ميزات رسالة الصلاة ، مظهراً ما يفيلنا اياه التناول المتواتر من صحبة يسوع الودية المخلصة . كل ذلك في كتيّب صغير ، بخس الثمن ، سهل القراءة ، زاه ضرورياً لكل مسيحي يرمي الى الحياة المسيحية الكاملة . ل. ب.

VLADIMIR SOLOVIEV, Les fondements spirituels de la vie. Préface de Mgr d'HERBIGNY. Bruxelles, Editions de la Cité Chrétienne, 1932.

أسس الحياة الروحية

نشكر اولًا للمترجمين الابوين تزيريكوف ومارتن اهتمامهما ونجاحهما في نقل هذا الاثر المهمّ للاورثوذكسي الروسي الكبير ، وهو يمثّل التعبير عن فكرته الكاثوليكية قبل ارتداده الرسمي الى حظيرة رومة .

يبهرنا الكتاب ، لاول وهلة ، بما يتسلسل في صفحاته كلها ، من عناصر تلك الفلسفة السلافية التي لم نتعودها . ولكن كم هناك من تحليل عميق في النفسيات وفي ما وراء الطبيعة ! كم من هتاف قويّ بعيد الصدى ! كم من ملاحظة مُثقلة بما تحمله من منهاج تامّ في الحياة ! كما يتحقق المطالع في الفقرات المختارة ادناه :

« يمكن الكائن بارادته ، وبارادته وحدها ، ان يقاوم الله ، وينفصل عنه ، وينفيه من نفسه ومن حياته . » (ص ٤٩) — « اذا ما اندفع الانسان ، دون مقاومة ، في سبيل انانيته . . . تراه ، وقد فقد كل قرار ، بل كل توازن اخلاقي ، يتحوّل ، حياته كلها ، الى خطيئة مستمرّة . » (ص ٧٨) — « نحن نعيش غالباً على طريقة بعيدة عن الانسانية ، نعيش مستعبدين للطبيعة السفلى ! » (ص ١٩) — « في النفس البشرية ميلان متجاوران يرفعانها فوق الطبيعة كانهما جناحان خفيان ، هما : التعطّش الى الخلود ، والتوق الى الحقيقة والكمال الاخلاقي . اما اذا فصل احدهما عن الآخر فلا يبقى له معنى . » (ص ٢٣) — « ان الكنيسة تجدّ نفسها ومن حيث جوهرها ، تولينا حقيقة المسيح الالهية على الارض » (ص ٢٧) — « ان

الله ، وكلُّ ما فيه وحدة وألفة ، يظهر لارادتنا الخير الاسمى ، وامثلنا الحقيقة المطلقة ، ولاحاسنا الجمال الفائق . . . وبما ان لنا ما يخوّلنا حق تملك كل شيء. اذا ما اتحدنا باليتبوع الاصلي لكل شيء ، فاننا نريد بدل هذا ، ان نتحول نحن انفسنا الى هذا اليتبوع . » (ص ١٠٣) ل. ب .

BERNARD JANSEN, La philosophie religieuse de Kant. Traduit et adapté de l'allemand par PIERRE CHAILLET. [*Bibliothèque d'histoire de la philosophie*]. In-8°, 180 pp. Paris, Librairie philosophique J. Vrin, 1931. Prix : 25 fr.

فلسفة كانت الدينية

« ان تأثير كانت لواضح في جميع فروع الفلسفة فقد وسم روحه كل ما ظهر بعده من الآثار سواء أكان في الاسلوب ام في الموضوع . وذلك لا في الاخلاقيات والمنطق فقط حيث بدا تأثيره عميقاً غالباً ، بل في ما وراء الطبيعة ، وتكوين العالم ، والنفسيات ايضاً . ولقد كان تأثير كانت في الفلسفة الدينية واسعاً عميقاً كذلك . » ان هذه الاقوال ، ولا يفكر في انكارها احد من ذوي الثقافة ، لكافية في الدلالة على اهمية كتاب الاب جانسن الذي نقله الاب شاييه الى الفرنسوية ، نقلاً ارتقى فيه عن الترجمة العادية ، فبدا لا يستعبده النص الاصلي ، ودلّ ، فوق التضلّع من دقائق اللغتين ، على روح فلسفية ، ومعرفة شخصية واسعة بما ظهر من الدروس في الموضوع .

يبدأ الكتاب بفصلين تصوران على قسط وافر من الحياة والرشاقة ، يضعاننا في بيئة القرن الثامن عشر الادبية ، فيصوّران امامنا ، بوضوح وتفصيل ، شخصية كانت ادبياً واخلاقياً . فنستعدّ لخوض الموضوعات الصعبة . واذا بنا نرى في الفصول الثلاثة الاولى من القسم الاول درساً دقيقاً « للنقطة التي بدأت منها الفلسفة الجديدة ، واسلوب سيرها ، والنتائج التي ادّت اليها . » وهذا الدرس يفرض عند المطالع مستوًى لا بأس به من الثقافة الفلسفية . اما القسم الثاني ففيه اربعة فصول يحلل فيها المؤلف نظريات كانت في الاخلاق والدين ، وموقفه من الدين المسيحي . وينتهي بخلاصة غاية في الدقة والضبط توضح في عشر صفحات ما احدثته فلسفة كانت الدينية من التأثير البليغ في المانية خاصة ، بما اثارته من

الحركات الفكرية في دعمها ، او في معاكستها . وان اهتمام المؤلف الدائم بالمقابلة بين نظريّات الفيلسوف ومظاهر حياته تجعل المطالع كمن يشهد تطوّر الفكرة الكانتية ، فيوافق الكاتب على تلك الاحكام الماثلة عن الادّعاء والتميّز ، الدالة على معرفة دقيقة ضابطة للموضوع دلالتها على فكرة قوية شخصية . ولا غرو فان المؤلف معروف في المانية بآثاره في الفلسفة الكانتية ، وقد جعل من كتابه الحاضر اداة ثمينة لدرس تلك الفلسفة ، بما فيه من مراجع لآثار الفيلسوف ، ومن اشارات الى ما نُشر فيها من الابحاث . وعلينا ، بعد تهنئة المؤلف ، ان نشكر للاب شاييه نقله هذا الكتاب الجدير بكل من يرغب بالابحاث الفلسفية ، بل بكل من يهمه تطوّر الموضوعات الدينية في القرن السابق ، ان يحفظه في مكتبته الخاصة .

ي. روش

GEORGE O'NEILL, S. J., Golden Years on the Paraguay. A History of the Jesuit Missions from 1600 to 1767. In-12, 276 pp. London, Burns Oates Washbourne, 1934. Prix : 5 sh.

السنون الذهبية في الپاراغواي

لا يخفى ان اشهر رسالات الرهبنة اليسوعية القديمة هي رسالاتها في الپاراغواي . تلك الرسالات التي جعلت « فلاسفة » القرن الثامن عشر يتكلمون عنها كلامهم عن المثال الاعلى التام التسلُّط والتنظيم ، ولتطبيق الاشتراكية قبل ظهور نظريّتها ، وما يدور حول ذلك من الحوادث والاساطير التي لم يفهمها الناس على حقيقتها فعلقوا بها ولا تزال عالقة في ذهن الكثيرين من جمهرة المتعلّمين . اما الحقيقة فهي الظاهرة في هذا التاريخ تنتج من عرض الحوادث عرضاً بسيطاً واضحاً . هي سنون ذهبية حقًّا تلك التي قضاها المرسلون اليسوعيون ، على مدة تتجاوز القرن ونصف القرن ، في مجاهل الپاراغواي ، يهذّبون اولئك المتوحّشين فيجعلونهم رجالًا اولًا ثم مسيحيين ، ويماكسهم في اكثر اعمالهم وطنيّوهم من البيضان ، وكان من حقّهم ان يتكلوا على مساعدتهم . انما الجيش الذي كان يدفع باولئك المغامرين كان يحول بينهم وبين العاطفة الانسانية ، اذ يسعون في استعباد سكان البلاد ، فيجدون في وجوههم اليسوعيين وقد آلوا

على انفسهم تحرير الهنود وتعليمهم الواجبات والحقوق البشرية ، فينقضون عليهم ويشيّعون عنهم تلك الروايات . اما اليسوعيون فقد ثابروا على خطتهم فـأولوا الالوف من الهنود حياةً هنيئة مطمئنة ، شبيهة بعضهم بحياة الفردوس الارضي ، على ما كان يتخلّلها من نزاع وعراك . وها ان تاريخ هـذه الحياة غدا واضحاً ظاهراً لمن يشاء ، مستنداً الى المصادر الوثيقة بفضل مؤلف الكتاب.

ج.ل.

Louis Baudiment, François Pallu, principal fondateur de la Société des Missions Etrangères, 1626-1684. In-8°, 498 pp., cartes hors texte et gravures. Paris, Beauchesne. Prix : 50 fr.

فرانسوا پالو ، احد مؤسسي جمعية الرسالات الاجنبية

انها لنقطـة مهمة في تاريخ ارساليات الشرق الاقصى ، وفي تاريخ فرنسة الكاثوليكية ، وصول الاب اسكندر الرودسي اليسوعي الى فرنسة عائداً من تونكن . كانت غايته ان يحمل رومة على ان تهتمّ بتـأليف اكليروس وطني في تلك البلاد ، فتبعث اساقفـة مُرسلين . فصادف في باريس في اخوية الاب باگو نخبة من الشبان الاتقياء الغُيُر ، وما هو ان كلّمهم عن الارساليات البعيدة حتى اظهروا رغبةً شديدة في الذهاب الى تلـك المجاهل . وكان بينهم فرنسوا پالو ، من تُور ، وهو صاحب هذه الترجمة الكبيرة التي يقرأهـا المطالع بسهولة ولذّة فيتحقق ان صاحبها ملأ حياته بالاعمال الجليلة ، حياة كاهن اصبح اول نائب رسولي واول اسقف مُرسَل . وضع أسس جمعية المرسلين الى البلاد البعيدة ، وضحّى بكل ما لـديه في سبيل نشر الايمان ، فـار بنفسه ورتب كنائس الهند الصينية والصين . وعاد الى اوربة مرتين في سبيـل رسالته ، ثم رجع الى الشرق الاقصى على رغم ما كان ينتظره من المصاعب والمخاطر المتنوّعة حتى الموت . كان على قسط وافر من توازن العقل ودقة النظر ، يقرن ذلـك بمقدرة على التنظيم والترتيب ، بحبة وميل الى العمل لا تثنيه العقبات . ولم تكن اسفاره العديدة لتحول بينه وبين متابعة غاية يسعى اليهـا ، او تحقيق مشروع يفكر فيه . وقد زار سورية مرتين ، فذكر في ما ذكره ، ان حلب كانت

من افضل محطاته . ويذكر انه مرّ في الاسكندرونة . ثم انه ابحر من بندر عباس الى الهند فالى مملكة سيام . وعند وصوله كتب ما يلي : « ان حرية المرسلين تزداد شيئاً فشيئاً كلما تقدمنا من تركية الى بلاد فارس ، ومن فارس الى الهند ، ومن الهند الى سيام . » ولقد ساقه الحظ الى القيام برحلة حول العالم دون ان يقصدها . وذاك انه ترك فرنسة في سفرته الثانية الى رسالته ، وعاد الى فرنسة بعد سبع سنوات ، وهو يسير دائماً نحو الشرق . فكان اول رحالة دار حول الارض متجهاً دائماً الى الشرق . على انه لم يتمّ بهذا الامر . وبعد ان قضى ثلاث سنوات في رومة يعمل على حلّ بعض المشاكل الناشئة بين النواب الرسوليين والرهبان المرسلين وحقوق التاج البرتغالي ، عاد الى رسالته وقد عُيّن نائباً رسولياً على منطقة فوكين في الصين ، وفيها مات على اثر وصوله سنة ١٦٨٤ .

يكفي هذا الملخص للدلالة على اهمية الكتاب ، لما فيه ، فضلاً عن ترجمة صاحبه ، من الامور المتعلقة بنشأة تلك الرسالات ، وبتأثير الأب اسكندر الرودسي .

ج . ل .

L. Lercher, S. J., Institutiones theologiae dogmaticae. Seconde édition, 3 vol. in-8°. Innsbruck, Verlag F. Rauch : vol. II, M. 6,50 — vol. III, M. 7,50 — vol. IV, M. 10.

مؤسسات اللاهوت النظري : المجلدات ٢ و٣ و٤

وصف « المشرق » في الجزء الاخير من السنة الثالثة (٣٢ [١٩٣٤] ٦٠٩) المجلّد الاول من مؤسسات اللاهوت النظري . وها اننا نفيد القرّاء عن ظهور المجلدات الثاني ، والثالث ، والرابع ، متّحفة بما عرفناه للاول من صفات جعلت الكتاب من أُسس التدريس اللاهوتي في كثير من المدارس الاكليريكية . وما الطبعة الثانية الا الدليل الواضح على اعتبار المدارس للكتاب . وقد أُنقص ثمنه في مجلداته الاربعة من ١٢ مركاً الى ٣٢ .

ج . ل .

P. Léonce de Grandmaison, S. J., Ecrits spirituels, II, Retraites. In-8° couronne, X-316 pp. Paris, Gabriel Beauchesne et ses Fils, 1934. Prix : 20 fr.

آثار روحية : ٢ في الرياضات

هو الجزء الثاني من كتابات الاب ليونس دي گرانميزون الروحية . يضم مواعظ الرياضات التي القاها الاب بين السنة ١٩١١ والسنة ١٩٢٠ ، بعضها مكتوبة بكاملها ، وبعضها ملخصة . ولا شك في ان الكثيرين الذين اعجبوا بالمجلد الاول ، الجامع محاضرات لاب الروحية ، يستفيدون من المجلد الحاضر ، وفيه صدى اجلى لتلك الحياة الروحية القوية التي كان يحياها الاب المذكور . فضلًا عن ان رجال الدين ، يمكنهم ان يجدوا في الكتاب دليلًا امينًا ثابت العقيدة ، ومعينًا على ما قد يقومون به من وعظ وارشاد .

Grandeurs mariales étudiées dans l'Ave Maria. Œuvre inédite d'un auteur français publiée par Mgr Natale Licari. In-8°, 800 pp., Turin, Marietti, 1934. Prix : 20 fr. fr.

عظمة العذراء مريم في « السلام الملائكي »

ليس مؤلف هذا الكتاب من المتعبدين للعذراء مريم فحسب ، بل هو ، فوق ذلك ، لاهوتي دقيق النظر واسع الاطلاع . فالى كتابه درسًا مشيًا يلذ للراغبين في هذا النوع من الابحاث اللاهوتية ، فضلًا عن قرّاء كتب الصلاة العادية . وقد شاء ان يغفل اسمه . الا ان هذا لا يمنعنا من شكره لتلك المادة الثمينة في الكتاب ، ولما قام به من ترتيبها حسب ترتيب اقسام « السلام الملائكي » ، مقسمًا الكتاب الى ثمانين وخمسة ابواب و٥٥٤ فقرة .

Fritz Milkau, Geschichte der Bibliotheken im alten Orient. In-8°, 58 pp., 26 fig., cartes et plans. Leipzig, O. Harrassowitz, 1935.

تاريخ المكاتب في الشرق القديم

هذا كتيب مفيد لمؤلف انفق حياته كلها في درس علم المكاتب . وكان قد نشر القسم الاول من المجلد الثالث سنة ١٩٣٣ ، عندما فاجأه الموت . فكان ان الطابع اتفق وارملة الفقيد على نشر هذا القسم الذي نعرضه اليوم على القرّاء .

بعد ان عرضنا على العالم بالاشوريات المشهور الاستاذ برونو ميسنر ان يعيد النظر في المخطوطة ويتعهد نشرها . فقبل ، وراجعها بمعاونة المستشرق اوبيتز ، فاضافا اليها بعض المعلومات دون ان يغيرا شيئاً في نصها .

والمؤلف ، على قصره ، يدرس حالة المكاتب في مصر ، وبلاد ما بين النهرين ، وبلاد الحثيين ، على غاية من الترتيب ، مشيراً الى المصادر الواسعة التي استقى منها المعلومات ، ممهداً بذلك السبيل الى القراء في التوسع بالموضوع . ومما يجدر بالذكر تلك الملخصات الواضحة ، وما يرافقها من خرائط ورسوم تطلع القارئ على تاريخ الثقافة في المناطق المختلفة التي يدرسها ، وتعينه في استخلاص الحكم العام على اقسام المؤلف ، بل على المؤلف بكامله . وهو حكم يقره المطالع على الغالب ، اذا استثنينا فيه بعض النقاط الثانوية .

نذكر من ذلك ان مصر ، على رغم ما اشتهرت به من الحكمة منذ اقدم العصور ، لم يقف المؤلف ، في درس بقاياها ، على اثر لتلك المكاتب التي كثيراً ما تكلم عنها القوم وقالوا انها مخبوءة في جميع الهياكل قد يظهر المستقبل شيئاً من هذا ، اما اليوم فلا شيء .

وبضد حالة مصر ، كانت حالة بلاد ما بين النهرين في ما خص المكاتب . فان حفريات القرن التاسع عشر كشفت ، في بلاد اشور ، مستودعات مهمة للالواح الكتابية كان الملوك يجمعونها في قصورهم وقرب هياكلهم . يذكر منها المؤلف المكاتب المهمة في نينوى (مكاتب اسوربانيبال) وفي اشور ... ثم ينتقل الى القرن العشرين ، فيذكر مكاتب سيأز (ابو حَبَّا) ، ونيبور (نُوفَر) ، وسيبار أورو (الدير) ، ولاگش (تلو) ، وكيش (أُخَيمر) .

اما الحثيون فقد جمعوا كل آثارهم الكتابية في عاصمتهم بوغاز كوي . وقد كشفت الحفريات تلك الالواح المسمارية التي استعان بها العلماء على فهم لغاتهم المختلفة .

بيد انه يجب القول ان هذه المستودعات الجامعة لنحو ١٠٠,٠٠٠ لوحة كتابية والتي ساعدت على تجديد معرفتنا لتاريخ الشرق القديم ، لا توافق ما نفهمه اليوم بالمكاتب . فلا نتصورن مجموعة للكتابات يمكن كل انسان ان

يقرأها ويستفيد منها . انما هناك اماكن وُضعت فيها تلك الالواح دون ترتيب ، على الغالب ، ولا فهارس ، فالمت مستودعات للسجلّات والوثائق ليس غير .

ولكن هذا لا يضير في شيء قيمة الكتاب التي تظلّ ثمينة بما يحمله من معلومات كثيرة ، قد تسهّل على ارباب الثقافة عندنا ان يستخدموه فيلقوا محاضرات يزينونها بالصور المشبّعة ، فيتذوقها مواطنونا ، دون شك . س . د .

DAVID DIRINGER, Le Iscrizioni antico-ebraiche palestinesi raccolte e illustrate. [*Pubblicazioni d. Università di Firenze*]. In-8°, XXIX-361 pp., 30 planches de fig. diverses et 2 tabl. d'écritures. Firenze, F. Le Monnier, 1934.

الرقم العبرانية القديمة في فلسطين

سأصف هذا الكتاب النفيس وصفاً مطوّلاً في نشرة جامعة القديس يوسف . على ان هذا الوصف لن يظهر قبل مرور بضعة اشهر ، ولهذا رأيت من واجبي ان أُطلع قرّاء « المشرق » باختصار على موضوعه .

كلّ يعرف ان ايطالية — ومثلها بلجيكة — لم تهتم الا متأخرة بالدروس اللغوية المتعلقة بالشرق الادنى . على انها تقدمت تقدماً سريعاً . ويكفي بهذا الكتاب باكورةً شهية في ذلك ، وهو يخوض موضوعاً لم يطرقه بجملته احد بعد . فينجح فيه ، ويعرض كل ما يُعرف من الرقم العبرانية في فلسطين ، من لوحة گيزر ورقيم قناة سلوى في اورشليم حتى اصغر الاختام . فيدرسها ويعلّق عليها ويذكر المصادر والمآخذ العديدة لكل منها . وهذا يكفي للدلالة على اهمية الكتاب وفائدته ، ولست لاتبسط اليوم في وصفه ، انما ادعو الى مطالعته كل من بدأ من مواطنينا الشرقيين بدرس العلوم الرقيمة الشرقية والكتابية الاثرية .

س . د .

D^r G. CONTENAU, Monuments mésopotamiens nouvellement acquis ou peu connus (Musée du Louvre). In-4°, 27 pp., 7 fig. dans le texte et XV planches phototyp. Paris, Les éditions d'art et d'histoire, 1934.

آثار ما بين النهرين الجديدة او غير المشهورة

ان ناشر هذه المجموعة الجميلة ، الذي شاء فاهداها الى مكتبتنا الاثرية

الشرقية، استخرجها من « مجلة الفنون الاسيوية » من مجلدها السابع (١٩٣١). وحسناً فعل اولاً لان قيمة هذه الآثار كبيرة بحدّ نفسها، وثانياً لان الكثيرين من المقيمين في الشرق لا صلة لهم بتلك المجلات المفيدة، فيستفيضون بمجموعة جميلة تطلعهم على اشهر الآثار في بلاد ما بين النهرين: شومرية وبابلية وفارسية، من التي حفرت حديثاً او غير المشهورة، وكلها في متحف اللوفر.

هذا فضلاً عما للدكتور كونتينو، امين قسم الآثار الشرقية في المتحف المذكور، وشارح هذه الآثار، من الشهرة في هذا الفن. وان قرّاءنا يعرفونه بمقالاته العديدة وابحاثه في الاختام السورية - الحثية، والتصاوير البابلية وغيرها، كما انهم يقدرونه، ويعجبون بتاريخه الصغير الجامع « للمدنية الفنيقية » ولاسيما بكتابه الكبير في « علم الآثار الشرقية » ذي المجلدات الثلاثة، الذي كان ظهوره حدثاً مهماً في تاريخ الفن الشرقي.

ولا نرى حاجة الى التبسط في وصف الآثار المذكورة في المجموعة. فانها تهمّ الاختصاصيين، على الغالب. وتفيد امناء المتاحف الفوائد الكثيرة. اما الرسوم فعلى غاية من الاتقان تشهد بالذوق للناشر. س. ر.

Pierre Waltz, Le monde égéen avant les Grecs. In-16, 128 figs. Paris, Armand Colin. Prix : 10 fr. 50.

العالم الإيجي قبل اليونان

تقدّم لنا غير مرّة ان وصفنا مؤلفات في الآثار الاقريطشية، منها دليل الى اطلال كنوسوس تكلّمنا عنه مؤخراً (المشرق ٣٢ [١٩٣٤] ٦٦٤). هذا وليس من يجهل تلك الاكتشافات المهمة التي تظهر من نحو ثلاثين سنة في جزر الارخبيل وخصوصاً في اقريطش. وهي التي مدّت العلماء فخصّوا بها الابحاث القيّمة. على انه، لم يتمّ قبل مؤلف هذا الكتاب، من اهتمّ بعرض حالة تلك الاكتشافات على طريقة موجزة تامة يستفيد منها، لا الاختصاصيون فقط، بل جمهور الادباء وكل من يهمّهم الوقوف على التاريخ القديم. ولقد كان الشرق خاصةً بحاجة الى مثل هذا الكتاب، لاننا لا نعرف في بلادنا بحثاً رصيناً في هذا الموضوع.

فكان فضل مكتبة ارمان كولن ان عهدت الى المؤلف پيير والتز ، استاذ اللغة والآداب اليونانية في جامعة كليرمون فران ، والمعروف بمدة ابحاث في التاريخ القديم ، في ان يقوم بهذه المهمة . فجمع في كتابه سعة الاطلاع وقوة الاسانيد ، الى سهولة المبنى ووضوح التقسيم ، مزينا كل ذلك ببعض رسوم مختارة ، فاستحق الثناء . وبقي علينا ان نتمنى ان ينهض احد ادبائنا فيستفيد من هذا الكتاب النفيس ، فيلخصه لقراء العربية ، ويزيد في عدد رسومه ، ويضيف اليه شيئاً عن العلاقات بين ذاك العالم الايجي وشرقنا العزيز منذ اقدم عصور التاريخ ، فيطلع ابناء بلادنا على موضوع ستتقدم الدروس فيه دون شك سنة فسنة ، ويؤدي خدمة جليلة لتاريخ البلاد . س . د .

Festschrift Otto Procksch,... von A. ALT, F. BAUMGAERTEL u. ander. überreicht. In-8°, 166 pp. avec un portrait. Leipzig, A. Deichert, 1934. Prix : M. 4.

ذكرى تكريم اوتو پروكش

الاستاذ أوتو پروكش من اشهر علماء البروتستانت في درس العهد القديم وقد بلغ في العام الفائت ١٩٣٤ الستين من سنيه ، فاحتفل ثمانية من زملائه ومريديه من الاختصاصيين بدروس العهد القديم ، بتكريمه على طريقة غاية في الذوق والفائدة وذلك انهم نشروا في هذا المجلد ابحاثاً متنوعة في موضوع اختصاص الاستاذ ، وقدموه اليه اقراراً بفضله . اما هذه الابحاث فهي : دور السامرة في تطور العقيدة اليهودية بقلم ألت (A. Alt) . الوصايا العشر المسيحية وعلاقاتها بالشريعة الموسوية بقلم بومغرتل (F. Baumgaertel) . العناية الالهية والنظرية في لاله كما تظهر في العهد القديم بقلم ايخرود (W. Eichrodt) . الاصول الاولية للصلاة الربية « ابانا الذي في السموات » بقلم هرمان (J. Hermann) . بعد هذه الابحاث يعرض نوث (M. Noth) شرحاً جديداً لاسم العبرانيين متكئاً بالاستناد الى الوثائق المكتشفة اخيراً في فلسطين وما بين النهرين ويدرس فون راد (G. von Rad) العلاقات بين كتاب اللاويين واسفار الاخبار . ثم يهتم روست (L. Rost) بدرس الاسماء المتنوعة التي

يستعملها العهد القديم تسمية « البلد » و « الشعب » . واخيراً يعنى سلين (E. Sellin) بالتدقيق في نص انشودة دبورا وضبطه وترجمته.

كل هذه الموضوعات يخوض فيها العلماء بضبط ورصانة ، فتؤلف عملاً مفيداً يقدم معلوماتنا في عدة نقاط من تاريخ اسرائيل السياسي والاجتماعي والديني ولا يفيد هذا ان كل ما يُدلي به الكتّاب من براهين، وما يستنتجونه من نتائج مقبول لا جدال فيه . لا ، فان هناك مجالاً لكثير من الملاحظات والتحفظات ، ولاسيما ان الروح الذي يهيب باكثرهم ، على ما يبدونه من مظهر المحافظة ، روح بروتستانتي محض مائل الى التحكم العقلي في العقائد.

على اننا استفدنا حقاً من بحثي آلت ونوت الحافلين بالاسانيد حتى الاخيرة منها. هذا وثمن الكتاب ٤ مركات ، قليل جداً بالنسبة الى قيمته.

س. ر.

Hommage à Alexis Petrovics, In-4°, 132-227-241 pp. 147 fig. la plupart en phototypie. Edité par les amis et les fonctionnaires du Musée hongrois des beaux-arts. Budapest, 1934.

إكراماً للكسيس بتروفيتش

وهذا ايضاً كتاب تذكاري قدّمه فريق من المعجبين بالاستاذ الكسيس بتروفيتش مدير المتحف المجري في بودابست، ومن موظفي المتحف المذكور، الى مديرهم بمناسبة مرور عشرين سنة على بدء ادارته للمتحف . والكتاب على ثلاثة اقسام : ١ً ابحاث باللغة المجرية كتبها كلها موظفو المتحف قدماء وحاليون . ٢ً ترجمة هذه الابحاث الى اللغات الفرنساوية او الالمانية او الانكليزية او الايطالية . ٣ً لائحة بجميع الآثار التي دخلت المتحف في العشرين السنة الاخيرة ، يزين ذلك عدد من الرسوم. ولا يخفى ان فكرة ترجمة الابحاث الى لغات اقرب متناولاً من اللغة المجرية لفكرةٌ حسنة فسحت المجال للكتاب فيتسع انتشاره وتزداد فوائده وهي ثمينة للفنانين والاختصاصيين بالفن المسيحي والمصورين ، وامناء المتاحف في اوربة وفي اميركة خاصة.

س. ر.

GIOVANNI FAUSTI, S. J., **L'Islam nella luce del pensiero cattolico.** In-8, 181 pp., Roma, La Civiltà cattolica, 1933.

الاسلام في ضوء الفكرة الكاثوليكية

هذه مجموعة مقالات ظهرت في مجلة ايطالية في رومة . اما كاتبها فمرسل في البانية ، وهناك عرف الاسلام ، ودرس المصادر المهمة لدرسه فاستفاد منها واشار اليها دائماً في ابحاثه . على انه ليس من المستشرقين . وتمتاز مقالاته بنفحة من اللطف والتحبب تدفع المسلمين الى قراءته دون نفور ولا تذمّر . وهو يدعوهم الى اعادة النظر في المسيحية فيتحققون ان عقيدة الثالوث المقدّس غير ما يتصوّرون . واذا كان لا بدّ من ملاحظة نبديها فنقول ان المؤلف يولي الصوفية اهتماماً زائداً فيبالغ في تقريبها من آراء نبيّ المسلمين. ه.ل.

SOUALAH MOHAMMED, **L'Islam et l'évolution de la culture arabe depuis l'Antiquité jusqu'à nos jours.** In-16, 226 pp., 32 illustr. et 1 carte. Alger, P. et G. Soubiron, 1934. Prix : 12 fr.

الاسلام وتطوّر الثقافة العربية منذ القدم حتى ايامنا

كتاب لطيف الحجم ، وافر المعلومات ، فيه ملخّص جامع لاهم العقائد والعبادات الاسلامية ، ما يتصل منها بالتاريخ وما يستند الى الاساطير . وفيه لمحة سريعة يلقيها المؤلف على عصور الادب العربي المتتابعة منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر . فيظهر مزايا هذا الادب الاجمالية ، وان كان يفوته الكثير من الدقائق في تقدير القيَم والحكم النقدي ، وفي صفات الاعلام البارزة . وقد يجد الاختصاصي في الموضوع هنات عديدة في التأريخ (وسبب بعضها خطأ الطبع في الارقام) ، وفي تراجم الادباء على اقتضابها المقصود ، والحكم على المذاهب الادبية — مما يكاد يعلق بكل اثر روعي فيه جانب الاختصار . ولعلّ المؤلف دوّن هذه المعلومات قبل اليوم — كما يظهر من كلامه عن المعاصرين وفيهم من طواهم الموت منذ ثلاث او اربع سنوات فلم يشر الى ذلك — وحالت المشاغل بينه وبين اعادة النظر فيها ، ولم يستفد مما نُشر مؤخّراً من ابحاث في الادب والتاريخ ، فظلّ مختصره على ما فيه من نواقص . على انه كتاب لاعانة الطلاب في الامتحانات الرسمية في الجزائر ، وهو ما رمى اليه المؤلف خاصة. ف.ا.ب.

Tuhfat al-Aḥbâb. Glossaire de la matière médicale marocaine. Texte publié pour la première fois avec traduction, notes critiques et index, par H. P. J. Renaud et G. Colin, *Publications de l'Institut des Hautes-Études Marocaines*, t. XXIV. In-8°, XXV-218-70 pp. Paris, Geuthner, 1934. Prix : 150 fr.

كتاب تحفة الاحباب في ماهية النبات والاعشاب

هذا الكتاب معجم صغير باسماء عدد وافر من النبات والجماد ، وبعض الحيوان ، مما له علاقة بالطب والعقاقير ، وضعه احد علماء مراكش في العصور المتأخرة ليكشف « رموز المادة الطبية » ، فيسهل الاستفادة من كتب الطب على بني قومه . وقد شرح تلك الالفاظ باقتضاب وذكر مرادفات بعضها باللغة البربرية . وقف الناشران على بضع نُسخ خطية للتحفة فدرساها طويلا وقابلا بينها . ثم طبعا الكتاب ، وترجماه الى الفرنسوية وعلقا عليه حواشي ثمينة كلفت جهدا متواصلا ، ودلت على معارف واسعة . واذا بذاك المعجم المقتضب الجاف يصبح اثرا نفيساً جزيل الفائدة لا لطلاب تاريخ الطب العربي وما اليه من عقاقير ونبات فقط ، بل لكل مشتغل بتاريخ ادبنا ، بل للمشتغلين باللغة انفسهم من الذين يتعثرون على القواميس العربية - الفرنسوية فقرها في مثل هذه الابحاث . وفي الكتاب مادة واسعة لفائدتهم جميعاً . ف . ا . ب .

Les axiomes médicaux de Yoḥanna ibn Massawaih. Ouvrage publié pour la première fois, avec des corrections et des annotations, par le R. P. Paul Sbath. In-8°, 34 pp. Le Caire, 1934.

النوادر الطبية ليوحنا بن ماسويه

ابن الطبيب النصراني يوحنا بن ماسويه (ت ٨٥٧) ، طبيب المأمون ، ومدير « بيت الحكمة » في بغداد ، اشهر من ان يُعرَّف . كتب بهذه النوادر الى تلميذه حنين ابن اسحق . وقد وقف حضرة الاب بولس سباط على مخطوطتين لها فضمهما الى مكتبته المعروفة ودرسهما ، ثم نشر محتواهما ، بعد ان قدّم على ذلك مقدّمة قصيرة مفيدة ، وترجم بعض هذه « النوادر » الى اللغة الفرنسوية . فاتى عملا مشكوراً . ف . ا . ب .

R. Grousset. Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem. Tome I. L'anarchie musulmane et la monarchie franque. In-8° avec 1 cartes. Paris. Librairie Plon. Prix : 60 fr.

تاريخ الصليبية ومملكة اورشليم الفرنجية

يسرنا ان نرى عهد الصليبيين يلفت نظر المؤرخين في فرنسة ، منذ استقرار الانتداب الفرنسوي في هذه البلاد . ومن الحق انه كان للآثار القديمة نصيب وافر في هذا الامر . فان تلك القصور التي شادها الفرنجة في الشرق والتي لا تزال بقاياها ماثلة شواهد عظمة وسعة تصور ، أثرت في مشاهديها العديدين يوماً فيوماً فاخذوا يتساءلون : من كان اولئك البناة ؟ وكيف كان عهدهم ؟ وهكذا بدأت المقابلة بين تلك العصور وعصرنا الحاضر ؛ ولم تكن الافضلية من مزايا عصرنا في الكثير من الاحوال.

قام المؤلف بدرس دقيق في موضوعه ، فاستغلّ جميع الاعمال التمهيدية كآثار مؤرخي الصليبيين التي نشرها مجمع الرُّتم والآداب في فرنسة ، ومجلة الشرق اللاتيني التي توقفت عن الصدور لسوء الحظ . وسار على اسارب نقدي صحيح ، على كونه لم يتخلص احياناً من بعض المزالق في هذه الدروس القديمة ، ومنها ان نقيس مؤسسات الماضي بافكار الحاضر . ومهما يكن من أمر ، فان تأليفه ، اذا ما انتهى في مجلداته الثلاثة ، يمثل اثراً فخماً من اجلّ ما قام به علماء الفرنسويين في درس العهود الماضية في آسية القريبة. ج. ل.

Henri Muller, Touti-Nameh ou les contes du perroquet de Ziay-ed-din Nakhchabi d'après la rédaction de Mohammed Qaderi, traduits de l'original persan. (*Publications de la Faculté des lettres de Strasbourg*, deuxième série, vol. 13). In-8°, 124 pp. Paris, Les Belles Lettres, 1932.

حكايات الببغاء

هذه مجموعة حكايات فارسية واسعة الشهرة ، كثيراً ما نقلها الكتاب او نسجوا على منوالها ، وكثيراً ما تُرجمت باختصار او بتصرّف الى اللغات الشرقية والغربية . اما هذه الترجمة فمن أصل أصلح في القرن السابع عشر فاختُصرت

فيه الحكايات القديمة وحُذف منها الكثير من التوسيعات اللفظية ومظاهر البلاغة الجوفاء من التي لا تقوى على الترجمة. واما الموضوع فهو اشبه بموضوعات « الف ليلة وليلة » على فرق ان شهرزاد توسع المجال لبغاء متكلمة تروي الكثير من الحكايات. الا انها ليست بالثرثارة ، فهي توجز التعبير فتريح السامع ، وتهجه بما في ملاحظاتها من دقة ، وما في اساليبها من حياة منعشة . وقد ترقى بملاحظاتها الى مجال الفلسفة الرفيعة . وهو ما دفع گوته ، الشاعر الالماني ، الى ان يقول ، بعد قراءته هذه الحكايات : « إن ادب هذه البلاد ادب رجل معتبر ناضج يرى في ظواهر الحياة قيمة رموز متنوعة . »

ج. ل.

J. M. Gouilet. Le crépuscule des traités. In-12, 262 pp. avec 12 cartes dans le texte. Paris, Editions Berger-Levrault, 1934. Prix : 15 fr.

شفق المعاهدات

قد يظهر هذا العنوان على شيء من الغموض ، لاول وهلة . الا ان المطالع لا يلبث ان يستجلي الغاية من الكتاب . يخوض المؤلف موضوعاً في الجغرافية السياسية ، وهو علم يتقدم بخطى واسعة ، على حداثة عهده ، وعلى ما أُدخل فيه من المبالغات احياناً . فيرى ان مبررات السيادة التاريخية من معاهدات ومواثيق كتابية ، لم يبقَ لها في عصرنا من الثبات ما كان لها في الماضي . يكفينا في ذلك ان نلقي نظرةً على ما آلت اليه معاهدات سنة ١٩١٩ و١٩٢٠ التي خُتمت بها الحرب . ولا يخفى ان هناك من مشاكل الحدود والمناطق المجاورة ما يظل دافعاً الى الاختلافات . هو يدرس كل ذلك ويدلّ عليه بامثلة مختارة في جميع المناطق حتى الاراضي القطبية . تبلغ دروسه العشرين متصفة بدقة التحليل ، والوضوح ، والاهتمام بموضوعية تترفع عن الميول والاهواء . فيستنتج ان من الضرورة ان تُبنى الاتفاقات في ما بعد ، لا على الورق المدوّن ذكرى انتصارات القوة والدهاء ، بل على الحوادث الواقعية الناتجة من تمازج الشعوب بعضها ببعض ، ومن حاجاتها وحاجات الارض التي تعيش عليها وتتغذى بها ، وعلى التحليل العلمي لهذه الحوادث ، على العلوم الطبيعية ، على التاريخ

والجغرافية السياسية . ولا يخفى ان من ضروريات هذا العلم ان يتصف الآخذ به بالتجرّد والطموح الى المثل الاعلى اتصافه بالموضوعية العلمية فوق كل شيء.

ج . ل .

Dossiers de la coopération intellectuelle. L'adoption universelle des caractères latins. 1 vol. 16×22,5. Paris, Librairie Stock, 1934. Prix : 20 fr.

استعمال الحروف اللاتينية استعمالاً شاملاً

استعمال الابجدية اللاتينية في اللغات الشرقية مسألة عويصة متشعبة الاطراف لا يمكن الامل برؤيتها ناجحةً الا شيئاً فشيئاً وبعد زمن طويل . وقد جُمع في هذا المجلد اجوبة عديدة عن هذا الاقتراح تتنوّع بنزعاتها وتختلف بوجهات نظرها، من الرفض التام الى القبول المطلق دون قيد ولا تحفظ . بيد ان العُقّال لا يرغبون في استبدال الابجدية اللاتينية بغيرها من الابجديات الشرقية استبدالاً فجائياً كما جرى في تركية ، لان هناك في ابجديات الشرق تراثاً ثميناً من الادب يكون طرحه من اكبر الجرائم . وهذا ما اجابت به مصر تقريباً بلسان الاستاذ صبري (ص ١٨٠) . على ان غاية عارضي هذه الفكرة ليست الغاء الابجديات الشرقية ، انما ان تجعل الحروف اللاتينية الى جنب الحروف الاصلية ، تسهيلاً على الاوربيين ، كما فعل مرسلو الكاثوليك مثلاً في الصين . ولعلّ الفكرة تكون اقرب الى التحقيق ، اذا عُرضت من هذه الناحية .

ج . ل .

Charles Chesnelong, L'avènement de la République 1873-75. Mémoires publiés par son petit-fils. In-12, 247 pp. Paris, Librairie académique Perrin. Prix : 15 fr.

مذكّرات في تأسيس الجمهورية (١٨٧٣ — ١٨٧٥)

كان من نصيب صاحب هذه المذكرات ان يتدخل تدخلاً فعلياً في المفاوضات التي جرت في السنة ١٨٧٣ في سبيل اعادة الملكية الى فرنسة . وقد احترم العلماء كل ما ادلى به من شهادات في آثاره الظاهرة مدة حياته . فاهتم

حفيده اليوم بنشر هذه المذكرات البادئة منذ مددت سلطة المرشال مكماهون. وهو عهد مهم اذ برشرت فيه الاعمال التمهيدية لسن الشرائع التأسيسية او الدستور. وقد كان للمؤلف فيها القسط الوافر. وهو موضوع الكتاب الذي لا تخفى اهميته على احد. واذا اضفنا الى ذلك ما اتصف به المؤلف من دقة وصدق وتجرد في اقواله، دللنا المطالعين، ولاسيما المؤرخين منهم، على مصدر ثمين لتاريخ فرنسة المعاصر. ج. ل.

E. Eaguet, Histoire de la poésie française de la Renaissance au Romantisme. VII, Voltaire. 264 pp. Paris, Boivin et Cie. Prix : 15 fr.

تاريخ الشعر الفرنساوي : المجلّد السابع.

هو المجلد السابع من تاريخ الشعر الفرنسوي، يخصّه المؤلف النقّادة المشهور بفولتير، فيدرس فيه نشأته الادبية، وما اثّر في عقله من الافكار، وباي نظرة كان يرى الفنون والانواع الشعرية التي خاض فيها كالملحمة والرواية التمثيلية. ثم يدرس ملحمته المعروفة « بالهنّرياد » وهي اثر قد يكون له شيء من الاهمية، الا انه خالٍ من الشعر. بعد ذلك يعرض المؤلف لآراء فولتير الفلسفية والسياسية والاخلاقية الظاهرة في آثاره الشعرية، ويختم بذكر حكم جوبير الذي اشار الى « نظرة فولتير الصائبة، في شعره، والى مخيلته الفنيّة، وذكائه المرن، وذوقه الدقيق »، ويزيد عليه ان آثاره الشعرية يضيرها كونها وُلدت عن فكرة مقرّرة ونظرية سابقة لا عن اندفاع نفسي، فخرجت من العقل بدل ان تخرج من الكيان الانساني كله. ج. ل.

Henri Chrétien, Les méthodes de prévisions du temps à courte et à longue échéance. Charles Lavauzelle éditeur, 1934.

طرق تقدير الطقس

ان هذا الكتاب لاثرٌ اشبه بدائرة معارف، كما قال كاتب المقدمة الاستاذ جبرائيل گيلبير، الاختصاصي بعلم ظواهر الجوّ. ونحن نقرّه على هذا الحكم، اذ نرى في الكتاب كثيرًا من صفات دوائر المعارف، مما تحتويه من مواد

وافرة : حوادث واقعية وفرضيات نظرية تكاد تلخص كل ما قيل او كتب عن علم الظواهر الجوية . فهو كنز من المعلومات في هذا العلم الحديث النشأة كعلم دقيق ، وان تكن تطبيقاته قد شغلت الانسان منذ اقدم العصور . وهذا ما دفع كاتب المقدمة نفسه الى القول : « يقرأ المطالع الكتاب واذا به واقف على احدث المعلومات في العلم المذكور . »

بيد انه قد يؤخذ عليه — وهذا ايضاً من صفات دائرة المعارف — انه لا يميز التمييز الكافي بين ما هو حقيقة علمية ثابتة ، وما لا يزال فرضية ممكنة ، او خالية من كل امكان . ثم ان هناك جولات يقوم بها المؤلف في علوم تخرج عن اختصاصه ، كعلم النجوم مثلاً ، فتفقده الى تعابير لا تتصف بالوضوح الكافي . واننا نتمنى طبعة جديدة لهذا الكتاب الذي يمثل جهود سنوات عديدة ، فيتخلص من هذه الشوائب ، ويصبح جديراً بان « يستند اليه يومياً كل الذين يخوضون مجاهل الاوقيانوس الجوي كما يستند اليه غيرهم ، وهم كثيرون ، من الذين يهتم علم تقدير الطقس » . ش . كوميه

فوق العباب

لاحمد زكي ابي شادي

١٥٨ ص . متوسطة ، مطبعة التأليف ، بالقاهرة ، ١٩٣٥ . الثمن : ١٠٠ مليم

لعل الدكتور احمد زكي ابي شادي اوفر شعراء مصر حظاً في هذه الايام . فهو لا يظهر المجموعة الا اعد الاخرى للطبع ، حتى ليخال الناقد انه يُفرد في نهاره ، او في ليله ، ساعات خاصة للنظم في مختلف الموضوعات . وها هو يتحفنا اليوم بمجموعة جديدة مصورة احتوت على « ١٤٧ قصيدة ومقطوعة جمعت ٢٢١٨ بيتاً » فيها قطع فنية لا بأس بها ، وفيها قصائد ظرفية قد يأتي عليها الزمن فيمحو اكثرها ، وفيها منظومات علمية قد تظل قلقة بين الشعر والعلم . على ان للنقاد مجالاً للنظر في ذاك التصدير الوافي الذي قدمه على المجموعة ، وهو مظهر جلي — كاكثر تصديرات ابي شادي — لتغلغل الفكرة الشعرية في ادمغة الشبان من ادباء مصر . ف . ا . ب .

على عتبة الامومة

بقلم الدكتور مصطفى خالدي

٢٠٥ ص. متوسطة كبيرة مصوّرة – مطبعة طبّارة، بيروت، ١٩٣٦

الثمن: ٥٠ غ. ل. س.

اما وقد أعرب ارباب الجرائد والمستفيدون عن ترحيبهم بهذا التأليف الجديد الذي أتحف به الامّهات، اي الامة، الحكيم الاستاذ مصطفى الخالدي فترتّب بالاحرى على الخادم الامين لفنّ الوقاية والصحة ان يرحّب به باسم «المشرق»؛ وقد ترتّب عليه خاصةً حمدُ الله على ان قام في الوطن ولفته من جعل كالخالدي ان البذار المنثور في «علم الصحة» وبريدتي البشير والثبات وغيرهما منذ اربعين سنة اصبح شجرةً باسقة الاغصان غزيرة الثمار تظلّل الامّهات وتحميهن وتنذي الرضّع وتُنميهم.

لا ريب أن ما تتوخّاه مؤلف «على عتبة الامومة» لاشرف وأفيد ما يصبو اليه الطبيب والاجتماعي والوطني، اذ هو صيانة الامّ «والدنيا ام» مع سلامة الجنين والطفل النحيف، ذلك الضعيف اللطيف في الحال على حدّ ما هو قويّ عظيم في الاستقبال. والنفساء والرضيع لهما بأشدّ الحاجة لهذه الصيانة، وهما هي لهما اليوم بعصر النور متوافرة صادقة بعد ان ظلّت أجيالًا غامضة مجهولة. وها هي اليوم مسطّرة بقلم حكيمنا. ان موت الماخض بحتى النفاس، مثلًا، والالتهابات المميتة آفة الرضّع، او الرمد الصديديّ العامي لمئات الالوف من الاطفال، وغير أمراض قد اصبحت من الشذوذ بمكان. وما هي الا لجهل او لاهمال في تلافي الجراثيم بالطهارة والتطهير، طبقًا للتعاليم الحديثة، بنت. پاستور وأعوانه، العجيبة الفوائد.

وبهذا الكتاب افادات عديدة ثمينة، منها ما وقع في الصفحة ١١٥ تحت عنوان «مطالب الطفل من أمه» او في الصفحة ١٣١ لتدارك الرمد الصديدي السابق ذكره بقطرة نيترات الفضة البسيطة؛ ومن هذه الافادات ايضاً أنّ البنية الصحيحة والسلالة السليمة لأحقّ كثيرًا بان تُطلب من طالب الزواج من

المهر والجاه ، كما ان للمتزوجين او لمن هم « على عتبة » الزواج ، كلمةً تنمّ عن فطنة وخبرة .

واذ كان المقام لا يسمح بالزيادة في الاسهاب فانا نقف عند بعض ملاحظات يشفع بقبولها من الاخ الكريم ما بُنيت عليه من الاخلاص والتعاون في خدمة غايته ومهمته النبيلة ، ناظرين الى طبعة ثانية قريبة بتوفيق الله :

١ً وضع موجز للفتيات قبل زواجهنّ يحترمُ شعورهنّ اللطيف وعفافهنّ الدقيق . فانّ من التفاصيل والصور ما هو أجدر بالحجاب من السفور ، وبتلميذات الاستاذ في فنّ القبالة مما للمخدّرات في بيوت والديهنّ . وهنّ ليعجزن عن فهم تلك الدقائق التشريحية او الفيزيولوجية مع ما هناك من رسوم وتشابيه .

٢ً تجاوزه « عتبة الامومة » الى ما هو من قواعد الملبس ، وتنظيم الارضاع ، وتعقيم الحليب بالاغلاء مع اعطاء الڤيتامين (vitamines) وشكل الفراش والسرير (اي ان يكونا غير مثقوبين في الوسط للاناء . . . ولا هزّازين كالسرير المصوّر صفحة ١١ والمؤلف لم يذهل عن تحذير الهزّ . . . أجل لا يجوز ان يبقى من الهزّ الا العبارة الشهيرة : « التي تهزّ السرير بيمينها تهزّ الارض بشمالها » . اي تدوين كل ما هو من « التربية » ولها ، وهو ما يعبّر عنه الافرنج بكلمة : puériculture ، ولاسيما الآية المقول عنها في « قانون الصحة » يجب ان تكتب بماء الذهب على سرير كل رضيع وهي : « الوالدات يُرضعنّ اولادهنّ حولين كاملين لمن اراد ان يُتمّ الرضاعة »

٣ً لفت ، لا « إلفات » ، نظره الى بعض عبارات منها : حيث توجد الحياة لا بدّ من وجود نواة (في الخليّة cellule) . والميكروب ، عدو المواخض والاطفال الالدّ ، كله حياة وغاء وهو لا نواة له . والحثّ على الزواج الباكر فلا يُكتب ان سنّ استيفاء شروط الزواج حتى في البنات انما « هو ٢٣ سنة » مع انا كلّ يوم ننادي بالزواج الباكر وفقاً للآية الكريمة : « ان لم يتعفّفوا فليتزوّجوا » والزواج سياج الاخلاق الضامن من البغاء شرّ الشرور . ونحن نقف مكرّرين الشكر للاخ الاستاذ المهام والثناء على عمله معيدين النصح بالتقيد بما اراده للامهات من وقاية لهنّ وسلامة لاولادهنّ .

امين الجميّل

الكنيسة او مملكة المسيح على الارض

للاب خليل اده اليسوعي

بيروت - المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٦ ، ص ٢٠١ ، قطع ١٢

هي سلسلة ابحاث لاهوتية خطابية ملؤها روح المحبة والغيرة على مجد الكنيسة الشرقية امّ القديسين العظام في عهد اتحاد الكراسي البطريركية الشرقية بالكرسي الرسولي. اصل الابحاث يرقى الى سنة ١٩١٧ ، اذ كان المؤلف يلقي مواضيعها في كاتدرائية مصر المارونية ، ثم اعاد النظر فيها مدة تعاطيه الخدمات الرسولية في مصر ، وعرضها باسلوب وضّاح نيّر لكل من يرغب في معرفة حقيقة الكنيسة وفقاً لتعاليم الكتاب المقدس ولتقاليد الآباء مدعمةً بالبراهين اللاهوتية والتاريخية. ولا بدّ ان يلفت هذا الكتاب نظر الاكليروس وعلى الخصوص نظر اساتذة المدارس الاكليريكية فيرتادوه عند تهيئتهم المواعظ ودروس اللاهوت . فنسأل الرب مؤسس الكنيسة ان ياخذ بيد المؤلف الفاضل فيتحفنا بمؤلفات شبيهة بهذا الكتاب الممتاز بقوة البرهان وبلاغة البيان .

ف. ت.

اجمل زهرة في حديقة آل هبرا

او السيد الطيب الاثر مار غريغوريوس بطرس متروبوليت الموصل فدمشق

١٨٥٦—١٩٣٣

تأليف تلميذه الخوري اسحق ارملة السرياني

المطبعة الكاثوليكية ببيروت ، ١٩٣٦ ، قطع ١٢ ص ١٦٤

يشمل الكتاب جزءين الاول فيه سلسلة آل هبرا ، وجدُّها الاعلى سليمان هبرا المولود في دمشق عام ١٦٢٤ . خصّ المؤلف بالذكر ١٩ فرعاً من كبار رجالها واولادهم اخذاً عن شجرة عائلية وضعها الدكتور اسكندر هبرا منقولة عن أرومة سبق فانشأها نسيبه يوسف عبد الله هبرا . وعلق عليها الاب اسحق مستعيناً بتعليقات الدكتور اسكندر فبيّن ما لآل هبرا من الوجاهة والفضل في

الدين والدنيا . اما جزء الكتاب الثاني ففيه ترجمة السيد المطران غريغوريوس هبرا من نشأته الى اقامته في مدرسة عين طورا فسيامته الكهنوتية ورئاسته دير الشرفة فارتقائه الى الاسقفية وتدبيره شؤون الابرشية الموصلية ثم الدمشقية فوفاته ، وقد قضى حياةً ملؤها الاعمال الرسولية بين التعليم والكتابة والعناية برعاية النفوس . ومن اهم الكتب التي خطها قلمه تأملات هامون في ثلاثة مجلدات عرّبها عن الافرنسية ثم اضاف اليها مجلداً رابعاً ضمّ فيه ما انشأه من التأملات ابتكاراً . وله آثار في التصوير منها صورة قلب يسوع الاقدس نقشها على مذبح مدرسة عين طورا . ان حضرة الاب اسحق اظهر ذوقاً حسناً في انتخابه موضوع كتابه وعالجه برقة وعاطفة طيبة تنمّ عنها طيات الكتاب فنهنئه ونتمنى لكل الاسر المسيحية الشرقية النبيلة ان تلقى في امثال الاب اسحق ما لقيته اسرة هبرا من عناية ومحبة .

ف . ت .

اليزيدية قديماً وحديثاً

وهي ثلاثة فصول لاسماعيل بك جول امير اليزيدية في سنجار

نشرها الدكتور قسطنطين زريق

المطبعة الاميركانية بيروت ١٩٣٦ ، ص ١٢٤ ، قطع ٨

اسماعيل بن علي بن حسن بن جول بن بداغ بن ميرخان بن سليمان وُلد في الشيخان ، مركز السلطتين الدينية والمدنية عند اليزيدية ، وشبّ فجاب الاماكن التي يقطنها اليزيدية في الشيخان ، وسنجار ، وديار بكر ، وحلب ، وروسية ، ساعياً في سبيل الامارة والزعامة وهو يعتقدها ارثه الخاص ، راغباً في خدمة امته ودينه . وكان في كل مكان ينزل به يعلم ابناء امته اصول دياناتهم ويوطد علاقاتهم بالحكومة وبالشعوب المجاورة لهم كالاتراك والاكراد والارمن ويجمع الحسنات لمعيشته . وحمى اسماعيل بك من جور الاتراك المسيحيين اللاجئين الى جبل سنجار ايام الحرب العظمى ، واتصل بالجيش الانكليزي المرابط قرب سامرة ، ودخل معه الموصل ، وفي سنة ١٩٣٣ توفي في سنجار . .

ولاسمعيل بك ابنة علمها في مدرسة الاميركان في بيروت وتعرف الى ادارة جامعتهم فارسل الى رئيسها المستر بايرد ضوذج الفصول الثلاثة في معتقدات اليزيدية وعاداتهم وبعض حوادث تاريخهم ، مع سيرة حياته وطلب اليه نشرها. فأخذ الدكتور قسطنطين زريق على عاتقه مهمة نشر هذه الوثائق المفيدة تاريخ بلادنا وشعوبها واديانها ، فعلّق عليها مستعيناً على شروحه بما كتبه عن اليزيدية الافرنج والعرب ، وبما استفاده من الطلبة المراقبين العرب والاكراد الموجودين في الكلية الاميركية . وذيّل الكتاب بفهرس للاعلام واسع النطاق غزير المادة. نشكر له هذه الجهود ونسيح اذناً بلفت نظره الى ان ما قاله (ص: ك من المقدمة) عن عدي بن مسافر ومولده قرب بعلبك يؤيده وجود قبر في خربة قنفار ، وهي قرية في جنوبي البقاع لا تبعد كثيراً عن شاطئ نهر الليطاني الايمن ، يزوره الناس ويقولون انه قبر السيدة زبيدة ام الشيخ عدي بن مسافر .

ف . ت .

الانسان

تأليف السيد علي فكري رئيس المترجمين بدار الكتب المصرية

القسم الاول: ١٦٦ ص ، والثاني: ٢٢٨ ص بقطع ٨ (١٣٥٣ ، ١٩٣٥) ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، بمصر

هذا الكتاب يجمع فوائد وتعليمات عديدة وافرة ، شرح فيه المؤلف تركيب جسم الانسان ، وذكر وظائف اعضائه الظاهرة والباطنة واعصابه وحواسه باسلوب مشوّق يدلّ على سعة الاطلاع وكثرة المعارف. فيه الصور المتقنة العديدة مع الاقوال الحكمية والآراء المستندة الى القرآن والاحاديث والى غيرها من الكتب العربية والافرنسية ، وغير ذلك من الفوائد اللغوية والصحية والنصائح الادبية والاجتماعية مما هو جدير بتفكهة القارئ وتسليته . فيُعدُّ هذا الكتاب خطوةً جديدةً في سبيل تثقيف العامة وتعليمها الالمام بشيء من العلميات وفيه خدمة للعلم جديرة بالثناء ، والنموذج قيّم لما بلغ اليه فن الطباعة من الكمال في مطبعة السيد عيسى البابي .

ف . ت .

الاطلال : رواية قصصية مصرية

بقلم محمود تيمور

١٥٧ ص. منيرة – المطبعة السلفية ، مصر ، ١٩٣٤

عوّدنا المؤلف القصصي المصري ، محمود تيمور ، ان ينفحنا بين آونة واخرى ، بمؤلف يحتوي على رواية طويلة يردفها ببعض الحكايات الصغيرة . يدرس كل مرّة محيطاً جديداً ، ويجرّب ان يظهر لنا مظهراً كاملاً من مظاهر الحياة الاجتماعية المصرية . اختار في الرواية الحاضرة مشكلاً من مشاكل الحب الذي تلقحه مفاسد العصر فيولّد حالات اقلّ ما يقال فيها انها تراوح بين العار وشقاء الحياة واليأس والانتحار . ذكر تهوّر احد الشبان ووصوله الى احطّ دركات الفساد ، بعد ان بدأ يلهو بالحب « الطاهر » في زعمه ، ولم يدرِ ان اللهو بالحبّ لا يعقب الخير ، وان من يدنو من النار يحترق . كل ذلك في موضوع بعيد من ان يعمل على تعزيز الاخلاق في البيئة المصرية وفي غيرها من البيئات ، وان كان الاسلوب على جانب من اللطف والسلاسة . م.ك.

دائرة المعارف الاسلامية

الترجمة العربية

الجزءان ٨ و٩ : الصفحات من ٤٨١ – ٦٢٤ – لجنة الترجمة : ٣٠ شارع نوبار باشا بمصر

تقدّم للشرق (٣٢ [١٩٣٤] ١٥٩) ان ذكر هذا المشروع الجليل الذي يقوم به الاساتذة محمد ثابت الفندي ، واحمد الشنتناوي ، وابراهيم زكي خورشيد ، وعبد الحميد يونس ، يشجعهم عدد من مفكري مصر ، بما يعلّقون من حواشٍ على بعض المواد ، ومن شروح على بعض التعابير . وقد واصلت اللجنة جهدها ، واذا بين ايدينا اليوم الجزءان الثامن والتاسع من المجلّد الاول يضمّان ، في ١٤٠ صفحة كبيرة ، كثيراً من المواد من « احمد بن سهل » الى « ارطغرل » ، بينها ابحاث مهمة كمقال گولدسيهر عن « احمد بن محمد بن حنبل » ، ومقال مورتمان عن « ادرنة » ، ومقال عبد الحق الواسع عن لغة

« الاردو » ، وبحث ده بور عن « ارسطاطاليس » . اما الحواشي فقد خلا منها الجزء التاسع ، وما نُشر منها في الجزء الثامن لا طائل تحته . واما العناية فطي تتقدم متواصل ، ان شاء الله . ف . ا . ب .

سيرة الاب البار بشاره ابي مراد المخلّصي

بقلم الخوري قسطنطين الباشا المخلّصي

٢٢٤ ص . منيرة – مطبعة دير المخلّص ، صيدا (لبنان) ١٩٣٦

وُلد الاب بشارة ابي مراد في زحلة سنة ١٨٥٣ ، وتوفي في دير المخلص سنة ١٩٣٠ . لبّى دعوة ربه الى خدمته ، فدخل الرهبانية المخلصية . ثم كان من حظّ دير القمر ان عرفته فاستفادت من غيرته وصلاحه مدة ٣٢٠ سنة . ولا يزال شذا قداسته يفوح في تلك الجهات . وقد احسن صنعاً حضرة الخوري قسطنطين الباشا بان جمع كل ما عرفه بنفسه ، وما سمعه من عارفي الاب البارّ ، فحّصه ، ودقق فيه ، عالماً « ان آفة تاريخ رجال الله تسرّب الشكّ الى النفوس بصحة اعمالهم الخارقة وحمل الكلام فيها على المبالغة . » ف . ا . ب .

قصص علمية للاطفال : ١ النحلة العاملة

بقلم كامل كيلاني

١٠٥ ص . متوسط – مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٣٦

اشرنا في جزء سابق (٣١ [١٩٣٣] ٧٨) الى عناية الاستاذ كامل كيلاني بالاطفال عناية خاصة جعلت ارباب الثقافة والتربية يجمعون على الثناء عليه . وفضلنا اسماء ما نشره من « قصص فكاهية » و « قصص جديدة » و « قصص للاطفال » . وقد واصل الاستاذ عمله منذ ذاك الحين ، فاخذ باختيار عدد من اشهر القصص الغربية كروايات شكسبير ، ورحلات گوليفر ، ودون كيخوته ، والكوميديا الالهية ؛ واضاف اليها قصة شيشرون الجبّار ومنتخبات من رحلات ابن بطوطة ؛ قاصداً تقريبها من ذهن الاطفال . ولم نقف على هذه السلسلة بعد لنحكم عليها . على ان بين يدينا الجزء الاول من سلسلة جديدة دعاها « قصص

علمية للاطفال » ، وقد خصه بدرس النحلة العاملة ، مقدماً على ذلك حكايات متنوّعة عن الحيوانات مما يشوّق الطفل ويسير به شيئاً فشيئاً الى التفهم العلمي . وفي آخر الكتاب إلمامة مفيدة في النحل اقتبسها الكاتب من دائرة المعارف الفرنسوية ، واردفها بمعجم للنحال وبجدول في اعلام الحيوان جزيلي الفائدة . كل هذا يبدو في مظهر غاية في الاتقان من حرف جلي ، وطبع مُتقن ، ورسوم جميلة واضحة .

ف . ا . ب .

مآثر عريضه : ٣

بقلم خوراسقف بطرس حبيقه

١٢ + ١٥٠ ص . متوسطة – المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٥

هو الجزء الثالث من ترجمة صاحب النبطة مار انطون بطرس عريضه البطريرك الماروني ، جمع فيه المؤلف احداث السنة الثالثة من بطريركيته دينية واجتماعية ، ولخصها باللغة الفرنسوية ، فاضاف دليلاً جديداً على اهتمامه بتأريخ البطريركية المارونية .

لقطة العجلان

تأليف : بدر الدين الزركشي — شرح : جمال الدين القاسمي الدمشقي

١٩٠ ص . متوسطة صغيرة – نشره « مكتب النشر العربي » : مطبعة ابن زيدون ، دمشق ، ١٩٣٦

هو كتاب مختصر في المنطق واصوله من قضايا وقياسات ، وما يتصل به من مبادئ في الادراك وطرقه وانواعه ، وعلم الجدل وما يحتاج اليه مع لمحة في العلوم الاسلامية . ألّفه احد أئمة المتأخرين في مصر ، بدر الدين الزركشي (١٣٤٤–١٣٩٢) ، وعلّق عليه الحواشي احد أئمة دمشق في القرن الماضي ، جمال الدين القاسمي الدمشقي (١٨٦٥ – ١٩١٤) ، فرأى « مكتب النشر العربي » في دمشق ، ان يخرج هذا الكتاب في جملة منشوراته التي نعرف منها « المنقذ من الضلال » للامام الغزالي . فاكتفى بان اخذ له مقدمة ترجمة للشارح ، كان الاستاذ محمد كرد علي قد نشرها في مجلته « المقتبس » على اثر وفاة صديقه

المذكور .. ولا شك في ان الكتاب مفيد لطلاب هذا النوع من العلم ، وان يكن بحاجة الى شيء من التبويب والتوضيح في الفهارس خاصة ، والى مزيد عناية في المظهر الطبعي.

ف. ا. ب.

مجال القلم

بقلم ليون لورنس عيسالي

١٤٠ ص. متوسطة – مطبعة النجم ، الموصل ، ١٩٣٥

مجموعة مقالات دينية واجتماعية وتاريخية اكثرها من النوع الصحفي كان المؤلف ، وهو من ادباء كركوك ، قد نشرها في بعض جرائد العراق ومجلاته ، ثم رغب في ان يوسع مجال الاستفادة منها ، فجمعها وطبعها على حدة في مجلد افتتحه بذكر الملك غازي الاول . فنتمنى ان يكون للمؤلف ما رمى اليه من فائدة بني قومه.

الملك اوديب

رواية تمثيلية ذات ثلاثة فصول

تأليف : اندره جيد — تعريب : الشيخ حبيب اليازجي

٤٠ ص. كبيرة – المطبعة التجارية ، بوانس ايرس ، ١٩٣٢

قصة الملك اوديب اشهر من ان تُعرّف بعد ان خلدها سوفوكل في رواية لا تزال من المُثل العليا للفن التمثيلي . وقد شاء الشيخ حبيب اليازجي ان يتحف الآداب العربيـة بهذه الرائعة الفنية ، بعد « ان صحّت عزيمته على نقل سلسلة من الروايات والمبتكرات الحديثة عن اشهر مفكري الغرب المعاصرين ، مستأنفاً بذلك العمل الذي باشره لسلافه في سبيل زيادة ثراء اللغة العربية واعلاء شأنها » كما قال في مقدمته . قلنا : ونعم العمل ! على اننا وددنا لو عاد المعرّب الى اصل رواية « اوديب الملك » كما ولّدتها عبقرية سوفوكل — ولها الترجمات الكثيرة الدقيقة الى لغـات الغرب الحديثة — فنقلها كما هي بدل ان ينقل ما حاكته حولها عقلية اندره جيد الشاذّة . الا ان تكون غايته نقل « ادب » جيد الى

العربية . والادب العربي ، ولاسيما العباسي والانحطاطي منه ، من ابي نواس الى صفي الدين الحلي ، بغنىً عن معنوياته بجيد ونظرياته ؛ وقد أسرف ادبائنا في تطبيقها كل الإسراف في خمارات بغداد وضواحيها . بقي اسلوب بجيد الرفيع حقاً ، وهو ما لم يتوفق المعرب الى نقله : وليس من المنتظر ان يتوفق غيره الى ذلك . فضلاً عن ان الرواية بعيدة عن الروح التمثيلي لما تعتمد المؤلف فيها من مناقشة النظريات الاجتماعية الدائرة حول الاسرة والدين والاخلاقيات مناقشة سرعان ما يمل منها الحاضرون ، لو مُثلت الرواية امامهم ، ولن تُمثل لانه لم يقصد بها التمثيل . ولهذا فلا يمكن ان يستفيد منها روائيونا مثالاً لهذا الفنّ الذي لا يزال طفلاً في ادبنا العصري . واذاً فاننا نستغني عن هذا النوع من الادب ، شاكرين للمعرب حسن نيته !

ف . ا . ب .

تقويم الهلال لعام ١٩٣٥

١٤٤ ص . كبيرة مصوّرة . مطبعة دار الهلال بمصر ، ١٩٣٤ . الثمن : ٥ غروش مصرية

هي السنة السادسة لهذا التقويم الجامع بين اللذة والفائدة . اصدرته دار الهلال ، مطبوعاً بالروتوگراڤور ، حافلاً بالصور والرسوم العديدة ، محتوياً على الكثير من المعلومات السياسية والاقتصادية عن مصر ، مع نُتف تاريخية عن اشهر رجال العالم اليوم ، وابحاث مختصرة في بعض الادواء الاجتماعية والمظاهر العلمية ، يتخلل كل ذلك قصص وشذرات ونكات فكاهية ، فيتسلى المطالع ويستفيد .

* القوّة بالاتحاد * ١٤ ص . صغيرة ، اورشليم ، ١٩٣٤ — « نبذة تاريخية في اصل اللغة العربية ، بقلم الاستاذ الثابت الوطني المخلص » . وكلها منظومة ، عليها بعض الحواشي النثرية .

* مكتبة لويس سركيس * هي سابقاً مكتبة « يوسف اليان سركيس واولاده » — شارع الفجالة رقم ٥٣ ، القاهرة — لائحة بكتبها القديمة والحديثة حتى كانون الثاني ١٩٣٥

* مكتبة الهلال * لصاحبها ابراهيم زيدان وولده — شارع الفجالة ، القاهرة — لائحة كتبها الصومية لسنة ١٩٣٣-١٩٣٤

* مكتبة سعد مصر ومطبعتها * لصاحبها ومديرها سيد مصطفى — شارع الفجالة رقم ٦٣ ، شارع درب الجماميز رقم ٣٦ ، مصر — قائمة كتبها لسنة ١٩٣٣ ، مع ملحق بالمطبوعات الحديثة والادوات المدرسية والمكتبية لسنة ١٩٣٤